يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

دم وخمر!

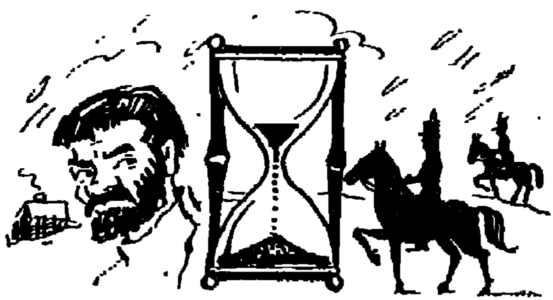
من أبدع روائع
الكاتب والفيلسوف الروسي الخالد: **ليو تولستوي**



ليو تولستوي

دم .. وخمر !

العبيد خمير ! (بوليكوشكا)
فارسان .. وعذراء !



СОЧИНЕНІЕ
ЛЬВА ТОЛСТОГО

ПОЛИКУШКА
ДВА ГУСАРА

٢٠٠ صفحة — ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وسبعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . اما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : من سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا ((عن سنة)) خالصة أجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه .

واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) الخطيئة الاولى ، اوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأللحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة اجزاء) بوشكين ، اعترافات جان جاك روسو (٥ اجزاء) ، قصص من الصين ، ترالى بلزاك ، الالياذة (٣ اجزاء) ، قصص من روما ، المسبحة (جزءان) ، سفينة الملذات .

وثمن النسخة ١٠ قروش ، عدا الأعداد ١ و٤ و٧ و١٩ و٢٢ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ و ٢٨ و ٣٢ ـ ١٢ قرشا ، والاعداد ٢ و ٥ و ٦ ـ ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل أجر البريد المسجل عن كل عدد .

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب

يصدرها : حلمي مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

دار الكتاب

الكتاب الثاني والاربعون

دم .. وخمر !

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ــ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ــ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

عملاق جبار .. يفيض محبة وسلاما !

عزيزى القارىء :

.. **وأخيرا** ، جاء دور العملاق .. دور « ليو تولستوى » ، عملاق الادب العالمى ، لا الادب الروسى وحده .

ولقد ظللت طويلا أصبو الى أن أقدم لك شيئا من انتاج « تولستوى » ، فهو ثروة غالية ، ثمينة ، لا ينبغى أن تخلو منها مكتبة أى قارىء ، فى أى بلد .. **ولكن أكبر عملين ضخمين فى حياة « تولستوى » الكاتب ، هما : « الحرب والسلام » و « أنا كارنينا » .. وكل منهما تقتضى ترجمته ــ ترجمة أمينة كاملة ، كما هى رسالة « مطبوعات كتابى » ــ افراد اعداد ، واعداد متتابعة** .. ولقد حدثتك فى العدد ٦١ من « كتابى » كيف أن « الحرب والسلام » تتألف من ألف وخمسمائة صفحة ، فالترجمة الحرفية لها ، كفيلة بأن تشغل أعداد « مطبوعات كتابى » لعشرة أشهر على الاقل .. لذلك وجدتنى مضطرا الى أن أكتفى بتلخيصها لك فى ذلك العدد من «كتابى» ، كما لخصت لك قبلها « لحن كرويتزر » فى العدد ٣٠ .

ولكن الفكرة ظلت تراودنى باستمرار .. ان « مطبوعات كتابى » تظل ناقصة ما لم تتضمن شيئا من انتاج هذا العبقرى الجبار . وأقبلت أقرأ كل انتاجه ، عسى ان أجد منه شيئا يمكن تقديمه فى نطاق « المطبوعات » دون اختصار ، أو مسخ ، أو تشويه .. **وكان لا بد لهذا الانتاج المنشود ، من أن لا يكون قد ترجم الى العربية من قبل ، ليكون مفاجأة طيبة لك ، وليكون فى السبق إلى ترجمته تعويض لك عن « ارجاء » تقديم شوامخ « تولستوى »** ..

واقول « ارجاء » متعمدا ، وعن قصد .. فان الفكرة لا تزال تراودنى ، وتلح على .. ولا ازال وأسرة « كتابى » ندرس معا ، كيف يمكن أن نقدم لك هذه الشوامخ ، التى لم تترجم كاملة من قبل .. فمن الصحيح ان « الحرب والسلام » و « أنا كارنينا » و « لحن كرويتزر » و « البعث » .. من الصحيح انها — أو بعضها — قد ترجم الى العربية ، ولكن جميع هذه الترجمات لم تكن كاملة ، لضخامة حجم المؤلفات الاصلية !

فاشل فى صغره .. عبقرى فى كبره !

• **والى** ان يتم تحقيق هذا الحلم الجميل ، أقدم لك — من انتاج تولستوى — القصتين الطويلتين اللتين يضمهما هذا العدد من « مطبوعات كتابى » ، واللتين ترجمهما الزميل **محمد بدر الدين خليل**

على أننى قبل أن أذكر لك كيف تم اختيارهما ، احب ان أقدم لك حديثا سريعا عن « تولستوى » نفسه .. **الكاتب والفيلسوف الذى أجمع النقاد وأهل الادب ، فى جميع البلدان ، وعلى مر الاجيال ، على أنه من أعظم الخالدين فى تاريخ الادب والقصة .**

ولد « ليو نيكولايفيتش تولستوى » فى سنة ١٨٢٨ ، فى أسرة نبيلة ، عريقة المحتد .. اذ كان ابوه « كونت » ، وكانت أمه أميرة ، وكانت أملاكهما شاسعة ، وثروتهما عظيمة . وقد ذاق « ليو » مرارة التيتم وهو فى التاسعة من عمره ، ولكن أقرباء له أشرفوا على تربيته وتعليمه ، حتى اذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، ألحق بجامعة « قازان » ، حيث درس اللغات الشرقية والقانون .. بيد أنه لم يلبث أن انصرف الى اللهو ، فلم يتم دراساته ، والتحق بالجيش فى سنة ١٨٥١ . وقد قدر له أن يكون بين ضباط لواء المدفعية فى (القوقاز) ، وكان أحد

المدافعين عن مدينة (سيباستبول) فى حرب القرم ..

على أنه لم يلبث أن استقال من الجيش ، وقضى أربعة أعوام يجوس خلال أوروبا الغربية ، حيث درس أساليب التربية . بيد أن احتكاكه بالمدنية الغربية ، جعله يستنكرها ويشمئز منها ، اذ لمس أن المادية لبها ، والزيف والاصطناع مظهرها . لذلك عاد الى ضياع أسرته فى (ياسنايا بوليانا) ، حيث أنشأ مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين ... وحيث تزوج من « صوفيا اندرييفنا بيهرس » ، التى أنجبت له ثلاثة عشر ابنا وابنة ، والتى كانت عونا له فى أعماله الادبية ، وكثيرا ما كانت تنقل له مؤلفاته بخطها . حتى ليقال أنها نسخت له « الحرب والسلام » سبع مرات !

يتجرد من متاع الدنيا !

• **وخلال** هذه الفترة ــ التى امتدت من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٧ ــ تفرغ « تولستوى » للأدب ، وكتب خير انتاجه القصصى .. قصصا أجمع أهل الادب ــ فى العالم بأسره ــ على أنها كنز ثمين . بل أن قصته « الحرب والسلام » اعتبرت « الرواية القومية لروسيا » .

وبعد سنة ١٨٧٩ ــ أى بعد أن فرغ من « أنا كارنينا » بعامين ــ بدأ يستعرض حياته ، وينتقد الاسلوب الذى جرت عليه . واستبدت به نزعة روحية بلغت ذروتها فى سنة ١٨٨١ ، حين أقبل على الدين ، وراح يمارس طقوسه وينقد تعاليمه ويدعو اليها ، ويبشر بأن « السعادة الحقة لا تتحقق الا اذا جرد الانسان نفسه من كل المظاهر الزائفة للحضارة ، وارتد الى فطرته ، ورد الكنيسة الى أصولها المسيحية الاولى ، وسار على هدى الضوء المنبعث من أعماقه ، والذى يقوده الى حب أخوته من بنى البشر » . **وكرس « تولستوى » قلمه لهذه الدعوة ، فأصدر طائفة من المؤلفات والكتيبات الدينية ،**



ليو تولستوى
فى صدر شبابه

تدعو الى المحبة والسلام ومحو الفقر ، ونزول الاغنياء عن بعض مالهم للفقراء .. فسبق بذلك الحركة الاشتراكية فى بلاده .وقد بدأ بنفسه ، فوزع أرضه على الفلاحين ورفيق الارض ، وتجرد من متاع الدنيا !

على أن تطرفه فى دعوته ، أوغر عليه صدر الكنيسة الارثوذكسية الروسية ، فأصدرت قرارا بحرمانه فى سنة ١٩٠١ . ولكن هذا لم يفل من روحه ، ولم يثنه عن الرسالة الروحية التى آلى على نفسه أن يؤديها !

زوجته تطلق الرصاص على صورة ابنتهما !

• ولكن الحرمان من الكنيسة ، لم يكن كل ما أصابه من جراء دعوته . فقد نكب بحرمان آخر .. الحرمان من حب زوجته ! .. فقد كان تخلصه من ثروته وأملاكه سبب شقاق أحال حياتهما ــ التى كانت من قبل نعيما هانئا ، بكل ما للكلمة من معنى ــ الى جحيم لا يطاق .. وقد انضم أولاده جميعا الى أمهم ، عدا ابنته الصغرى « الكسندرا » التى ظلت تناصره ، وتلازمه ، وتعمل كسكرتيرة له . ومن العجيب أن هذا أثار غيرة أمها ، حتى انها طردتها من المنزل ، ثم اندفعت الى حجرتها ، وأطلقت الرصاص على صورتها ! ..

الى هذا الحد بلغ الامر بزوجته ! وكانت تصاب ــ حين يعارضها ــ بنوبات هيستيرية ، وتهدده بالانتحار ! .. ولكنها ــ فى احيان اخرى ــ كانت تذكر حبهما الماضى ، فتركع عند

قدميه ، وتلحف فى الرجاء أن يقرأ لها العبارات الغرامية التى كتبها عنها فى يومياته ـ قبل اربعين عاما ـ فكانا يبكيان معا ، وهما يستعيدانها !

على أن حنقها عليه اشتد بعد أن أصر على أن يهب الشعب الروسى حقوق نشر كتبه بدون مقابل . ولم يعد يحتمل نوباتها حين بلغ الثانية والثمانين .. وفى ليل ٢١ أكتوبر سنة ١٩١٠ ، هرب من بيته ـ وابنته الكسندرا ترافقه ـ وانطلق هائما على وجهه فى الظلام والبرد الزمهرير .. وبعد أحد عشر يوما ، مات بالتهاب رئوى ، فى محطة (استابوفو) للسكك الحديدية .

تسع قصص تمهد للشوامخ

• **والآن** ، تعال أحدثك عن القصتين الطويلتين اللتين ستقرأهما ، فى هذا العدد :

لقد كان اختيار المادة من أصعب الامور ، اذ أن روائع « تولستوى » قدمت لك من قبل ، وان لم تكن كاملة أو دقيقة .. كما أن البحث عن تحف جديدة ، لم يسبق أن نقلت اليك بالعربية ، كان كالبحث عن ابرة وسط كوم من التبن !

وأخيرا ، ظهر أن « تولستوى » كان قد وضع ـ قبل أن يفرغ لكتبه الضخمة ـ تسع قصص ، بين قصيرة وطويلة ، تناول فى بعضها أحداثا من صميم حياته مزجها بالخيال ، وتناول فى بعض آخر مشروعات أفكار لقصص كبيرة ، وتناول فى اثنتين منها حياة الرقيق فى روسيا .. **فقد كانت هناك ـ فى تلك الحقبة ـ من العهد القيصرى ـ طبقة مستعبدة ، لا تختلف كثيرا عن الطبقة التى عهدناها يوما فى ريفنا ـ فى بعض العهود المظلمة ـ اللهم الا فى أنها كانت ترسف فى مزيد من الذل والهوان .. تلك هى طبقة الرقيق** : رقيق الارض ، الذى كان يعيش على أراضى الاسرات الاقطاعية ، فهى تستنزف دمه

وقواه وحيويته ، فى سبيل زيادة ثرواتها .. ورقيق البيت ، من أبناء الجوارى والعبيد ، الذين لا سبيل لهم فى الحياة فى مجتمع ساده الظلم والفوضى ، الا بالبقاء فى أسار السادة !

القصة التى أذهلت ((تورجنيف))

• **وكانت** « للعبيد ضمير ! » — أو «بوليكوشكا» كما أسماها تولستوى — هى أقوى هاتين القصتين .. وهى صورة لحياة ربما شـــهدتها أجيال قبلنا فى بعض البلاد العربية ، ولكنها بالنسبة لجيلنا ، صورة جديدة ، طريفة ، تحرك أقسى القلوب الانسانية صلابة ، وتعلى من قدر الكرامة والعزة البشرية التى كانت كامنة تحت مظاهر الذل والاستكانة ! .. انها تبين كيف أن الرقيق بشر ، يستطيع أن يتوب بعد ضلال ، وأن يستقيم بعد تخبط .. فلما أبت الظروف الا أن تظهر بطل القصـــة بمظهر يفقده ثقة مولاته ، وايمان زوجته به ، وتقدير زملائه ، قضى على خياته !

ولست أملك أن أقول فى هذه القصة أبلغ مما قاله « ايفان تورجنيف » ، وهو الآخر من أعمدة القصة الروسية :

((قرأت قصة تولستوى ((بوليكوشكا)) ، فأذهلتنى قوة موهبته الهائلة .. وان فيها لصفحات من أروع ما كتب حقا . انها لترسل قشعريرة باردة فى ظهرى ، رغم ما تعرفه من أن ظهرى قد أصبح أكثر سمكا وصلابة .. انه لاستاذ ! أستاذ !))

أما القصة الثانية : **((ضابطان وعذراء))** — أو « ضابطان من الفرسان » كما أسماها — فلها فى حـــد ذاتها قصة .. اذ أن القصص الاولى لتولســـتوى — فى تلك الحقبة التى بدأ فيها استقراره فى أملاك أسرته — كانت مستمدة من تجاربه وحياته الخاصة ، دون أن تتعلق برسالة معينة .. فلما أقدم على كتابة هذه القصة ، كان قد بدأ يهتم برســـالته فى الادب الروسي ،

فجعل لها نطاقا خاصا خارج نطاق تجاربه الشخصية .

دم وخمر .. بلا حساب !

• **ولقد** تسألنى ــ ومن حقك أن تسأل ــ لماذا اخترت لهذا العدد من « مطبوعات كتابى » ، الذى ضم القصتين ، اسم « دم .. وخمر ! » .. والجواب بسيط .. **فإن القصتين تصوران حقبة من تاريخ روسيا ، لم يكن فى تلك البلاد شيء يراق باسراف ، ودون حساب ، قدر : الدم والخمر ..** دم الرقيق والفلاح .. تلك الطبقة المستعبدة ، التى كان زمامها فى أيدى الاقطاعيين .. وهو « دم » لا يقتصر على ذلك السائل الذى يجرى فى العروق فحسب ، بل يضم أيضا الدمع ، والعرق ، وعصارة الحياة .. ثم ، الخمر التى كان السادة يسرفون فى أراقتها ليزدادوا انسياقا وراء لهوهم وعبثهم ، كما كان العبيد يغرقون أنفسهم فيها ، لكى ينسوا .. ينسوا كل شيء !

* * *

وبعد .. أظننى احتجزتك طويلا عن نبع « تولستوى » النمير . فلأرفع القلم ، لاتركك تغترف من هذا النبع !

المحرر

للعبيد ضمير !

(بوليكوشكا)





(١) سيدة الضيعة

• ـ أنت صاحبة الكلمة ياسيدتى ، فالامر لك ! .. كل ما هنالك انه سيكون من دواعى الرثاء أن يقع الخيار على آل «دوتلوف» .. كلهم صالحون ، ولا بد من ان يذهب احدهم ، ما لم نرسل واحدا من رقيق البيت ، على الاقل !

وسكت وكيل الاعمال لحظـة ، ثم اردف : « وهذا ما يلمح اليه كل امرىء .. ولكن الامر رهن بمشيئتك ياسيدتى ! » .
ووضع يمناه على يسراه فوق صدره ، ومال برأسه على كتفه اليمنى ، وجذب شفتيه الى الداخل ، موشكا ان يحدث صوتا مسموعا (مصمصة) ، وصعد بصره الى أعلى ، ولم يزد على ما قال ، بل بدا أنه اعتزم ان يلزم الصمت طويلا ، وأن ينصت ـ دون رد ـ الى كل لغو كان من المؤكد ان يصدر عن مولاته !

وكان وكيل الاعمال الحليق ، الذى ارتدى سترة طويلة ، صيغت على نمط خاص يليق بوكيل الاعمال ، والذى جاء فى تلك الليلة من ليالى الخريف ، ليعرض امرا على مالكة زمامه .. كان **وكيل الاعمال هنا ، عبدا من رقيق البيت ، بحكم مولده ! .. وكان «عرض الامر» ـ من وجهة نظر السيدة ـ معناه الانصات**

الى حديث عن أمر يجرى فى ضيعتها، واصدار تعليمات المضى فى العمل . اما من وجهة نظر « ايجور ميخايلوفيتش » — وهو رئيس الخدم — فإن « عرض الامر » كان يتطلب الوقوف معتدلا ، وأصابع قدميه مرفوعة الى أعلى ، فى ركن مواجه للأريكة .. مع الانصات الى كل ألوان الثرثرة المبتورة العبارات، والعمل بمختلف الطرق والوسائل على تهيئة ذهن السيدة لكى تقول بسرعة ونفاد صبر : « حسنا ! .. لا بأس ! » . ولكل هذا كان « ايجور ميخايلوفيتش » قد رسم خطته ! .. وكان « الامر » المعروض هو تعيين المجندين . فقد كان على ضيعة (بوكروفسك) ان تقدم فى عيد «بوكروف» ثلاثة افراد ليجندوا فى الجيش . ولاح ان القدر قد اختار بذاته اثنين منهما بحكم ظروف عائلية واخلاقية واقتصادية . ولم يكن ثمة تردد أو نزاع فى أمرهما ، سواء من جانب السيدة ، او الحكومة ، أو الرأى العام . ولكن الذى كان مثار الجدل هو : من يكون الثالث؟

وكان وكيل الاعمال تواقا الى أن ينقذ ابناء دوتلوف — الذين كان فى أسرتهم ثلاثة رجال فى سن التجنيد — والى ايفاد «بوليكوشكا» ، وهو رجل من رقيق البيت ، متزوج ، سيىء السمعة ، فوجىء — اكثر من مرة — وهو يسرق الاكياس وسروج الخيل ، والتبن .. ولكن السيدة — التى كثيرا ما كانت تعطف على اطفال بوليكوشكا فى اسمالهم ، وتعمل على اصلاح اخلاقه بآيات من التوراة — أبت أن تفرط فيه .. غير أنها — فى الوقت ذاته — لم تكن راغبة فى ايذاء آل دوتلوف ، الذين لم تكن قد عرفتهم، ولا رأتهم قط . ولكنها — لسبب ما — لم تبد قادرة على ادراك وجهة نظر وكيل أعمالها ، كما أنه لم يقو على أن ينبئها صراحة بأنه لابد لواحد من ابناء دوتلوف أن يذهب ، اذا لم يذهب «بوليكوشكا» ، فقد راحت تقول له فى تأثر : « ولكنى لا ابغى سوءا بآل دوتلوف !» . وكان خليقا بوكيل الاعمال أن

يقول : « ما دمت لاتبغين، فادفعي ثلاثمائةروبل لبديل! » (١) .. ولكن مثل هــذا الرد كان سيــاسة خرقاء ، ومن ثم ركن « ايجور ميخايلوفيتش » الى وقفــة مريحة حتى لقد أستند ــ دون ان يفطن ــ الى اطار الباب، بينما كان يحتفظ بمظاهر الخضوع على وجهه ، وهو يراقب خلجـات شفتي السيدة ، ويعجب بحواشي قلنسوتها وظلالها الملقاة على الجدار ، تحت احدى الصور !

ولكنه لم ير من الضروري أن ينتبه لمعاني كلمات السيدة ، اذ انها كانت تتكلم طويلا ، وتقول كثيرا .. وتوترت العضلات التي خلف أذنيه ، تحت رغبة واتته في التثاؤب ، ولكنه تحايل فحولها الى سعال أطلقه وهو يرفع يده الى فمه . ومنــذ عهد غير بعيد ، رأيت « لورد بالمرستون » (٢) يجلس وقــد أرخى قبعته على وجهه، بينما كان احد أعضاء المعارضة يصب الحمم على الوزارة. وما لبث اللورد ان نهض فجأة، فرد على المعارض ــ نقطة نقطة ــ في خطاب استغرق ثلاث ساعات . ولم أدهش حين شهدت ذلك، لانني رأيت الشيء ذاته يجرى بين « ايجور ميخايلوفيتش » ومولاته ، آلاف المرات !.. على انه لم يلبث ان القى ثقله على ساقه اليمنى بدلا من اليسرى ــ ولعله خشي أن ينساق للنعــاس ، أو ظن ان الســيدة كانت تتعمد اطالة الموقف ــ وشرع يمهد للحديث بمقدمة مليئة بالرياء، كما اعتاد أن يفعل دائما : « الامر رهن بمشيئتك ياسيدتي .. على ان ثمــة أجتمــاعا أمام نافــذة مكتبي الآن ، ولا بد أن نبت

---

(١) كان من الجائز في روسيا أن يدفع المجند الميسور الحال مبلغا لشخص آخر يؤدي الخدمة العسكرية بدلا منه ، فاذا كان المجند من الرقيق ، وشــاء مالكوه ان يحتفظوا به ، دفعوا عنه

(٢) لورد بالمرستون : كان رئيسا للوزارة الانجليزية من سنة ١٨٥٩ الى ان توفي في سنة ١٨٦٥ ، ومن كبار ساستها في القرن التاسع عشر

بقـرار ، فان الاوامر تقول بأن المجنـدين يجب أن يكونوا فى المدينة قبل عيد «بوكروف» ، وهناك اجماع بين الفلاحين على ترشيح ابناء دوتلوف ، دون سواهم . اما «المير» (١) فليس يشقى بمصالحك، اذ ما الذى يهمه اذا خربنا بيت آل دوتلوف؟ **.. اننى اعرف قسوة الضـائقة التى المت بهم ، فانهم ـ منذ توليت وكالة اعمالك ـ يعيشون فى عوز. واليوم وقد كبر ابن اخ الشيخ ، وأوشك ان يكون عونا ، اذا بالاسرة تمنى بنكبـة ثانية !.. اما انا ، فكما عهدت ، أمين على ثروتك كمـا لو انها كانت ثروتى .. وهم ـ على اية حـال ـ ليسـوا اهلا لى او اقارب ، ولست اجنى منهم شيئا ..! »**

فقطعت عليه السيدة حديثه قائلة: « ما هذا يا ايجور ؟.. كأنما فكرت أنا يوما فى هذا ! » . على انها ارتابت لفـورها فى ان يكون قد تقاضى من آل دوتلوف رشوة . فقد واصل حديثه قائلا : « .. ان دارهم هى خير دار فى (بوكروفسك) من حيث العناية والتدبير . وهم فلاحون مجتهدون ، أتقياء ، وكبيرهم شيخ للكنيسـة منذ ثلاثين عاما .. فهو لايشرب الخمـر ، ولا يسب ، وانما هو يواظب على الذهاب للكنيسـة .. » . وكان وكيل الاعمال يعرف الوتر الذى يحسن أن يضرب عليه ، فقال : « على أن أهم ما أريد ان اعرضـه عليك ، هو انه لم يؤت غير ولدين ، اما الآخرون فأبناء أخوة له ، كفلهم برًا بهم .. ومن ثم فيجب ان يجرى الاقتراع بين الاسرات ذات الرجلين . كم من أسرات تفككت بسبب قلة حكمتها ، فانفصل عنها ابناؤها، وأصبحوا الآن آمنين(٢) . أما آل دوتلوف، فسيتعرضون للعناء ، لمجرد انهم طيبون بارون ! »

---

(١) العمدة او رئيس القوم .. ولعلهـا تحريف « أمير » التى انتقلت الى اللغة الروسية عبر القبائل المتاخمة لتركيا والدول الاسلامية

(٢) كان الاقتراع على المجندين يجرى بين الأسرات العديدة الذكور اولا

ولكن السيدة لم تستطع أن تتبع حديثه عند هذه النقطة ، اذ انهـا لم تفهم ماذا يعنى بالاسرات « ذات الرجلين » ، ولا بـ « البر » . فقنعت بأن تسـمع صـوته ، وترقب الازرار المكسوة بالقماش ، فى سترة وكيل الاعمال . كان أعلاها ثابتا فى مكانه ، ولعله لم يكن يستعمل كثـيرا .. اما الاوسط فكان مدلى ، وكان من الواجب ان يثبت فى مكانه منذ زمن طويل ..

على انه من المعروف ان ليس من الضرورى ـ فى المحادثات التى تدور حول الاعمال ، بوجـه خاص ـ أن تفهم ما يقال ، وانما يكفى ان تتذكر ما تريد أنت ان تقول !.. وقـد عملت السيدة بهذا ، فقالت : « كيف يتعـذر عليك الفهم يا ايجور ميخايلوفيتش ؟ .. ليست بى ادنى رغبـة فى ان يصبح أحد ابناء دوتلوف جنديا . كنت أظن ان امرءا يعرفنى ـ كما تعرفنى أنت ـ قمين بأن يشهد لى بالرغبـة فى أن ابذل ما فى طوقى لمسـاعدة رقيق أسرتى ، فأنا لا ابغى أن يصيبهم أى ضر ، بل انى على استعداد لان أضحى بكل ما أمتلك ، لاتهرب من هذه الضرورة المحزنة ، فلا أرسل دوتلوف أو بوليكوشكا ! » ..

ولست أدرى ، هل خطـر لوكيل الاعمال ان لا حاجـة هناك للتضحية بكل شىء للتهرب من الضرورة المحزنة ، وانما كانت ثلاثمائة روبل كافية .. على أن من المحتمل ان هـذه الفكرة طرأت على باله !

ـ لن أقول لك سوى هذا : لن افرط فى بوليكوشكا ، مهما يكن الامر . فعندما اعترف لى من تلقـاء نفسه ـ بعد حادث الساعة ـ وبكى ، وعاهدنى على الاستقامة ، تحدثت اليه طويلا ، ورأيت انه كان صادقا فى تأثره ، وفى توبته !

وهنا قال ايجور ميخايلوفيتش لنفسه : « ها هى ذى تضل ثانية ! » . وشرع يتأمل الشراب الذى كانت تحتسيه من كوب من أكواب الماء ، ويسائل نفسه : « اهو عصير برتقال أو ليمون ؟

.. اظنه لاذعا قليلا ! » .. بينمـا استطردت السيدة قائلة : «ولقد انقضت سبعة أشهر، لم يحنث فيها مرة ، بل كان رائع السلوك . ان زوجته تقول لى انه أصبح رجلا آخر . فكيف تريدني على ان أعاقبه بعد ان استقام ؟ .. ثم انه من المجافاة للانسانيةان تجند رجلا ذا خمسةاطفال، لا عائل لهم سواه.. لا ، يحسن ان لاتزيد فى اللجـاج يا ايجور ! » . ورشفت من الشراب رشفة ، فراقب « ايجور ميخايلوفيتش» حركةحلقها والسائل ينساب فيه ، ثم أجاب باقتضاب وجفاء : « اذن فقد استقر الرأى على دوتلوف ؟ »

وعقدت السيدة يديها ، وقالت : « كيف لاتفهم ؟.. افأريد بدوتلوف سوءا ؟ اترانى أكن له ضغينـة ؟.. الله شاهد على انني على أستعداد لان افعل كل شيء من اجلهم .. » . ونظرت الى صورة فى ركن الحجرة ، ثم تذكرت انهـا لم تكن ايقونة ، فقالت لنفسها : « لا بأس .. ليس هذا محور الاهتمام ! » . **ومن الغريب ، ان فكرة الروبلات الثلاثمائةلم تخطر لها فى هذه المرة أيضـا !** .. وعادت تقول : « حسنـا ، ما الذى املك ان افعله ؟ وما درايتى بهذا الامر ؟ .. من المستحيل ان اعرف : ومن ثم فأنا أعتمد عليك ، وها قد عرفت رغباتى ، فاعمل على ارضاء الجميع ، وفقا للقانون.. ما الذى ينبغى عمله ؟.. انهم ليسوا الوحيدين ، بل أن كل امرىء يتعرض لاوقات عصيبة. **كل ما هنالك أن ليس من سـبيل الى ارسال بوليكوشكا .. يجب ان تفهم ان من ابغض الامور على نفسى ان افعل شيئـا كهذا ! »**

وكان الحماس قد تملكهـا . ومن المحتمل انهـا كانت على استعداد لان تسترسل فى الحديث طويلا ، لولا ان دخلت احدى خادماتهـا الحجرة ، فتحولت تسألهـا : « ماذا هنـاك يا دنياشا ؟ » فأجابت الخادم : « لقد جاء فلاح ليسأل ايجور

ميخايلوفيتش عما اذا كان للاجتماع ان يستمر فى انتظاره !». ورمقت ايجور ميخايلوفيتش فى حنق ، وهى تقول لنفسها : « يا لوكيل الاعمال هذا ! .. لقد ضايق السيدة ، ومن ثم فلن تسمح لى باغماضة عين قبل الساعة الثانية صباحا ! »

ـ حسنا يا ايجور ، اذهب وافعل خير ما فى وسعك !

واجاب الرجل : «سمعا ياسيدتى! ». ولم يعد الىالحديث عن دوتلوف ، وانما تساءل : «من الذى يذهب الى الموكل بالبستان ، ليأتي بالنقود ؟ » . فقالت السيدة: « الم يعد بيتر بعد من المدينة ؟ » . فأجاب : « لا ياسيدتى » . وسألته : « الا يستطيع نيكولاس ان يذهب ؟ » . فقالت دنياشا : « ان أبى مريض ، يشكو من ظهره ! » . وتساءل وكيل الاعمال : «أأذهب أنا غدا يا سيدتى؟» . ولكنالسيدةقالت : «لا يا ايجور، فانك مطلوب هنا » . وفكرت قليلا، ثم اردفت : « كم المبلغ؟»

ـ اربعمائة واثنان وستون روبل ..

فقالت السيدة ، محملقة فى وجه ايجور ميخايلوفيتش باصرار : « ارسل بوليكوشكا ! » . وبسط الرجل شفتيه فى شبه ابتسامة ، دون ان يكشف عن اسنانه .. ولم تتبدل اسارير وجهه . وقال: « سمعا ياسيدتى! » . فقالت: «ارسله الى هنا ! » . فقال وهو ينصرف الى مكتب المحاسبة : «سمعا ياسيدتى ! »

(٢) بوليكوشكا .. بيطرى بالسليقة !

ه لم يكن لبوليكى ـ أو بوليكوشكا ، كما كان ينادى عادة ، من قبيل الاحتقار ـ أى اعتبار لدى حارس الدار ، ولا رئيس الخدم ، ولا وكيل الاعمال ، ولا وصيفة السيدة . اذ انه كان رجلا قليل القيمة ، ملوث السمعة .. ولم يكن من أهل القرية أصلا . فكان ركنه أسوأ الاركان ، رغم انه اوتى سبعة



افراد فى أسرته . وكان المالك السابق قد أمر ببناء هذه الاركان، على النحو التالى : ففى وسط مبنى من الطوب ـ مساحته حوالى ثلاث وعشرين قدما مربعا ـ أقيم فرن كبير من الطوب، أحيط بردهة . وكانت اركان المبنى الاربعة تنفصل عن هذه ((الردهة)) ـ كما كان رقيق البيت ينطقونها ـ بحواجز خشبية، ومن ثم فلم يكن فى الاركان فراغ فسيح، لا سيما ركن بوليكى، الذى كان أقربها الى الباب .. وكان سرير الزوجية ـ بلحاف من قماش منقوش ، ووسادتين ـ ومهد يشغله طفل رضيع ، ومنضدة ـ يجرى عليها الطهو والغسل ، وتوضع عليها كافة انواع الاشياء المنزلية ، كما كان بوليكى ، الذى كان طبيبا للخيل ، يشتغل عليها ـ واوعية ، وثياب ، وبعض فراريج ، وعجل ، وسبعة افراد يؤلفون الاسرة .. كل هؤلاء كانوا يملأون فراغ الركن ، وما كان بوسعهم أن يتحركوا فيه ، لولا ربع الفرن الذى كان تابعا لهم ـ والذى كان بوسع الناس ان ينأموا عليه ، وان يضعوا عليه الاشياء ـ ولولا انه كان لهم ان يخرجوا الى درجات السلم .. وهو امر لم يكن ممكنا ، اذا ما اشتد البرد ـ فى شهر اكتوبر ـ ولم يكن الافراد السبعة يمتلكون سوى معطف واحد من فراء الغنم ، يتشاطرونه فيما بينهم . على انه كان بوسع الاطفال ـ من ناحية اخرى ـ ان يدفأوا بالجرى، كما كان فى استطاعة الكبار ان يدفأوا بالشغل .

وكان لهؤلاء واولئك ان يصعدوا فوق الفرن ، حيث كانت الحرارة ترتفع الى مائة وعشرين درجة فهرنهيتية . **وقد يبدو ان الاقامة فى مثل هذه الظروف بغيضة ، ولكنهم لم يكونوا يحفلون بذلك .. كان يكفيهم ان يستطيعوا ان يعيشوا !**

كانت «اكولينا» ــ زوجة بوليكوشكا ــ تغسل ثياب زوجها وأولادها وتحوكها ، وتغزل ، وتنسج ، وتبيض النسيج ، وتطهو ، وتخبز فى الفرن المشترك ، وتتشاجر وتثرثر مع جاراتها . وكانت المخصصات الغذائية الشهرية لاتكفى الاولاد وحدهم ، بل تغذى البقرة كذلك . وكان خشب الوقود دون مقابل ، وكذلك العلف للماشية ، كما كان يصيبهم بعض التبن من الحظائر ، أحيانا . وكانت لهم رقعة صغيرة من الارض ، يستنبتون فيها الخضر .. وقد انجبت بقرتهم عجلا ، كما كان لديهم بعض الدواجن . وكان «بوليكى» مستخدما فى الحظائر للعناية بجوادين فيها ، كما كان يقوم بحجامة الخيل والماشية ، وينظف حوافرها ، ويشرط قروحها ، ويعالجها ببلاسم من ابتكاره . وكان يتقاضى أجره عن ذلك نقدا وعينا . كذلك كان بعض شوفان صاحبة الضيعة يتسرب الى حوزته ، وكان أحد فلاحى القرية يقدم له عشرين رطلا من لحم الضأن ــ شهريا ــ فى مقابل كيلين من الشوفان . وكان من الممكن أن تكون الحياة محتملة ، لو لم يكن ثمة اضطراب ومتاعب .. فقد كانت الاسرة فى عناء كبير !

كان ((بوليكى)) قد عاش ــ فى صباه ــ فى مزرعة لتربية الخيل ، فى قرية اخرى . وكان السائس الذى قدر لبوليكى ان يقع بين يديه هو اكبر لص فى المنطقة ، وقد انتهى أمره الى أن نفى الى (سيبيريا) . وقد قضى (بوليكى) فترة المران والتدرب ، تحت اشراف هذا الرجل ، ومن ثم اعتاد من صغره تلك ((السفاسف)) التى لم يستطع فى كبره أن يتخلص منها ، رغم انه كان من اليسير عليه ان ينصرف عنها !.. كان فتى صغيرا ،

ضعيفا ، لا أب له ولا اما ولا أى ناصح أمين يعلمه . ومن هنا جنح الى الشراب ، ولم يعد يحب ان يرى شيئـــا حوله مهملا دون ان يستحوذ عليه.. فما من شيء، سواء كان عنان جواد، أو قطعة من عدة الركوب ، او قفلا ، أو مزلاجا ، أو شيئا أهم من ذلك وأعظم قيمة ، الا ووجد له « بوليكى » نفعا لديه !.. فقد كان ثمـــة أناس ـ فى كل مكان ـ يودون أن يحصلوا على هـــذا الشيء ، وان يدفعوا ثمنـــه شرابا أو نقـــودا .. حسب الاتفاق! ومثل هذه المكاسب من أيسر الامور ، كما يقول الناس، فهي لاتحتاج الى تعلم أو مران ، ولا الى جهد، ولا الى أى شيء .. والذى جرب هذا مرة ، لايحفل بمصدر للكسب سواه .

ولم يكن ثمـــة سوى عيب واحـــد .. فمع انك تحصل على الاشياء بسهولة ، ودون ما كثير عناء أو نفقة ، فتنعم بعيش رغد ، الا ان الامور قد تنقلب فجأة، نتيجة شر من شخص ما، فاذا الاخفاق يصيب حرفتك ، والكساد يلحق بتجارتك، واذا بك تسأل ـ فورا ـ ان تقدم حســـابا عن كل شيء .. حتى لتلعن اليوم الذى ولدت فيه !

وهذا ماجرى لبوليكى ! .. كان قد تزوج ، وأنعم الله عليه بحظ طيب. اذ ظهر ان زوجته ـ ابنة الراعى ـ كانت موفورة الصحة ، ذكية ، ذات جلد على العمل ، وقـــد انجبت له طفلا بعد آخر ، اطفالا ملاحا لطافا.. ومع ان بوليكى ظل دائبا على حرفته ، دون ان يصـــادفه اى سوء . **الا ان الحظ تخلى عنه يوما ، فاذا بأمره يفتضح .. وكانت الفضيحة كلها حول شيء تافه ، اذ كان قد خبأ بعض اعنة الخيل الجلدية ، التى كانت ملكا لاحـــد الفلاحين ، ثم تسنى العثـــور عليهـــا .. فضرب ((بوليكى)) من اجلها، ورفع الامر الى مولاته ـ سيدة الضيعةـ وفرضت عليـــه رقابة .. وضبط مرة ثانيـــة ، ومرة ثالثة ، متلبسا** . وبدأ القوم يسبونه ويعيرونه . وانذره وكيل اعمالها بأن يزج به بين المجندين . ووبختـــه سيدة الضيعة ، وبكتت

زوجته واصبحت كسيرة الفؤاد. وهكذا ساءت الامور جميعا!
وكان رجلا ذا فطرة طيبة ،فهو لم يكن سيئا بطبيعته ،وانما كان ضعيفا .. كان مغرما بالخمر ، وقد اعتاد الاقبال عليها ؛ حتى لم يعد يقوى على هجرها .. وكانت زوجته تؤنبه — بل وتضربه — أحيانا ، اذا عاد اليها ثملا ، فكان يبكي ويقـول : « ماذا أصنع وأنا رجل منكود ؟ .. فلأفقد عيني اذا أنا لم أكف عن الخمر .. لن أعود اليها البتة ! » .. وينقضى شهر ، ثم يغادر البيت يوما ، فيسكر ، ولا يرى لمدة يومين . واذ ذاك يقول جيرانه : « لا بد له من أن يحصل على المال ، لكي يشرب به ! » .. وكان يعمد الى الطريقة الميسورة ، ثم لا يلبث أن يفتضح أمره !
وكان آخر مآزقه ناشئا عن ساعة مكتب الضيعة .. كانت من ساعات الحائط ، قديمة ، تعطلت عن العمل منذ أمد طويل . وتصادف أن وجد الباب مفتوحا — من تلقاء ذاته — فدخل .. وأغوته الساعة ! .. فأخذها ، وتخلص منها في المدينة . وشاء سوء الطالع أن كان صاحب الحانوت الذى اشـتراها منـه ، قريبا لاحدى جوارى المنزل ، فجاء يزورها فى يوم عطلة ، وحدثها عن الساعة .. وشرع القوم — لا سيما وكيل الاعمال ، الذى كان يكره بوليكى — يتحرون ويتقصون ، وكأن الامر يعنى كلا منهم ! .. وانكشف الامر ، ورفع الى السيدة ، فأرسلت تسـتدعى « بوليكى » ، فاذا به يرتمى على قدميها لتوه ، ويعترف بكل شيء — فى لهجة مؤثرة — كما أوصته زوجته أن يفعل ! .. واحسن تنفيذ تعليمات زوجته بحذافيرها ، فأخذت السيدة تقرعه ، ثم أخذت تعظه .. ومضت تتكلم ، وتتكلم ، مذكرة اياه بالله ، وبالاستقامة ، وبالحياة الآخرة ، وبالزوجة والاولاد ، حتى اثرت فى نفسه ، وأدمعت عينيه .. ثم قالت : « انني أصفح عنك ، على أن تعدنى بأن لا تعود اليها ثانية ! »

فقال بوليكى ، وهو ينشـج ببكاء مؤثر : « أبدا لن أعود ما حييت .. أو فلأهلك ، ولتنفجر امعائى ! »

وعاد بوليكى الى داره ، فقضى يومه مستلقيا على الفرن ، وهو يجهش ببكاء اشبه بخوار العجل .. ومنذ ذلك اليوم لم يؤخذ عليه أى مأخذ . بيد أن حياته لم تعد ممتعة ، فقد ظل القوم ينظرون اليه كلص ، حتى اذا اقترب موعد التجنيد ، اخذ كل امرئ يومىء اليه !

* * *

ولقد كان بوليكى طبيبا للجيـاد ، كما قدمنا .. أما كيف أصبح كذلك فجأة ، فهذا ما لم يدره أحد ، ولم يدره هو بوجه خاص ! .. اذ كان واجبه الاوحد فى مزرعة الخيل ـ حيث كان يعمل تحت امرة رئيس حراس انتهى أمره الى النفى ـ أن ينظف الحظائر من الروث ، وأن ينظف الجياد احيانا ، وأن يحمل الماء .. فليس من المحتمل أن يكون قد تعلم المهنة هناك ! .. ثم بات نساجا ، وعمل ـ بعد ذلك ـ فى بستان كان يجتث الاعشاب من دروبه ، ثم قضى عليه بتكسير الطوب عقابا على ذنب أتاه ، ثم أصبح حمالا لدى تاجر كان يدفع لخليلته مبلغا سنويا لتدعه فى هذا العمل .. ومن ثم فمن الواضح انه لم يكن ممكنا ان يحظى باية خبرة باعمال البيطرى هناك ايضا ! .. ومع ذلك فان شهرته كبيطرى رائع المهارة ـ بل خارقها ـ بدات تذيع تدريجا ، وبطريقة ما ، خلال اقامته ـ آخر مرة ـ فى قريته . اذ حجم جوادا مرة أو اثنتين ، ثم أرقده أرضا ، وراح ينخسه فى خاصرته ، ثم أمر باحكام وثاقه ، وراح يجرح خصيتيه ـ والجواد يناضل عبثا ـ قائلا ان هذا يؤدى الى « استنزاف الدم المرتد من الحوافر » ! .. ثم أوضح لفلاح أن من الضرورة ـ التى لا غنى عنها ـ فصد الدم من وريدى جواده «زيادة فى اراحته» ، وشرع يدق المبضع المثلوم السن،

بمطرقة من الخشب .. وضمد ـ بعد ذلك ـ جرحا فى أسفل بطن جواد صاحب فندق القرية بشريحة اقتطعها من شـال زوجته .. وأخيرا ، راح يمارس علاج كافة انواع القرح بنثر مسحوق الشب عليها ، ثم ترطيبها بمادة من زجاجة لديه .. وكان ـ أحيانا ـ يوصى باعطاء الجواد جرعات من أى شىء يخطر بباله .. وكلما ازداد عدد الجياد التى يعـذبها ، ويفضى بها الى الموت ، ازداد القوم ايمانا ببراعته واقبالا بجيادهم عليه !

واشعر بأنه ليس لنا ـ معشر المتعلمين ـ مايسوغ الضحك من « بوليكى » ، فان الاساليب التى اتبعها لبث الثقة ، هى عين تلك التى كانت تؤثر على آبائنا ،والتى لاتزال تؤثر علينا ، والتى ستظل تؤثر على ابنائنا ! .. فان الفـلاح الذى ينكب على راس جواده الاوحد ـ الذى لا يمثل كل ثروته فحسب ، وانما هو فـرد من أسرته ، فى الغالب ـ وهو يحملق فى يقين وخوف الى وجه « بوليكى » العابس ، وأساريره الدالة على خطورة شأنه ، وكميه المحسورين عن ذراعيه النحيلتين ، وقد راح يضغط موقع الداء من الجواد تماما ـ وبين فكيه خرقة مبللة بدواء ، أو زجاجة مليئة بمسحوق الشب ، ثم يقدم فى جرأة على شـــق اللحم الحى ـ وهو يقول لنفسه فى السر : « لسوف يتغلب الحيوان المعوج السيقان على جراحه ويبرأ منها ! » ـ فى حين يتظاهر بأنه يعرف أين الدم وأين القيح ، وأيها رباط العضل وأيها العرق ! .. هذا الفلاح الذى يرقب كل هذا ، لا يمكن أن يرتاب فى أن « بوليكى » ما كان ليرفع يده كى يشق اللحم ، لو أنه لم يكن على دراية بما يفعل ، لا سيما وانه ـ أى الفلاح ـ لا يستطيع أن يقدم على شىء كهذا بنفسه ! .. فاذا حم القضاء ، وانتهى الامر ، فانه لا ينحو باللائمة على نفسه اذ أذن للبيطرى بشق لحم جواده دون ما داع لذلك !

ولست أدرى رأيك فى هذا ، بيد أننى جربت الامر ذاته مع طبيب راح ـ برجاء منى ـ يعذب أولئك الذين أعزهم ! ..

أليس المبضع ، وزجاجة الدواء المتسامى (١) ، و « يترنح .. السقاوة .. تفصيد الدم .. المادة » وما اليها .. أليس لكل هذه الكلمات من الاثر ما لكلمات : « العصاب .. والروماتيزم .. والكائنات الحية » ، وما اليهـا ؟ .. ان الحكمة القائلة : « يقدمون على الخطأ وهم يحلمون » ، لاتنطبق على الشعراء قدر ما تنطبق على الاطباء والجراحين البيطريين !

(٣) فى « ركن » بوليكى !



• **وعندما** اجتمع أهل القـرية فى العتمة الباردة ـ التى شابت ذلك المساء من أمسـيات أكتوبر ـ لاختيار المجندين واعلان أصواتهم ، أمام مكتب ادارة الضيعة ، كان « بوليكى » يجلس على حافة فراشه، منهمكا فى صحن دواء للخيل وضعه على المنضدة وراح يمر عليه بزجاجة .. أما كنه هذا الدواء ، فلم يكن « بوليكى » نفسه يعرفه ! .. كان يتألف من المادة الاكالة المتسامية ، والكبريت الخام ، واملاح جلوبر ، وبعض أنواع العشب التى كان قد جمعها اذ خيل اليه فجأة انها ذات

---

(١) المادة الكيمياوية المتسامية هى التى تتحول اذا عرضت للهواء الى بخار يتصاعد .. وغالبا ما يكون نفاذ العبير

نفع للخيل المصابة بالرياح المحتبسة (١) ، ثم قدر انها لن تكون غير لازمة للاضطرابات الاخرى !

وكان أطفاله قد ناموا : اثنان على الفرن، واثنان على السرير، وواحد فى المهد الذى جلست « اكولينا » الى جواره تغزل .. وكانت بقية الشمعة ـ احدى شموع مالكة الضيعة ، لم تلق من الصون ما يبعدها عن يد بوليكى ـ تحترق فى شمعدان خشبى على حافة النافذة ، و « اكولينا » تنهض اليها ـ من آن الى آخر ـ فتسوى ذبالتها بأصابعها ، حتى لا يضطر زوجها الى أن يتعطل عن عمله الهام . **وكان بعض المتحررين فى الرأى يعتبرون « بوليكى » بيطريا غير ذى قيمة ، وانسانا غير ذى شأن . ولكن سواهم ـ وهم الاغلبية ـ كانوا يعتبرونه انسانا غير ذى شأن ، غير أنه استاذ عظيم فى فنه .. أما « أكولينا » فكانت تراه طبيب الخيل الاول ، وخير الرجال بلا مراء ، برغم انها كثيرا ما كانت تؤنبه ، بل وتضربه !**

ونثر « بوليكى » بعضا من مادة خام على كفه ، اذ انه لم يكن يستخدم الموازين قط ، وقد اعتاد أن يسخر من الالمان الذين يستخدمونها قائلا : « ليس هذا من صنعة العقاقير فى شىء ! » .. ووزن « بوليكى » المادة على راحة يده ، فلاح له أن الكمية غير كافية ، فأفرغ عشرة أمثالها من جديد ، وقال محدثا نفسه : « سأضع هذا القدر كله ، ليكون افضل تأثيرا ! » .. واسرعت «اكولينا» تلتفت عند سماعها صوت زوجها ـ مولاها وسيدها ـ مترقبة منه أمرا . **حتى اذا رأت أن حديثه لم يكن يعنيها ، هزت كتفيها ، وجال بخاطرها : « يا للمعرفة ! .. ترى من أين يستقيها ؟ ! » . ثم واصلت الغزل** . وكان بوليكى قد وضع المادة على ورقة ، فاذا الورقة تهوى الى الارض .. ولم يفت ذلك « أكولينا » ، فصاحت : « آنى ، انتبهى ! ..

---

(١) انتفاخ البطن لاحتباس الغازات الناشئة عن سوء الهضم .

لقد أسقط ابوك شيئا ، فالتقطيه ! »

وابرزت «آنى» ساقيها العاريتين ، الصغيرتين، الناحلتين، من تحت المعطف الذى كانت تتغطى به ، وانسابت تحت المنضدة كالهريرة الصغيرة ، والتقطت الورقة ، قائلة : « هاك يا ابت ! » . ثم اندفعت عائدة الى السرير ، وقد أثلج البرد قدميها الصغيرتين . وصاحت أختها الصغيرة بصوت رفيع وسنان ، ونطق الثغ : « لا تدفعينى ! » . فتمتمت أكولينا : «لسوف أضربكما ! » . . وعاد الرأسان يختفيان تحت المعطف!

وقال بوليكى بعد ان وضع المادة فى الزجاجة ، وأحكم سدادها : « لسوف يمنحنى ثلاثة روبلات . ولسوف ابرىء جواده . ما أرخص الثمن ! . . انه جهد يفلق الدماغ ! . . اذهبى يا أكولينا فاطلبى من «نيكيتا» قدرا من التبغ ، وسأدفع له الثمن غدا ! » . . وأخرج من جيب بسرواله انبوبة غليون من خشب الليمون ـ كانت مطلية يوما ـ وقد انتهت بفوهة (مبسم) من الشمع الاحمر ، وشرع يثبتها فى قصعة الغليون (المكان الذى يوضع فيه التبغ)

وتركت «أكولينا» مغزلها وخرجت، وهى تحرص على ان تتفادى كل ما كان فى طريقها . . وان لم تكن هذه بالمهمة الميسورة . وفتح «بوليكى» الصوان ، فوضع فيه الدواء ، ورفع الى فمه زجاجة « فودكا» فاذا بها خالية ، واذ ذاك قطب محياه . . حتى اذا عادت زوجته وقد احضرت التبغ، جلس على حافة السرير، وحشا غليونه وأشعله، ثم اشرقت أساريره رضى واعتزازا ، شأن الرجل الذى أتم عمل يومه . . وسواء راح يفكر فى غده ـ وكيف سيمسك بلسان الجواد ويصب دواءه ، هذا المزيج القوى ، فى حلقه ـ أو راح يتأمل كيف ان أحدا لايرفض للشخص النافع طلبا ـ « ألم تر

بنفسك؟ .. الم يرسل له نيكيتا التبغ ؟! » ــ فان «بوليكى» شعر بهناءة .

* * *

وفجأة ، دفع الباب ــ الذى كان معلقا على محور (مفصلة) واحدة ــ ودخلت « الركن » خادم من .. «فوق» ! ولم تكن الوصيفة الثانية ، ولا الثـالثة ، وانما الخادم الصـغيرة التى كانت مكلفـة بنقل الرسـائل . و «فوق» ــ كما يعرف كل امـرىء ــ يعنى منزل سـيدة الضيع ، ولو كان مقاما على منخفض من الارض !

ولقد اعتادت «أكسيوتكا» ــ وهو اسم الفتاة ــ ان تدخل فى اندفاع ، مارقة كأنها رصاصـة ، دون ان تثنى ذراعيهـا اللتين كانتا تتحركان فى اتساق مع سرعتها، وتهتزان كبندول الساعة ، لا الى جانبيها ، وانما امامها ! .. وكانت وجنتاها أشد احمرارا من ثوبها الوردى دائما، كما كان لسانها يتحرك بسرعة ساقيها . وقد اندفعت الى الحجرة، وامسكت بحافة الفرن، لسبب ما ، غير معروف !.. وشرعت تترنح الى امام والى خلف ، ثم اخـذت تخاطب «أكولينا» ــ وهى مقطعـة الانفاس ــ دون أن تطلق أكثر من كلمتين أو ثلاثا فى كل مرة ، على النحو التالى :

« أن السيدة.. اصدرت أوامرها.. بأن يصعد اليها .. بوليكى توا .. اوامرها أن يصعد ! »

ثم امسكت ، والتقطت أنفاسها بعناء ، وعادت تقول :

« لقـد كان ايجور ميخايلوفيتش مع السـيدة .. وقد تحدثا عن المجندين .. وذكرا بوليكى.. وقد امرت افدوشيا نيكولايفنا .. بأن يصـعد فى آلتو واللحظـة .. هكذا أمرت افدوشيا نيكولايفنا ... » ، وتنهدت مرة أخرى ، ثم اتمت عبارتها : **« بأن يصعد فى هذه اللحظة ..! »**

واخذت «اكسيوتكا» تجيل بصرها ـ لنصف دقيقة ـ بين بوليكى، واكولينا، والاطفال الذين كانوا قد أخرجوا رؤوسهم من تحت الاغطية .. ثم التقطت قشرة ثمرة من ثمار البندق ـ كانت على الفرن ـ ورمت بها «آنى» الصغيرة . وما لبثت ان رددت : « **ان يصعد فى هذه اللحظة ! ..** » . ثم اندفعت الى خارج الحجرة كالاعصار، والبندولان ـ المثلان فى ذراعيها ـ يتأرجحان كالعادة ، بعرض الاتجاه الذى كانت تندفع فيه !

ونهضت « اكولينا » عن مغزلها مرة اخرى ، فأحضرت لزوجها حذاءيه .. وكانا حذاءين رثين من احذية الجنود تخللتهما الثقوب .. ثم اخذت سترة زوجها من فوق الفرن، فناولته اياها دون أن تنظر اليه، وقالت : « الا تبدل قميصك يا بوليكى ؟ » . فأجابها : « لا » . ولم تكن « اكولينا » قد نظرت الى وجهه مرة، وهو يرتدى حذاءيه وسترته. وحسنا كانت تفعل بعدم النظر .. ولقد كان وجه بوليكى ـ فى هذه المرة ـ شاحبا ، وكان فكه الاسفل يختلج ، وتبدت فى عينيه نظرة دامعة ، وادعة ، عميقة الاسى .. نظرة لايراها المرء الا فى أعين المساكين ، والضعفاء ، والمذنبين !

ورجل «بوليكى» شعره ، ثم هم بالخروج ، ولكن زوجته استوقفته ، فدست فى صدره رباط شريطه الذى كان مدلى تحت سترته ، ووضعت له قلنسوته على رأسه .. ومن خلف الحاجز الخشبى، انبعث صوت زوجة النجار : « ماهذا يابوليكى ؟ .. هل ارسلت السيدة فى طلبك ؟ » .. كانت زوجة النجار قد رفعت صوتها فى ذلك الصباح بالذات ، متشاجرة مع «اكولينا» من اجل وعاء الغسيل المصنوع من رماد الفرن ، الذى قلبه أولاد «بوليكى» فى ركن النجار . ومن ثم فقد سرت ـ فى بداية الامر ـ اذ سمعت بأن «بوليكى» قد استدعى امام السيدة .. فغالبا ما يكون الاستدعاء لغير خير!

وكانت امرأة ماكرة ، ديبلوماسية ، ذات لسان لاذع ، فما

كان احد ليعرف ـ خيرا منها ـ كيف يشطر امرءا بكلمة .. او هكذا كانت تتصور ، على الاقل ! .. وقــد عادت تقول : « أتوقع أن توفــدك السيدة الى المدينة لشراء أشياء ، فمــا اعتقد مهمة كهــذه تتطلب سوى من هو اهل للثقــة ، ولهذا فان السيدة تستدعيك ! .. فلعلك تبتاع لى ربع رطل من الشاى ـ من هناك ـ يابوليكى ! »

وكبحت «أكولينا» دموعها ، وقد راحت شفتاها تختلجان معبرتين عن غضب . وأحست بانها تتمنى لو استطاعت ان تمسك « هذه السليطة ، زوجة النجــار ، من شعرها الرث الاكــرت ! » . ولـكنها نسيت زوجــة النجــار ذات اللسان السليط ، اذ نظرت الى اطفالها وفكرت فى أنهم قد يصبحون بلا اب ـ اذا جند ابوهم ـ كمــا تصبح هى زوجة جندى ، لاتــكاد تــكون أحسن حالا من الارملة فى شىء ! .. واخفت وجهها فى راحتيها ، وجلست على السرير ، واسلمت رأسها الى الوسائد . فقالت ابنتهــا اللثغاء ، وهى تجذب المعطف ـ الذى كانت تتغطى به ـ من تحت مرفق امها : « اماه ، انك تهشمينننى ! »

فصاحت اكولينا : « ليتكم تموتون .. جميعا ! لقد أنجبتكم الى الدنيا لغير ما شىء سوى الحــزن ! » . وأجهشت ببــكاء مرتفع ، مما سر زوجة النجار التى لم تكن قــد نسيت بعد انقلاب وعاء الغسيل فى ركنها ، فى الصباح !

(٤) بوليكى .. مبعوث السيدة الى المدينة !

• وانقضى نصف ساعة .. وشرع الرضيع يبكى ، فنهضت «أكولينا» والقمته ثديها . وكانت قد كفت عن البكاء ، ولكنها اسلمت وجهها ـ الذى ظل محتفظا بوســامته رغم نحوله ـ الى يدها ، وثبتت بصرها على الومضــات الاخيرة للشمعــة



المحتضرة ، وجلست تفكر فيما دفعها الى الزواج ، وتعجب مما يدعو الى طلب جنود بهذه الكثرة، وتتدبر كيف تستطيع ان تثأر من زوجة النجار !

وسمعت وقع قدمى زوجها ، فجففت دموعها ، ونهضت لتفسح له مكانا يمر خلاله . **ودخل بوليكى كما لو كان غازيا مظفرا ، فاطوح بقلنســوته على السرير ، ونفخ ، وفك ازرار سترته**

ـ ترى ما الذى كانت تبغيه منك ؟

ـ أمم !.. طبعا ! ان بوليكوشكا هو آخر من يخطر بالبال من الرجال .. ولكن ، عندما تكون ثمة مهمة تحتاج للاداء ، فمن الذى يرتجى لها ؟ .. بوليكوشكا ، بلا شك ...

ـ واية مهمة هى ؟

ولم يجد بوليكى داعيا للتعجيل بالرد ، فأشعل غليونه ، وبصق ، قبل ان يقول : « **ان اذهب فاحضر نقودا من احد التجار** »

وهتفت أكولينا متسائلة : « تحضر نقودا ؟ ! »

فضحك بوليكى ـ بصوت خافت ـ وراح يهز راسه ، قائلا :

ـ آه ! .. أو ليست السيدة بارعة فى اختيار الكلمات ؟.. قالت : « لقد كنت معتبرا غير اهل للثقة ، ولكنى اءتمنك اكثر مما اءتمن اى رجل آخر » !

وكان بوليكى يتكلم بصوت مرتفع حتى يسمعه الجيران .

واستطرد قائلا :

ــ قالت : « لقد وعدتنى بأن تستقيم ، فهاك الدليل الاول على اننى أصدقك .. اذهب الى التاجر ، فخذ منـه النقود التى هو مدين بهـا ، واحضرها الى ! » . فقلت لها : « اننـا جميعا عبيدك يامولاتي ، ومن واجبنا ان نخدمك كمـا نخدم الله . ولهذا اشعر بأن بوسعى ان أفعـل أى شيء لفخامتك ، ولست املك ان ارفض اداء اى عمل .. مهمـا تكن أوامرك أصدع بها ، لاننى عبدك ! »

وعاد يبتسم من جديد، تلك الابتسامة المنطوية على ضعف واستخذاء، وتلطف، وشعور بالذنب. ثم استأنف الحديث قائلا:

ــ فقـالت : **« أحسنت .. اذن فسـوف تؤدى المهمـة باخلاص ؟ »** .. ثم اردفت : **« انك لتعلم ان مصيرك يتوقف عليها ! »** فرحت اقول لهـا : « كيف اعجـز عن ان ادرك ان بوسعى ان أنفذ أوامرك بحذافيرها ؟ .. اذا كانوا قد تقولوا على ، فان كل امرىء يستطيع ان ينسج الاقاويل عن سواه .. ولكنى لم ارع يوما آية فكرة توحى بأن فخامتك تصدقين هذه الاقاويل .. أو هكذا اعتقد، على الاقل .. » . وقصارى القول اننى رحت أدق فى رفق ، حتى لانت مولاتى تماما .. فقالت : **« لسوف أحسن الظن بك ! »**

ولاذ بالصمت دقيقـة ، ثم عادت الابتسامة ترتسم على محياه من جديد ، واستأنف الحديث :

ــ اننى اعرف جيد المعرفة كيف اتحدث الى امثالها ! .. وعنـدما كنت انطلق لاعمـل لحسابى ــ فيما مضى ــ كان يحدث ان يقسـو شخص من طبقتهـا على ، ولكنى لا أكاد اجتذبه بكلمة او اثنتين ، حتى اروح «أصقله» الى ان يصبح فى نعومة الحرير !

ــ وهل المبلغ كبير ؟

فأجاب بوليكى فى غير اكتراث: « الف وخمسمائة روبل» .

وهزت زوجته راسها ، ثم عادت تسأله : « ومتى أمرت بأن ترحل ؟ »

ـ لقد قالت : « غدا .. خذ أى جواد يروق لك، واذهب الى ادارة ضيعتى ، ثم انطلق فى رحلتك .. والله معك ! »

فقالت اكولينـــا ، وهى تنهض فترسم علامة الصليب على وجهها وصدرها : « المجد للرب ! » .. ثم اردفت فى همس، حتى لايسمع صوتها خلال الحاجز الخشبى : « وليساعدك الله يابوليكى » .. **وامســكت بكم قميصـــه ، وقالت ، وهى سادرة فى همسها : « اصغ الى يابوليكى ! .. استحلفك باسم المسيح ربنا ان تقبل الصليب حين تشرع فى رحلتك، وعاهده على أن لاتمس قطرة من الخمر شفتيك ! »**

فقال ساخرا : « أمر محتمل ! .. أن أشرب وأنا أحمــل كل هذه النقود ! .. آه ! ما أبدع العزف الذى كان يوقعــه شخص ما على البيانو ، هناك ! بديع !..» . وصمت لحظة، ثم ابتسم وقال : « أحسبها السيدة الصغيرة .. كنت أقف هكذا امام السيدة الكبيرة، بجانب ذلك الذى لا أدريه، وكانت السيدة الصغيرة تعزف خلف البــاب . وظلت تدور وتدق ، حتى نسقت بين الاوتار فانسابت فى تناسق بديع !.. آه ، ياعجبى ! .. لــكم اتمنى ان أعزف لحنا !.. انني سرعان ما احذق العزف ، وانى بهذا لقمين ! لكم انا بارع فى اجادة مثل هذا الامر ! .. اعطنى قميصا نظيفا فى الغد ! »

وأويا الى فراشهما سعيدين .

(٥) فى اجتماع الفلاحين

• وكان الاجتماع صاخبا ، خارج ادارة الضيعة ، فى تلك الاثناء . فان المهمة التى كانوا يعالجونها لم تكن هينة . وكان



كل الفلاحين ــ تقريبا ــ حضورا . وبينما كان وكيل الاعمال مع السيدة ، ظلوا مرتدين قلنســـواتهم ، وازدادت أصواتهم عددا وارتفــاعا . وكانت تتخلل اللغط العميق ــ فى اويقات نادرة ــ أصـــوات متهدجة ، وأصوات متحشرجة ، وأصوات رفيعة ، تمــلأ الجو ، وتبدو ــ اذ تنساب خــلال نوافذ دار السيدة ــ كهدير البحر ينساب من بعيد ، فيثير فى السيدة انفعالا عصبيا كذلك الذى تحدثه عاصفة مرعدة ثقيلة الوطأة .. انفعالا هو خليط من الخوف وعدم الارتياح . **فقد كانت السيدة تشعر كما لو ان الاصوات كانت توشك ان تزداد ــ فى أية لحظة ــ ارتفاعا فوق ارتفاعها ، وسرعة فوق سرعتها ، ثم يحدث أمر ما !..** وراحت تقول فى نفسهـــا : « كأنما من العســـير ان يجرى كل شىء فى هدوء وســـلام ، بدون نزاع وصياح ، وفقا لشريعة الحب الاخوى والتواضع المسيحى ! »

كانت ثمة اصوات عديدة تتكلم فى آن واحد ، ولكن صوت « ثيودور ريسون » النجار كان أكثرها ارتفاعا . فقد كان فى اسرته شابان مكتملا النمو ، ومن ثم فقد اخذ يحمل على آل «دوتلوف» . وانبرى الشيخ دوتلوف يدافع عن نفسه ، فبرز من بين الحشد الذى كان يقف خلفه ــ فى بادىء الامر ــ وراح يتكلم مرسلا نثارا من لعابه ومخــاطه ، وهو يبسط ذراعيه آنا ، ويمسك بلحيته الصغيرة آنا آخر ، ويطلق الكلمات بطريقة

كان من العسير عليه ــ هو نفسه ــ أن يفهم معها ما كان يقول. وكان ابناه وابن أخيه ــ وهم جميعا من الشباب البديع ــ يقفون خلفه منكمشين، بينما كان الشيخ أشبه بالدجاجة التي تذود الصقر عن أفراخها .. **وكان الصقر هو «ريسون» .. بل ان «ريسون» لم يكن يهاجم وحده «دوتلوف»، بل راح يهاجمه معه جميع الرجال الذين اوتى كل منهم فى اسرته شابين مكتملى النمو .. والآباء الذين أوتى كل منهم ابنا واحدا، وكل المجتمعين تقريبا!**

وكانت نقطة الخلاف ان شقيق « دوتلوف » كان قد جند منذ ثلاثين سنة ، ومن ثم فقد رغب «دوتلوف» فى ان تعفى اسرته من دورها ــ فى التجنيد ــ بين الاسرات التى اوتيت كل منها بين افرادها ثلاثة شبان صالحين للجندية .. واراد ان تحسب خدمة أخيه فى الجيش لصالح أسرته ، فتمنح بذلك عين الفرصة التى تمنحها الاسرات التى لايوجد بين أفرادها غير شابين ، ويجرى الاقتراع بين هذه الإسرات جميعا ــ على قدم المساواة ــ ليختار المجند الثالث من بين شبابها . وكانت ثمة اربع أسرات اخرى ــ الى جانب اسرة دوتلوف ــ تضم كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان . ولكن احداها كانت اسرة شيخ القرية ، وقد أعفتها سيدة الضيعة . اما الاسرة الثانية ، فكان احد ابنائها قد جند فى العام السابق .. ومن كل من الاسرتين الباقيتين اختير مجند، فى هذه المرة .. بل ان أحد هذين المجندين لم يحضر الاجتماع ، ولكن زوجته وقفت محزونة خلف الآخرين جميعا ، يساورها أمل مبهم فى ان عجلة الحظ قد تتجه نحوها، بطريقة ما !.. أما «رومان» ذو الشعر الاحمر ، والد المجند الآخر ، فقد وقف فى سترة مهلهلة ــ وان لم يكن فقيرا ــ ونكس رأسه فى صمت، وهو يستند الى جدار المبنى ، لايكاد يتحرك الا ليرمق باهتمام اى امرىء كان يرفع صوته ــ من حين الى حين ــ ثم يعود الى تنكيس رأسه من جديد ، وكأنما كان كل كيانه ينضح بالتعاسة !.. واما الشيخ

سمعان دوتلوف ، فقد كان رجلا يستطيع اى امرىء ــ عرف عنه شيئا ــ ان يأتمنه على مئات وآلاف الروبلات ، وهو مطمئن . كان رزينا ، تقيا ، يمكن الركون اليه .. وكان شيخ الكنيسة كذلك . وهذا مما جعل الضجيج الذى احاط به ــ فى هذه المناسبة ــ يبدو اكثر اثارة الدهشة والعجب !

وعلى العكس منه، كان «ريسون» النجار ، وهو رجل طويل اسمر . فقد كان سكيرا عربيدا ، بارعا جدا فى محاجة العمال والتجار والفلاحين والسادة ومجادلتهم فى الاجتماعات والاسواق . **وقد بدا فى الاجتماع معتدا بنفسه، لاذع السخرية، وراح ــ من علياء طوله ــ يسحق شيخ الكنيسة المتداعى بكل ما لصوته الرنان من قوة ، وبكل ما اوتى من موهبة للخطابة ، حتى اقد اهتيج شيخ الكنيسة واخرج عن وقاره العميق المعهود .**

والى جانب هؤلاء ، كان « جاراسكا كوبيلوف » حاضرا ، وكان احد المتكلمين باسم الجيل الشاب ، اذ لم يكن قد تجاوز مرحلة الشباب. وكان مستدير الوجه، مربع الرأس ، مجعدا شعر اللحية، ربعة القوام. وقد حذا حذو «ريسون» ، وانحاز اليه فى الجدال . وكان قد اكتسب مكانة وقدرا فى اجتماعات القرية ، إذ امتاز بخطبه القاطعة الباترة .. ثم ، كان هناك ، « ثيودور ميلنيكنى » . وكان شابا هو الآخر، طويلا ، رفيعا ، اصفر الوجه ، ملتف الكتفين ، خفيف اللحية ، ضيق العينين، دائم الهم والاكتئاب، لايرى سوى الجانب المظلم من كل شىء .. وكثيرا ما اثار الارتباك فى الاجتماعات بما كان يوجهه من اسئلة وملاحظات مفاجئة ، محرجة !

وقد انحاز كل من هذين الخطيبين ــ كوبيلوف وميلنيكنى ــ الى « ريسون » . وكان هناك ــ فضلا عنهما ــ اثنان من المهذارين الثرثارين ، راحا ينضمان ــ بين آن الى آخر ــ الى الثلاثة .. وكان احدهما يدعى «خرابكوف»، وقد اوتى وجها

من اكثر الوجوه بشاشة ، ولحية بنيـة مسترسلة ، وقد راح يردد: « آه ، ياصديقي الاعز! » . اما الآخر، فهو «زيدكوف»، وكان شابا قلة في الجسم ، ذا وجـه كوجه الطائر ، وقد ظل يردد في كل فرصة : « هكذا الامر فعلا يا اخوتي ! » ، موجها الحـديث الى كل امرىء ، ومتكلما في لبـاقة دافقة ، دون ان يلزم الموضوع اطلاقا ! .. وكان هذان الاثنـان قد انحازا — في بادىء الامر — الى احد الجانبين، ثم ناصرا الفريق الآخر،ولكن أحدا لم يكن ينصت اليهما . **وقـد كان هنـاك غيرهما ، ممن على شاكلتهما ، ولـكن هذين الاثنين اللذين ظلا يتنقلان خلال الحشد ، ويرفعان عقيرتيهما بالصياح فوق كافة الاصوات — فيثيران الجزع في نفس سيدة القرية — كانا اقل الجميع ظفرا باصغاء الجمع.واذ انتشيا بالضجيج والصياح، أسلما نفسيهما للذة اطلاق صوتيهما بالجعجعة .**

وكان بين اعضاء الاجتماع كثيرون غيرهم، من ذوي الشخصيات الرصينة ،المحترمة ، وقد وقفوا غير مكترثين ، أو مستاءين. كما كانت هناك نسوة وقفن خلف الرجال ، وفي أيديهن عصي .. على انني سأتحدث عنهن في مرة اخـرى ، ان شاء الله . **وعلى كل حال، فان الشطر الاكبر من الحشد كان من الفلاحين الذين وقفوا كما لو انهم كانوا في كنيسة ،يتهامسون — كل من خلف ظهر الآخر — باحاديث عن شؤونهم المحلية، او عن موعد اقتطاع الحطب من الغابة .. او كانوا ينتظرون — في صمت — انتهاء الجدال .**

كذلك كان هنـاك فلاحون اثرياء ، ما كان الاجتماع ليزيد من رفاهيتهم أو ينقص . من هؤلاء كان شيخ القرية «ارميل» ذو الوجه المـريض اللامع ، الذي كان الفلاحون يطلقون عليه «المكرش» لانه كان غنيا .. ومنهم كذلك كان «ستاروستين» الذي كان وجهه ينم عن رضى ذاتي بقوته ونفوذه، وكأنه يقول:

« لكم ان تتكلموا ماشاء لكم الكلام، ولكن أحدا لن يمسنى !.. ان لى اربعة أبناء ، ولكن ما من واحد منهم سيضطر الى الذهاب! » . وكان هذان الاثنان يتعرضان ــ بين وقت وآخر ــ لهجوم من بعض ذوى التفكير المستقل ، مثل كوبيلوف أو ريسون ، ولكنهما كانا يجيبان فى هدوء وحزم ، وباطمئنان الى مناعتهما .

واذا كان « دوتلوف » قد شابه الدجاجة التى تذود الصقر عن أفراخها ، فان فتيانه لم يكونوا يشبهون الافراخ فى كثير . فلم يحوموا حوله ويشقشقوا، وانما وقفوا خلفه صامتين.. كان ابنه الاكبر «اجنات» قد بلغ الثلاثين من عمره فعلا ، كما أن الثاني « فاسيلى » كان رجلا متزوجا . أما الثالث ــ ابن أخيه « ايليشا » ــ فكان قد تزوج من عهد قريب.. وكان شابا أشقر ، متورد الوجه ، فى سترة انيقة من جلد الغنم ، اذ كان من سائقى عربات البريد.. وقد وقف ينظر الى الجمع، ويحك ــ فى بعض الاحيان ــ رأسه ، تحت قبعته ، وكان الامر كله لم يكن يعنيه فى شىء ، بالرغم من ان الصقور كانت تحوم لكى تنقض عليه هو بالذات !

* * *

وقال أحد الحضور ، معرضا بما قاله دوتلوف عن تجنيد أخيه : « اذا كان الامر كذلك ، فان جدى كان جنديا، ومن ثم فلى ان ارفض ان اكون بين المقترعين ــ انا الآخر ــ على الاساس ذاته !.. **ليس هناك قانون يقر هذا ياصديقى . ففى موسم التجنيد الماضى ، أخذ «ميخيتشيف» بالرغم من ان عمه لم يكن قد عاد من الخدمة بعد ! »**

وكان دوتلوف يقول ، فى الوقت ذاته : « لا أبوك ولا عمك قد خدم القيصر يوما . ولماذا نذهب بعيدا ، وانت نفسك لم تخدم سيدة الضيعة ، ولا الحكومة ، وانما كنت تقضى كل

وقتك في الحانة ؟!.. لقد انفصل عنك ابناؤك لان من المستحيل عليهم ان يقيموا معك ، ولهذا فأنت تتحمس لترشيح ابناء الغير للتجنيد !.. اما أنا فقد انضويت في خدمة البوليس عشر سنوات ، وخدمت كشيخ للكنيسة . ولقد احترق كل ماكنت أملك مرتين، فلم يمد لي أحد يد العون. فهل يقضي على اليوم بالخراب، لان الامور تسير في داري بسلام وتقوى؟... اعيدوا الى شقيقي اذن ! فقد مات في الخدمة العسكرية ، على وجه التأكيد .. احكموا بأمانة ، وفقا لقانون الرب ، ايها القوم المسيحيون ، ولا تنصتوا الى هذيان سكير ! »

وفي الوقت ذاته، كان «جيراسكا» يقول لدوتلوف : **«أفتتخذ من أخيك حجة ؟.. ولكن اهل القرية لم يرسلوه الى الجيش، وانما ارسله سيد الضيعة ، بسبب أساليبه الشريرة ، ومن ثم فهو ليس بالعذر الذي يعفيك ! »**

ولم يكن جيراسكا قد اتم حديثه ، عندما تقدم ثيودور ميلنيكني ــ الاصفر الوجه ــ وشرع يقول وهو بادي الكآبة : « اجل، هكذا ينبغي القول.. ان السادة يرسلون الى الجيش بمن يروق لهم ، ومن ثم فعلى القوم ان ينفضوا أيديهم . لقد اجمع القوم على فتاك ، فاذا لم يرق ذلك لك ، فاذهب وسل السيدة ، فلعلها تأمرني ــ أنا الرجل الذي يعول اسرة ــ بأن اترك أولادي واذهب !.. » . ثم اردف بمرارة : « هاك قانونا يرضيك! » ، ولوح بيده، ثم عاد الى مكانه السابق . واذ ذاك، انتبه «رومان» ذو الشعر الاحمر ــ الذي كان ابنه أحد المجندين الذين تم اختبارهما ــ فرفع رأسه وغمغم : « هو كذلك !.. هو كذلك ! » ، وجلس على عتبة الباب في استياء وكرب .

على أن هؤلاء لم يكونوا كل من راحوا يتكلمون معا ، في وقت واحد . فالى جانب اولئك الذين كانوا يتحدثون عن شؤونهم الخاصة ــ في المؤخرة ــ لم ينس المهذاران ان يؤديا دوريهما .

فقال زيدكوف ــ الضئيل الجسم ــ يناصر دوتلوف : « وهكذا ينبغى أيهـا القوم الاوفيـاء ! .. يجب ان يحكم المرء بضمير مسيحى .. اعنى اننا يجب اننحكم كمسيحيين، ايها الاخوة!» .. وكان«خرابكوف» البشوش يقول مرددا كلمات «جاراسكا كوبيلوف » ، وهو يجـذب سترة دوتلوف المصنوعة من جلد الغنم : « **يجب على المـرء ان يحكم وفقـا لضميره يا صديقى العزيز.. لقد كانت تلك ارادة السيد ، وليس قرار اهل القرية الذى ارسل بأخيك الى الجيش ! »** .. **وقال آخرون : « هذا صحيح ! هكذا كان ! »**

وصاح ريسون فى دوتلوف : « اى سكير يهرف هناك ؟ .. هل قدمت لى أى شراب ؟ .. أم ترى ابنك ــ الذى يلتقطونه من قارعة الطريق وهو ثمل ــ يجرؤ على لومى على الشراب؟.. يجب ان نتخذ قرارنا أيهـا الاصدقاء ! اذا أردتم ان تعفوا آل دوتلوف، فاختاروا مجندا .. لا من بين الاسرات ذات الرجلين فحسب ، بل ومن بين الاسرات التى لم تؤت كل منهـا سوى ابن واحد .. ودعوا الرجل يضحك منا ! »

ــ لابد لواحـد من ابناء دوتلوف من الذهاب ! ففيم اطالة الكلام ؟

وشرعت اصـوات مختلفة تقـول : « من الطبيعى ان تكون الاسرات ذات الابناء الثلاثة هى الاولى فى الاقتراع ! »

فصاح صوت : « لابد لنـا من ان نرى أولا ماسوف تقول السيدة . لقد كان ايجور ميخايلوفيتش يقول انهم كانوا راغبين فى ارسال أحد عبيد البيت ! »

وأوقفت هذه العبارة الجدال برهة، ولكنه سرعان ما تأجج من جديد ، وتحول ــ مرة اخرى ــ الى المسائل الشخصية. فان «اجنات» ــ الذى رماه ريسون بأن النـاس يلتقطونه من الطريق ثملا ــ شرع يرمى ريسون بأنه سرق منشارا من جماعة

من النجـارين الرحل، وانه كان يضرب زوجته ـ حين يثمل ـ حتى يكاد يقضي عليها !.. فرد عليه ريسون بأنه يضرب زوجته حقا ، ويضربهـا وهو في وعيه ، دون أن ترعوى .. فأضحك قوله كل امرىء . ولكنه استنكر في إباء مفاجىء مسألة المنشار، ودنا من «اجنات» وسأله : « من الذى سرق ؟.. » . فأجاب اجنات ـ المتين البنيان ـ وهو يدنو منه بدوره : « انت ! »

وصـاح ريسـون : « من الذي سرق ؟ .. الم تـكن أنت السارق ؟ » . فأجاب اجنـات : « لا .. بل انت ! » .. **ومن المنشار انتقلا الى سرقة جواد ، وكيس من الشوفان ، وخضر قطعت من حديقة أحد المنازل .. بل انهما تبادلا الاتهام بشأن جثة ميت معين . وقال كل من الفلاحين عن الآخر أشياء رهيبة، لو صح جزء من مائة منها ، لكانا يستحقان النفى الى سيبريا ـ على الاقل ـ بحكم القانون .**

وكان دوتلوف ـ فى تلك الاثناء ـ قد اختـار طريقة أخرى للدفاع عن نفسه ، فانه لم يرض عن صراخ ابنه ، فحاول ان يوقفه قائلا : « انها خطيئة !.. كف عن هذا ! انني آمرك ! » . وفى الوقت ذاته، راح يقول ان الذى أوتى ثلاثة شبان يقيمون معـه ليس وحـده رب اسرة ذات ثلاثة ابناء ، وانمـا ينطبق الوصف كذلك على من له ثلاثة ابناء يعيشون منفصلين عنه . واشار بذلك الى «ستاروستين» . فابتسم «ستاروستين» ، وأجلى حلقه ، وأخذ يسوى لحيته ، كمـا يفعل الفلاح الذى اوتى بسطة فى الرزق، واجاب بأن الامر كله يتوقف على سيدة الضيعة ، وان من الجلى ان ابناءه كانوا موضع تقدير ، اذ ان الامر صـدر باعفائهم .. وحطم « جاراسكا » حجج دوتلوف بشأن الاسرات التى انقسمت ، بأن قال انه لم يكن ينبغى لها أن تنقسم ـ اذ كانت هـذه هى القـاعدة التى سادت خلال حياة سيد الضيعة المتوفى ـ وانه ليس للمرء ان يبكي على لبن

اريق ، فقـد تم الانقسام فعـلا ، وأصبح كل ابن ربا لاسرة ، ولا سبيل الى تجنيد الرجل الاوحد فى هذه الاسرة .

وانبعثت اصـوات الرجال الذين انقسمت اسراتهم ، وقد انضم اليهم المهـذاران : « اتراهم انفصلوا عن أهلهم حبـا فى اللهو ؟ .. لماذا يقضى عليهم الآن بالخراب المبرم ؟ » .. وقال ريسون لدوتلوف : « يحسن بك ان تبتاع بديلا اذا لم يرضك هذا ، وفى وسعك ان تفعل ! » . فشد دوتلوف اطراف سترته حوله ، فى حركة يائسة ، وتقهقر وراء الآخرين ، وهو يدمدم مغضبا: « يبدو انك تعذ على نقودى ! .. لسوف نرى مايقول ايجور ميخايلوفيتش عندما يعود من لدن السيدة ! »

(٦) .. وانفض الاجتمـاع !



• وفى تلك اللحظة بالذات ، برز « ايجور ميخايلوفيتش » من الدار ، فاذا القلنسوات ترتفع واحدة بعـد اخرى ، اثناء اقتراب وكيل الاعمال، حتى تعرت جميع الرؤوس من شيباء، وسوداء تتخللها بواكير الشيب ، وحمراء ، وبنية ، وصفراء ، وصلعـاء من امام ، أو صلعـاء فى أم ناصيتهـا ! .. وأخذت الأصوات تخفت تدريجا، حتى ران الصمت فىالنهاية ، وسيطر السكون . وخطا « ايجور ميخايلوفيتش » الى عتبـة الباب ،

وقد تجلى انه كان ينتوى الكلام . . ووقف فى سترته الطويلة، وقد دس يديه فى جيبيه الاماميين اخفاء لحرجه، وجذب على جبينه قلنسوته المصنوعة فى المدينة .. وقف ثابتا، وقد باعد بين ساقيه ، على العتبة المرتفعة ، فبـدا كأنه كان يطل من عل على تلك الرؤوس ، وعلى الوجـوه التى تطلعت اليه ومعظمها مسن ، ملتح ، مليح .. وكان فى وقفته هذه رجلا غير ذاك الذى كانه حين وقف امام مولاته .. كان متعاليـا ، ذا سلطان !..

وما لبث ان قال :

ــ هاكم قرار السيدة يارجال ! .. ليس مما يسرها ان تقدم أحدا من رقيق الدار . انما الذين سيذهبون منكم، هم الذين تقررون بأنفسكم اختيارهم . **ان المطلوبين ــ فى هـذه المرة ــ ثلاثة ، والواجب ان يكونوا اثنين ونصف رجل ، ولكن النصف الآخر سيراعى حسـابه فى المرة المقبلة فالامر سيان ، واذا لم يذهب اليوم ، فلا بد له من الذهاب باكر !**

فقالت بعض أصوات : « طبعا ، هـذا صحيح ! » . بينما استطرد ايجور ميخايلوفيتش: « وفى رأيى أن لابد لخاريوشكين ولفاسكا ميتيوخين من الذهاب . . فهذه ارادة الله ، كما يبدو !» .. وقالت الاصوات : « اجل .. هذا صحيح ! » . وظل هو ماضيا فى الحديث : **« .. اما الثـالث فلا بد ان يكون من آل دوتلوف ، أو واحدا من الاسرات ذات الرجلين .. فما قولكم ؟»**

وصاحت الاصوات : « دوتلوف ! .. أن فى الاسرة ثلاثة من الشبان ، فى سن التجنيد ! » .. ومن جـديد ، عاد الصياح يتزايد شيئا فشيئا ، وانبعث حـديث خضر الحديقة وبعض الاكياس التى سرقت من ساحة السيدة مرة اخرى ، بطريقة ما . وكان « ايجور ميخايلوفيتش » قد قضى فى ادارة الضيعة الاعوام العشرين الاخيرة ، فكان أريبا ، خبـيرا . ومن ثم فقد ظل واقفا يصغى زهاء ربع ساعة ، ثم امر الجميع بالصمت ، وأمر شبان اسرة دوتلوف الثلاثة بأن يقترعوا على من يذهب

منهم. واعدت اوراق الاقتراع، وخلطت داخل احدى القبعات، ثم سحب «خرابكوف» احداها ، **فاذا بها ورقة ((ايليشا)) .**

وسيطر الصمت على الجميع . وقال ايليشا فى صوت مرتعش : « اهي ورقتي ؟ .. دعني اراها ! » فظل الجميع سكونا ، بينما أمر « ايجور ميخايلوفيتش » بأن يحضر كل امرىء نقود التجنيد فى اليوم التالى ــ سبعة كوبكات من كل دار ــ ثم اردف انالامر قد انتهى ، وفض الاجتماع . وتحرك الحشد منصرفين ، وأخذت أصواتهم ووقع اقدامهم تخفت رويدا ، حتى أصبحت كطنين يسرى من بعيد . ومكث وكيل الاعمال واقفا يرقب انصراف الجمع ، حتى اذا غاب ابناء دوتلوف الثلاثة، فى منعرج الطريق، أشار الى الشيخ دوتلوف ، الذى كان قد وقف من تلقاء نفسه، ثم دخلا غرفة المكتب معا.

وقال ايجور ميخايلوفيتش، وهو يجلس فى مقعد وثير امام المكتب : « اننى آسف من اجلك ايها الشيخ . على ان الدور كان دورك . فهل ستدفع لمجند يحل محل ابن أخيك أو لا ؟»

ــ لكم يسرنا أن ندفع لبديل يا ايجور ميخايلوفيتش ، لولا أننا لانملك الى ذلك سبيلا . لقد آل جوادان ــ فى هذا الصيف ــ الى تاجر الجياد التى لم يعد لها نفع (١) ، ثم .. كان هناك زواج ابن أخى .. انه قدر مكتوب علينا ، كما ترى . جزاء اننا نعيش بأمانة وشرف . أن له حقا فى أن يتكلم كما يشاء !

(وكان يفكر اذ ذاك فى ريسون)

ومسح ايجور ميخايلوفيتش وجهه بيده وتثاءب . كانت المهمة قد أتعبته وأسقمته ــ كما ظهر ــ وكان تواقا لان يتناول الشاى . فقال : « آه ، ياصديقي الكهل ، لاتكن شحيحا ! .. ابحث فى أرض دارك ، فانى لموقن من انك ستخرج من تحتها زهاء اربعمائة ورقة قديمة من فئة الروبل ، وسأبحث لك عن

---

(١) كانت الخيل المريضة والمكتهلة تباع لتذبح ويتجر فى لحمها .

بديل .. واحد ممن اعتادوا التطوع !.. لقدجاءنى شاب منذ ايام يعرض نفسه ! »

وتساءل دوتلوف : ((فى **الحكومة ؟**)) .. وكان يقصد « فى المدينة »

ــ حسنا ، هل تدفع له ؟

ــ لكم كان يسرنى ، والله على ما أقول شهيد ، ولكن ...

فقاطعه ايجور ميخايلوفيتش بلهجة صارمة : « آه ، اذن فاسمع أيها الشيخ ! .. حذار من ان يلحق ايليشا بنفسه أذى (١) ، ولا بد من أخذه الى المدينة فورا .. بمجرد ان أخطركم بذلك ، ان اليوم أو غدا . لسوف تصحبه أنت ، وستكون مسئولا عنه، ولو انشيئا حدث له ــ لا قدر الله ! ــ فسأبعث بابنك الاكبر بدلا منه ! هل تسمعنى ؟ »

ــ ولكن، اما منسبيل لارسال واحد من اسرة ذات رجلين؟ .. ان هذا ليس من الانصاف فى شىء يا ايجور ميخايلوفيتش!

وصمت لحظة ، ثمعاد يقول ، والدمع يكاد يطفر من عينيه: ((**لقد مات أخى فى الجندية ، وها هم أولاء يأخذون ابنى! .. كيف استحق مثل هذه البلوى ؟**)) .. وأوشك انيهوى جاثيا على ركبتيه، فقال ايجور ميخايلوفيتش : « لابأس ، لابأس.. انصرف ! لا سبيل الى عمل شىء ، فهذا حكم القانون ! .. راقب ايليشا ، فسوف تكون مسئولا عنه ! »

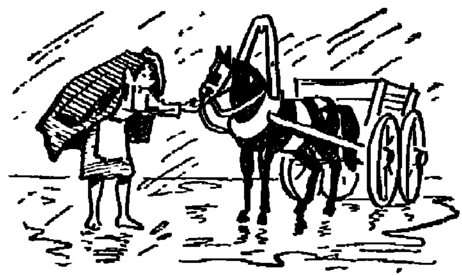
وعاد دوتلوف الى داره، وهو يدق الارض بعصاه المصنوعة من خشب الزيزفون ، اثناء سيره !

(٧) ((بوليكى)) يذهب الى المدينة

• فى ساعة مبكرة من الصباح، وقف عند عتبة اركانرقيق

---

(١) كان من الشائع ان يصيب المجند نفسه باذى يجعله غير صالح للخدمة العسكرية ، كان يقطع من يده اصبعا .



الدار ، جواد عريض العظام ، مخصى ـ كان يدعى « الطبل » لامر ما ـ شد الى عربة صغيرة ، اعتاد وكيل الاعمال ان يستقلها بنفسه احيانا .. وبالرغم من ان السماء كانت تمطر بردا ، والريح قارسة ، فان «آنى» ـ ابنة بوليكى الكبرى ـ وقفت حافية عند رأس الحصان ، ممسكة عنانه على قيد ذراع ، بينما امسكت باليد الاخرى سترة خضراء مصفرة حائلة اللون ، كانت ملقاة على رأسها ، **وكانت تستخدم كغطاء فراش للاسرة ، ومعطف ، وغطاء للرأس ، وبساط ، ومعطف لبوليكي ، واداة لعدة اغراض أخرى بجانب ذلك** . وكان «ركن» بوليكى يضج بالحركة . وكان الضوء الواهن ـ لذلك النهار المطير ـ قد بدأ يتسرب خلال النافذة التى كان زجاجها مهشما ـ هنا وهناك ـ وقد سدت الثغرات بالورق .

وتركت « أكولينا » الطعام الذى كانت تطهوه فى الفرن ، كما تركت اطفالها ـ الذين كان اصغرهم فى الفراش ـ يرتجفون ، لان السترة التى كانت بمثابة غطاء لهم فى نومهم ، اخذت منهم ولم تستبدل بغير الشال الذى اعتادت امهم ان تضعه على رأسها . وانهمكت «اكولينا» فى مساعدة زوجها على التأهب لرحلته .. كان قميصه نظيفا ، ولكن حذاءيه ـ اللذين كانت اصابعه تطل منهما تنشد قوتا ، كما يقول المثل ـ كبداها كثيرا من العناء . فقد نزعت جوربيها الصوفيين الثقيلين ـ جوربيها

الوحيدين ـ واعطتهما لزوجها ، واقتطعت بمهـارة زوجا من النعال الداخلية ، من كساء سرج كان ملقى فى حظـيرة الخيل مهملا ـ وقد أحضره بوليكى الى داره قبل ذلك بيومين ـ حتى تسـد ما كان فى الحـذاءين من ثقوب ، وتصون قدميـه من الرطوبة .

وجلس بوليـكى على السرير بكل جسمـه وقدميه ، وراح يسوى حزامه حتى لايبدو كحبل قذر . وكانت الابنة الصغرى اللثغاء ، الحولاء البصر ، قد التفت فى جلد الغنم ـ الذى غطى رأسها واسترسل فراحت تجـرجره على الارض ـ واوفدت لتسأل «نيكيتا» ان يعير اباها قلنسـوة . **وضاعف الحركة فى ((الركن)) مقدم رقيق الدار ليسألوا بوليكى أن يأتيهم بمختلف الاشياء من المدينة . فطلب واحـد ابرا للحياكة ، وطلب آخر شايا، وثالث تبغا، وغيرهم زيت زيتون. وكانت زوجة النجار قد وجدت وقتا لتذكي النار تحت غلاية الماء ، وتعد قدحا مليئا بسائل اسمته شايا، قدمته الى بوليكى استرضاء له ، لتسأله أن يحضر لها قدرا من السكر .**

ومع أن نيكيتـا رفض أن يعير قلنسـوته ، فاضطروا الى ترتيق قلنسوة بوليكى ، وذلك برد الوبر الذى حشيت به ـ والذى برز من جوفها ـ وحياكتها بابرة من ابر جراحة الخيل .. ومع أن الحذاءين أبيا ـ فى بادىء الامر ـ ان يتسعا لقدمى بوليكى ، بعد ان زج فيهما بالنعلين المصنوعين من كساء السرج .. ومع ان «آنى» كادت تفلت عنان « الطبل » وقـد أثلجت اطرافها ، وكان لابد لمارى أن تحل محلهـا وهى ملتفة بجلد الغنم ، ثم اضطرت «مارى» ان تخلع عنهـا جلد الغنم ، لكى تلتف به «اكولينا» وتحل محلها لتمسك بالجواد .. **بالرغم من كل هذا ، فقـد انتهى الامر بأن وفق «بوليكى» الى ان يكسو جسمه بكل ما لدى الاسرة من ثياب للتدفئة، فلم يخلف وراءه**

سوى السترة وزوجا من النعال المكشوفة !

واذ استكمل اهبتـه ، صعد الى العـربة الصغيرة ، واحكم جلد الغنم حول جسمه، وهز كيس التبن المعلق أسفل العربة، ثم عاد فلف نفسه جيدا، وامسك بعنان الجواد، وشد اطراف المعطف حوله من جديد، كما يفعل ذوو الشأن والمكانة، وشرع فى رحلته .. واقبل ابنه الصغير «ميشكا» على الدرج مهرعا، وتوسل اليه ان يدعه يركب قليـلا ، كما ألحفت عليه ماري اللثغاء أن يسمح لها بأن يدعها « تلكب » ــ أى تركب ــ قائلة انهـا لا « تشعل ببلد (أى تشعر ببرد) ولو انها بدون جلد الغنم » . **فبادر «بوليكى» الى استيقـاف «الطبل» ، وابتسم ابتسامته الواهنة ، بينما كانت « اكولينا » ترفع الطفلين الى العربة . ومالت نحوه فتوسلت اليـه همسا ان يتذكر عهده ، فلا يتناول اى خمر فى رحلتـه** . وجاس « بوليكى » بالطفلين خلال القرية حتى حانوت الحداد ، ثم انزلهما ، ولف جسمه جيدا ، وسوى من وضع قلنسـوته ، وساق الجواد فى خبب رزين متزن ، وخداه يختلجان مع كل هزة ، وقدماه ترتطمان بجانبى العربة الخشبيين . واندفعت « ماري »و« ميشكا » حافيين ، يهبطان التل الزلق الى البيت ، وهما يصرخان عاليا، حتى ان كلبا مشردا من كلاب القرية تطلع اليهما ، ثم سابقهما الى البيت وذيله بين ساقيه،مما جعل خليفتى بوليكى يرفعان صراخهما قدر ما كان عشر مرات

* * *

وكان الجو لايطـاق ، فالريح لاذعـة ، تتأرجح بين المطـر والصقيع ، وبين آن وآخـر كان البرد يرتطم بوجه «بوليكى» وبيديه العاريتين اللتين كانتا ممسكتين بعنان الجواد ــ واللتين لم ينفك يجذب كمى معطفـه ليغطيهما ــ وبجلد نير الجواد ، وبرأس «الطبل» المكتهل ، الذى رد اذنيه الى الخلف، واغمض

عينيه نصف اغماضة !

ثم كف المطر فجـأة ، واشرق الكون فى لحظة . وانقشعت الغيوم الجليـدية ذات اللون الضـارب الى الزرقة ، وشرعت الشمس تشق طريقها لتبزغ ، ولـكن .. فى احجام ودون ما ابتهاج ، كابتسامة « بوليكى » ! .. ومع ذلك ، فان «بوليكى» كان مغرقا فى افكار بهيجة .. **فها هوذا ــ هو الذى كان مهددا بالنفي وبالتجنيـد ، والذى لم يكن يعنف به ويضربه سـوى أولئك الذين يشتد بهم الكسل ، والذى كان يزج به دائمـا فى أسوأ الاماكن ــ ها هو ذا ينطلق بالعربة ليحصل مبلغـا من المال ــ بل مبلغا كبيرا ــ وقد اءتمنته مولاته .. هاهوذا ينطلق فى عربة وكيل الاعمال ، يجرها «الطبل» الذى كانت السيدة نفسها تستخدمه فى جـر عربتها ..** وكأنه مالك من أصحاب الارض، يسرج جواده بنير واعنة من المجلد بدلا من الحبال !.. واعتدل « بوليكى » فى جلسته ، ودس الحشو الذى تدلى من قلنسوته ، وعاد يحكم لف معطفه حول جسده !

على ان «بوليكى» اذا كان قد وهم انه بدا فى مظهر الفلاح المثرى صاحب الاملاك ، فانما كان يخدع نفسه ويغشها. فمن الحقيقى ــ كمـا يعرف كل امرىء ــ ان تجارا يمتلكون عشرة آلاف روبل ، يرحلون فى عربات تجـرها جيـاد ذات سروج جلدية، الا ان هـذا لم يكن كل شيء .. ولقد يمر بك رجل ذو لحية ، وقد ارتدى معطفا أزرق أو اسود ، وجلس وحيدا فى عربة يجرها حصان جيـد التغذية ، فلا تلقى اليه نظرة الا لترى ما اذا كان الجواد ناعم البشرة، وما اذا كان الرجل جيد التغذية ، ولتتبين الطريقـة التى يجلس بها ، وسرج جواده ، واطارات عجلات عربته ، وعباءته ، فتعرف لفورك ما اذا كان الرجل يتجر حقا فى مئات الروبلات او فى آلاف ! .. وكان أى شخص مجرب يتاح له ان ينظر عن كثب الى «بوليكى» ويديه، ووجهه، ولحيته الحديثة المنبت ، وعباءته ، والتبن الذى وضع

فى العربة باهمال ، و «الطبل» النحيل، والاطارات الباليةحول العجلات .. **كان أى شخص ذو تجربة يرى ذلك ، خليقا بان يدرك انه ليس سوى عبد وليس تاجرا ، ولا وسيطا يتسوق صفقات الماشية ، بل ولا فلاحا يملك ارضا .. وانه لايتعامل بآلاف ولا بمئات ــ بل ولا بعشرات ــ الروبلات !**

ولكن «بوليكى» لم يكن يفكر على هذا النسق .. فقد آثر ان يغرر بنفسه ، وان يغــرر بها مختارا ، راضيا .. انه لن يلبث ان يعود حاملا الفا وخمسمائة روبل فى صدر معطفه .. ولو شاء فان بوسعه ان يولى وجه «الطبل» صوب (اوديسا)، بدلا من ان يوجهه شطر قريته ، وان يسوقه الى حيث يشاء القدر والمصير . ولكن «بوليكى» لن يفعل شيئا من هذا القبيل، بل انه سيحمل النقود كلها الى السيدة، كما ينبغى، وسيحدثها بأنه حمل يوما مبالغ تفوق هذا المبلغ قيمة !

* * *

وعندما بلغا حانة ــ فى الطريق ــ شرع « الطبــل » يجذب العنـــان الايسر ، موليــا صوب الفنــدق ، ثم وقف . وكانت مع «بوليكى» النقود التى اعطيت اليه كى يشترى بها ماسئل ان يشتريه ، ولكنه ــ رغم ذلك ــ ساط «الطبل» ، واضطره الى ان يواصل السير . وتكرر الامر ذاته عند الحانة التالية . حتى بلغا المدينة ــ حوالى الظهر ــ وقفا لدى حانة . وهبط «بوليكى» من العربة فى هذه المرة ، وفتح باب فناء دار صاحب الحانة ــ حيث اعتاد كل اتباع مولاته ان ينزلوا ــ وقاد الجواد والعربة الى الفناء . وهناك ، فك قيود «الطبل» .ورفع عنـــه النير ، وقدم له بعض التبن، ثم تناول غداءه مع اتباع صاحب الحانة ، دون ان يغفل ذكر المهمة الخطيرة التى اقبل من اجلها .. **و ما لبث ان انطلق ليبحث عن التــاجر الذى كان يبتــاع منتجات بستان السيدة ، ومعه قائمة الحساب فى ثنايا مقدم**

قلنسوته !

وكان التاجر يعرف «بوليكي» ، وقد بدأ بوضوح مرتابا فى أمره . فلما قرأ الخطاب ، راح يسأله ليستوثق من انه كان اوفد فعلا لتحصيل النقود . وحاول « بوليكي » ان يبدى استياء ، وكأن الاسئلة قد جرحت شعوره ، ولكنه لم يستطع ان يجيد الاصطناع ، ولم يملك سوى أن يبتسم ابتسامته المعهودة . وعاد التاجر يقرأ الخطاب من جديد ، ثم أسلمه النقود .

وما ان تسلم «بوليكي» المبلغ ، حتى دسه فى صدر معطفه، وعاد الى الخان،فلم يستهوه المشرب ولا الحانة ولا أى شيء.. **كان يشعر بانفعال مستعذب يسرى فى كل كيانه ، وقد وقف اكثر من مرة أمام الحوانيت التى كانت تعرض سلعا مغرية ـ من أحذية ، ومعاطف ، وقلنسوات ، واقمشة ، ومواد غذائية ـ ثم كان يمضى فى سبيله ، وفى نفسه شعور ممتع ، وكأنه يقول لنفسه : « بوسعى أن ابتاع كل هذا ، ولكن .. ولكنى ـ مع ذلك ـ لن أفعل »** ! وذهب الى السوق لشراء الاشياء التى كلف بشرائها ، فحصل عليها جميعا ، ثم شرع يساوم على معطف مبطن بفراء الغنم، سئل أن يدفع خمسة وعشرين روبلا ثمنا له . ولامر ما ، لاح على البائع ـ بعد ان تأمل بوليكى ـ انه يرتاب فى مقدرته على شراء المعطف . بيد ان بوليكى أشار الى صدره ، قائلا ان بوسعه أن يشترى الحانوت كله ، لو أنه شاء . واصر على ان يرتدى المعطف للتجربة وراح يتحسسه، ويجس قماشه ، وينفخ الصوف ليباعد بين شعيراته ويتأمل النسيج ، حتى امتلأ برائحته .. ثم خلعه عنه وتنهد، وقال : « ان السعر لايلائمنى ، فهلا بعته بخمسة عشر روبل ؟ » . فطوح البائع بالمعطف عبر نضد الحانوت وهو مغيظ ، بينما خرج بوليكى مبتهجا ، وسار الى الخان الذى نزل فيه .

وبعد العشاء روى «الطبل» وقدم له قدرا من الشوفان ،

ثم اعتلى المدفأة (١) ، وأخرج المظروف الذى ضم النقود ، ففحصه طويلا ، ثم سأل حمالا كان يعرف القراءة ، ان يقرأ عليه العنوان وما خط تحته ، فاذا به : **طيه الف وستمائة وسبعة عشر من الروبلات المحولة »** (٢) . وكان المظروف مصنوعا من الورق العادى، ومختوما بشمع بنى صلب ـ نقش عليه رسم مرساة (هلب) ـ فى خمسة مواقع .. خاتم كبير فى الوسط ، وأربعة فى الاركان . كما كانت ثمه نقاط من الشمع بقرب الحافة. ولقد فحص «بوليكى» كل هذا وتأمله وطبعه فى ذاكرته .. بل انه تحسس حواف الاوراق المالية المرهفة، التى كانت بداخله . وداخله شعور صبيانى بالسرور وهو يرى انه يمسك بين يديه بمبلغ ضخم كهذا . **ثم دس المظروف فى ثغرة بين ثنايا قلنسوته ، ورقد والقلنسوة تحت رأسه.. ولكنه لم يطمئن ـ مع ذلك ـ فظل يستيقظ خلال الليل ليتحسس المظروف** . وكان ـ فى كل مرة ـ يجده فى مكانه ، فيخالجه شعور مستعذب بالرضى .. فهاهوذا «بوليكى» الملطخ السمعة المستضعف ، المهين .. ها هوذا يحمل مبلغا كهذا ، ليسلمه الى مولاته بعناية دونها عناية اى امرىء آخر .. حتى وكيل اعمالها نفسه !

(٨) هياج فى الخان

• **استيقظ** خدم صاحب الخان و « بوليكى » ـ حوالى

(١) كانت البيوت الروسية مزودة بمدافىء مبنية بالطوب ، كبيرة الحجم ، على شكل الأفران المعروفة فى ريفنا .

(٢) الروبل المحول عملة ورقية تعادل سبعى الروبل الفضى فى القيمة . فكان المبلغ كله ٤٦٢ روبل .. وهو ما ذكره ايجور لمولاته فى نهاية الفصل الأول



منتصف الليل ـ على طرقات على البـاب الخارجى ، وصياح صادر من فلاحين . واذا بفريق المجنـدين من (بوكروفسك) قـد وصل . . كان ثمة عشرة أفـراد تقريبا : خوريوشكين ، وميبتيوكين ، وايليشـا (ابن أخى دوتلوف) ، وبديلان رافقا القوم عسى ان تدعو الحاجة اليهما ، وشيخ القرية ، ودوتلوف الكهل ، والرجال الذين ساقوا العربات التي أقلتهم . وكان فى الحجرة ضوء ساهر ، وقد رقدت الطاهية على اريكة خشبية تحت الايقونات ، فقفزت ناهضة ، وبادرت الى اشعال شمعة . . كذلك استيقظ «بوليكى» ، واطل من أعلى المدفأة ، فنظر الى الفلاحين اثناء ولوجهم المكان .

ودخلوا وهم يرسـمون علامة الصليب على صـدورهم ، وجلسوا على المقـاعد الخشبية المرصوصـة بحذاء جـدران الحجرة . وكانوا جميعـا يلوحون فى أكمل هدوء وسكينـة ، حتى ليعجز المرء عن أن يحدس أيهم المجندون ، وأيهم الذين كانوا يرافقونهم . وأخـذوا يحيون أهل الخـان ، ويتحدثون بأصوات عالية ، ويطلبون طعاما . . وصحيح ان بعضهم كانوا سكوتا ، واجمـين ، محزونين ، الا ان بعضـا آخر كانوا على النقيض ، فى مرح غير عادى . . **كان من الجلى انهم سكارى . وقد كان بين هؤلاء «ايليشا» الذى لم يسرف يوما فى الشراب من قبل**

وتســاءل شيخ القــرية : « وبعــد يا أولاد .. هل ننام أو نتناول عشاء ؟ » . فقال «ايليشا» وهو يفتح صدر معطفه ، ويجلس على مقعد خشبي : « عشــاء ! .. واطلبوا لنا بعض الفودكا ! » . فقال شيخ القرية في ايجاز : « كفاك فودكا ! » . والتفت الى الآخرين قائلا : « ليقتطع كل منكم لنفســه لقمة من الخبز يا اولاد !.. لمــاذا نوقظ القوم ؟ » . فعاد ايليشـا يصيح، دون ان ينظر الى احد، وبصوت نم عن انه لن يسكت: « آتوني بفودكا ! »

واخذ الفلاحون بمشورة شيخ القرية ، فأحضروا خبزا من العربات التي اقلتهم، وطلبوا قليلا من الجعة ، ثم استلقوا .. بعضهم على الارض ، وبعضهم على المدفأة . وظل ايليشا يردد بين فترة واخرى : « دعوني أصب بعض الفودكا . اتسمعون؟ .. اريد بعض الفودكا ! » . ثم فطن الى «بوليكي» ، فصاح : **« بوليكي ! ها ، بوليكي ! .. أأنت هنا ايها الصديق العزيز ؟.. الا تعلم انني ذاهب لاصير جنديا ؟ .. ودعت امي وزوجتي.. لــكم راحت تعــول وتجهش بالبكاء ! .. لقــد حزموني حزما وارسلوني كالطرد لاصبح جنديا .. اطلب لي بعض الفودكا ! »**. فأجابه بوليكي : « لست املك اية نقود ! » . وأخذ يواسيه ، ثم اردف : « من يدري ؟ .. لعلك يرفضون تجنيــدك بعون الله ! »

ــ لا يا صديقي ، فأنا متين البنيــان كالشجرة الصلبة .. ابدا لم أصب بمرض . لا ســبيل الى رفضي ! .. اى جندى يرجوه القيصر خيرا مني ؟

وأخــذ بوليكي يروى له كيف ان فلاحا اعطى طبيبا ورقة مالية من ذات الروبلات الخمسة، ففاز بالاعفاء من الجندية.. واقترب«ايليشنا» من المدفأة، وشرعا يتكلمان بمزيد من الحرية. فقال ايليشا : **« لا يابوليكي ، لقد انتهى الامر ! لم اعد أنا نفسي راغبا في البقاء ، فقد استغنى عمي عني ، وكأنه لايملك ان يدفع**

لبديل يحل محلي !... لا ، لقد ضن بابنه، وضن بالمال ، ومن ثم فقد ارسلوني . لا !.. أنا نفسي لا أريد المكث !)) . وكان يتكلم بصوت منخفض ـ تحت تأثير أساه الهادىء ـ وكأنه يبث الآخر سره .. واستطرد يقول : « انما آسى على شيء واحد .. آسي على امي ، تلك الحبيبة ! .. لشد ما كان حزنها ! والزوجة كذلك ! .. لقد قضوا على المراتين بالخراب، لغير نفع ! .. لسوف تهلك امرأتي .. أو ـ بمعنى آخر ـ ستصبح زوجة جندي، وكفى ! .. كان خيرا لو انني لم أتزوج! فلماذا زوجوني ؟ .. انهم آتون الى هنا غدا ! »

وتساءل بوليكي: « ولكن ، لماذا احضروكم بهذه العجلة ؟.. ان احدا لم يسمع بالامر كله، ثم اذا بهم فجأة .. » . فأجاب ايليشا مبتسما : « تصور انهم يخشون أن أحدث بنفسي اذى . لا داعي للخوف ، فلن أحدث بنفسي شيئا من هذا القبيل .. كل ما هنالك انني آسف من اجل امي .. » . ثم اردف في رفق واسى : « ما الذي حملهم على ان يزوجوني ؟ »

وفتح الباب اذ ذاك ، ثم اغلق بصوت عال ، ودخل الشيخ دوتلوف وهو ينفض البلل عن قلنسوته ، وقد غيب قدميه في حذاءين من لحاء الخشب مفرطي الكبر ـ كعادته ـ فكأنهما قاربان حول قدميه ! .. وقال لخادم الخان وهو يمر به : « أليس هناك مصباح يا أفاناسي ، لاحضر على ضوئه بعض الشوفان ؟ » . وشرع يشعل ـ في بطء ـ بقية من شمعة ، دون ان ينظر الى ايليشا، وقد بدا قفازاه وسوطه مدسوسين تحت حزامه الذي شد باحكام وعناية حول معطفه . ولاح وجهه ـ الذي أضناه الجهد والنصب ـ مألوفا ، ساذجا ، وادعا ، مليئا بهموم العمل ، وكأنه وصل لتوه مصطحبا قافلة من العربات المحملة !

* * *

وصمت ايليشا عندما رأى عمه، وعاد يطرق، متأملا مقعده الخشبى فى وجوم . ثم تمتم مخاطبا شيخ القرية : « فودكا ، يا ارميل !.. اريد بعض الشراب ! » .. وبدأ صوته محنقا ، ساخطا . فأجابه الشيخ الذى كان يأكل شيئا من وعاء أمامه: « شراب ، فى مثل هـذا الوقت ؟ الا ترى الآخـرين قد اكتفوا بلقمة وناموا ؟.. لماذا تثير شغبا ؟ » . وتجلى ان كلمة «شغب» قد وسوست الى «ايليشا» بالعنف، فصاح: «لسوف أقدم على عمل غير طيب ، اذا أنت لم تعطنى فودكا ، ايهـا الشيخ ! » . فالتفت شيخ القرية نحـو دوتلوف الذى كان قـد وضـع الشمعة فى «فانوس» ، وهم بأن يخرج ثم توقف ليرى ما قد يحدث ... والذى كان يرمق ابن اخيه ــ من ركن عينه ــ فى رثاء ، وكأنما هو فى عجب لمسلكه الصبيانى .

وعاد ايليشا يغض بصره، وهو يتمتم: « فودكا ! .. اعطنى! .. اقدم على شر ! » . فقال شيخ القرية فى لين : « دعك من هذا يا ايليشا ! .. اجل ، دعك، وكفى ! .. ان هذا خير لك!» .. **وقبل ان يفرغ من كلماته، كان «ايليشا» قد وثب فضرب زجاج احـدى النوافذ بقبضته ، وهو يصـيح بأعلى صوته : « مادمت تابى ان تسمع كلامى ، فهاك العـاقبة ! » . واندفع نحو النـافذة الاخرى ليكسر زجاجها** . وفى لمح البصر ، تقلب «بوليكى» مرتين ، واختبأ فى الركن القصى على قمة المدفأة .. وقد فعل ذلك بسرعة خاطفة، بثت الفزع فى جميع الصراصير التى كانت هناك . والقى شيخ القرية بملعقته ، واندفع نحو «ايليشا» . ووضع دوتلوف فانوسـه ببطء ، وفك حزامه ، وهز رأسه ، وهو يصك لسـانه بسقف فمه محدثا صوتا ينم عن الاستنكار ، وسار الى «ايليشا» الذى كان قـد انهمك فى نضال ضد شيخ القرية واحـد اتباع صاحب الخـان ، وهما يردانه عن النافذة .

وكانا قد أمسكا بذراعيه ، ولاح أنهما قد سمراه فى مكانه .

ولكنه لم يكد يرى عمه والحزام فى يده ، حتى تضاعفت قواه عشر مرات ، وانتزع نفسه منهما ، وتقدم من دوتلوف وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما ، وقبضتاه مشدودتان ، وصاح : **« لسوف أقتلك ! .. ابتعد ، أيها الحيوان ! .. لقد قضيت على ، أنت وابناك الزنيمان ! لقد قضيتم على بالخراب ! .. لماذا حملونى على الزواج !.. ابتعد ! لسوف أقتلك !.. »** .

وكان ايليشا رهيبا فى هياجه ، فقد احتقن لون وجهه ، وراح انسانا عينيه يدوران فى محجريهما ، وأخذ جسده الشاب السليم يرتجف بأجمعه كالمحموم . وبدا كأنما كان يبغى أن يقتل الرجال الثلاثة الذين وقفوا فى وجهه ، وكان قادرا على قتلهم !

ـ انك تشرب دم أخيك ، يا مصاص الدماء !

وأومض بريق خاطف خلال وجه دوتلوف الدائم الرزانة ، وتقدم خطوة ، ثم قال فجأة : « انك تأبى أن تسكن فى سلام ! » .

وكان أعجب ما فى الامر هو : من أين جاء بتلك الطاقة ؟ .. **فقد أمسك بابن أخيه بحركة سريعة ، وألقى به على الارض ، وارتمى معه ، وأحكم وثاق يديه بحزامه ، بمعونة شيخ القرية ! وظلا يتصارعان زهاء خمس دقائق ، ثم نهض دوتلوف أخيرا ـ بمساعدة الفلاحين ـ وهو يجذب معطفه من قبضة ((ايليشا)).**

وما لبث أن أنهض « ايليشا » الذى أصبحت يداه مكتوفتين خلف ظهره ، واضطره الى أن يجلس على مقعد خشبى فى الركن .

وقال وهو لا يزال متهدج الانفاس ـ من جراء الصراع ـ وقد راح ينتزع من حول قميصه حزاما غير عريض : « لقد قلت لك أنك ستسىء الى نفسك !.. لماذا تأثم ؟ ان الموت مكتوب علينا جميعا ! » . ثم التفت الى اتباع صاحب الخان ، وقال : « اطووا معطفا ليتوسده ، والا فسوف يتصاعد الدم الى رأسه » . وراح يربط الحزام الضيق حول معطفه المصنوع من جلد الغنم ، ثم تناول الفانوس ، وخرج ليعنى بالجياد .

وراح ايليشا ـ وهو شاحب الوجه ، مشعث الشعر ، وقد

تهدل قميصه ـ يطوف ببصره فى الحجرة ، وكأنه يحاول أن يتذكر أين هو .. بينما انهمك اتباع صاحب الخان فى جمع شظايا الزجاج المهشم ، ثم دسوا فى الثغرة ـ التى خلفها فى النافذة ـ معطفا ، ليحولوا دون انسياب تيار الهواء القارس . وعاد شيخ القرية يجلس الى وعائه ، وهو يردد : « آه ، يا ايليشا ! يا ايليشا ! .. لكم أنا آسف من أجلك حقا ! .. أية حيلة لنا فى الامر ؟.. هاك خوريوشكين .. انه الآخر متزوج ! .. من الواضح أن لا حيلة لنا فى الامر ! »

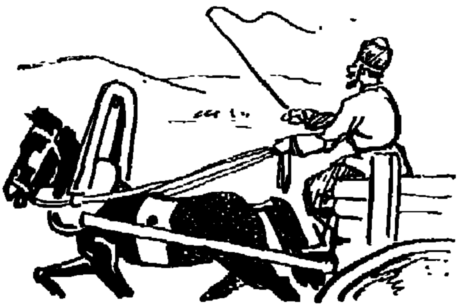
وعاد ايليشا يقول بصوت خشن ، ولهجة مشبعة بالسخط : « انما قضى على بالدمار ، من أجل ذلك الشرير عمى ، فحسب ! .. لقد كان كل حرصه منصبا على ابنه .. لقد قالت أمى أن وكيل الاعمال دعاه الى أن يدفع من أجل بديل عنى ، فأبى ، وقال انه لا يملك ما يدفع .. كأنما لا قيمة لكل ماجلبته وأخى على أسرته من خير !.. انه شرير !.»

* * *

ورجع دوتلوف الى الحجرة ، فأدى الصلاة أمام الايقونات ، وخلع ثيابه الخارجية عنه ، وجلس بجوار شيخ القرية ، فأحضرت الطاهية بعض الجعة ، وملعقة أخرى . وران السكون على ايليشا ، ورقد على المعطف المطوى ، وأغمض عينيه . فأشار شيخ القرية نحوه ، وأخذ يهز رأسه فى صمت . بينما لوح دوتلوف بيده قائلا : « **كأنما المرء غير آسف من أجله !.. انه ابن أخى ، من صلبى ودمى ! .. وكأنما الامور ليست بالغة السوء ، كما هو جلى ، فراق لهم أن يصورونى له وغدا شريرا ! .. ولعلها زوجته التى بثت فى رأسه أن بوسعنا أن ندفع من أجل بديل عنه ، فهى امرأة ضئيلة الجسم ، خبيثة ، رغم صغر سنها .. ومهما يكن ، فانه ينحو باللائمة على ! .. ولكن المرء يرثى للفتى ! ..** » . فعقب شيخ القرية قائلا : « آه !..

ويا له من فتى بديع ! »
ــ ولكن صبري بلغ مداه معه ! .. على انني سأمد له ! .. فغداً سيأتي « أجنات » ، وقد رغبت زوجة الفتى في أن تأتي معه هي الاخرى .

فقال شيخ القرية وهو يبارح مكانه ، ويصعد الى سطح المدفأة : « أحسنت صنعا . دعهما يأتيان ! .. الا ما أتفه المال ، انه عرض زائل ! » . فغمغم أحد اتباع صاحب الخان ، وهو يرفع رأسه : « لو كان لدى المرء مال لما ضن به .. منذا الذي يضن بالمال ؟ » . فرد عليه دوتلوف قائلا : « **آه ! المال ، المال !.. أنه سبب الخطايا ! لا شيء في الدنيا يسبب من الآثام أكثر مما يسبب هو .. وقد قال الكتاب المقدس ذلك !** » .
فقال العامل يقره على قوله : « كل شيء مثبت في الكتاب المقدس . لقد روى لي رجل كيف أن تاجرا اختزن كوما من المال ، ولم يشأ أن يخلف وراءه شيئا منه ، فقد بلغ من حبه للمال ، أن أراد أن يأخذه معه الى قبره . وعندما كان يحتضر ، طلب أن تدفن معه وسادة صغيرة . فلم يرتب أحد في الامر ، ودفنوها معه . ثم راح أبناؤه يبحثون عن ماله ، فلم يستطيعوا أن يعثروا على شيء منه . وأخيرا ، خطر لواحد منهم أن من المحتمل أن المال كان أوراق نقد وضعت كلها في الوسادة . وعرض الامر على القيصر ، فسمح بأن يفتح القبر . فماذا تظن أنه حدث ؟ .. لقد فتحوا التابوت ، وشقوا الوسادة فلم يجدوا فيها شيئا . ولكن التابوت كان مليئا بثعابين صغيرة ، ومن ثم فقد دفن ثانية .. أرأيت ما يفعل المال ؟ »
وقال دوتلوف وهو ينهض قائما : « هذه حقيقة واقعة ، فالمال يجلب كثيرا من الاثم ! » . وشرع يصلي . حتى إذا فرغ ، القى نظرة على ابن أخيه ، فاذا الشاب نائم .. وسار اليه دوتلوف ففك الحزام الذي كان يوثق يديه ، ثم رقد هو الآخر . وخرج فلاح من الحجرة ، لينام مع الخيل !



(٩) مفاجأة فى نهاية الطريق !

• ما أن سيطر السكون على كل شيء ، حتى هبط بوليكى عن المدفأة متسللا فى رفق، وكأنه مجرم ، وشرع يتأهب للرحيل. فقد شعر ـ لسبب ما ـ بعدم ارتياح لمجرد التفكير فى قضاء الليل فى الخان ، مع المجندين . وكانت الديكة قد بدأت تكثر من التصايح ، ينادى بعضها بعضا . كما كان « الطبل » قد أتى على كل الشوفان الذى قدم اليه ، وشرع يمد عنقه الى دلو الماء . فأسرجه بوليكى ، وقاده ـ خلال عربات الفلاحين ـ الى الخارج .. وكانت قلنسوته سليمة بمحتوياتها ، فسرعان ما راحت عجلات العربة تدرج على الارض المكسوة بالصقيع ، ميممة شطر (بوكروفسكى) .

ولم يشعر بوليكى بطمأنينته الا حين خلف المدينة وراءه . فقد ظل ـ حتى بارحها ـ يتصور انه لن يلبث أن يسمع أصواتا تنم عن أنهم يطاردونه فى أية لحظة ، وانهم لن يلبثوا أن يستوقفوه ، وأن يوثقوا كتافه ـ بدلا من ايليشا ـ ثم يأخذوه الى مركز التجنيد فى صباح اليوم التالى .. وكان ثمة شيء ـ لعله الصقيع ، أو لربما كان الخوف ـ يرسل قشعريرات باردة تسرى فى ظهره ، فراح يلهب « الطبل » مرة بعد أخرى ، يستحثه على الاسراع .. وكان أول من صادفه قسا ارتدى

قلنسوة طويلة من الفراء ، يصحبه عامل أعور . فتشاءم « بوليكى » من هذا الاخير ، واشتد جزعه ، فازداد انطلاقا ، ولكنه عاد يطامن من خوفه تدريجا ، عندما بارح المدينة ، حتى تبدد الخوف أخيرا .. وخفف « الطبل » من ركضه ، وقد ازدادت الطريق وضوحا أمامه .. وخلع « بوليكى » قلنسوته ، فتحسس الاوراق المالية ، وقال لنفسه : « هل أخبئها فى صدرى ؟ .. لا ، فقد اضطر الى أن أفك حزامى .. مهلا ! فلأهبط عندما أبلغ أسفل التل ، وأسوى من حالى .. **ان القرص الاعلى قد حيك بعناية واحكام ، ومن ثم فلا سبيل الى أن ينزلق المظروف خلال طبقات النسيج .. وخير لى — على أية حال — أن لا أخلع القلنسوة حتى أبلغ البيت ! »**

ولما بلغ أسفل التل ، واستقبل أمامه التل الذى يليه ، ركض « الطبل » من تلقاء نفسه صاعدا اياه ، فلم يحاول « بوليكى » أن يكبح جماحه ، اذ كان مشوقا مثله الى العودة الى الدار .. وكان كل شىء على ما يرتجى ، أو هكذا تصور « بوليكى » — على الاقل — فأسلم نفسه للأحلام ، متخيلا ما سوف تبديه السيدة من عرفان ، متصورا الروبلات الخمسة التى ستمنحه اياها ، والفرح الذى سيطغى على أسرته ! .. وخلع القلنسوة ، فتحسس المظروف وابتسم ، ثم ردها الى رأسه وأحكم وضعها . وكانت المقدمة المخملية للقلنسوة بالية ، ونظرا لان « أكولينا » كانت قد رتقت فتوقها رتقا محكما فى أحد جوانبها ، فانها لم تلبث أن تفسخت من جانب آخر .. **واذا الحركة التى ظن « بوليكى » فى وهن الفجر الوليد أنها دفعت المظروف الى جوف طبقات القلنسوة ، تزيد من تمزق الجانب المتفسخ ، وتدفع ركنا من المظروف الى الخارج ، خلال المقدمة المخملية .**

وبدأ الفجر يسفر النقاب ، فشرع النعاس يداعب أجفان « بوليكى » الذى لم يكن قد نام فى ليلته .. وفى نعاسه شد

القلنسوة لتزداد التصاقا براسه ـ فازداد بذلك بروز المظروف الى الخارج ـ وارتطم راسه بمقدم المركبة . واستسلم للنعاس ، فلم يستيقظ الا وقد اقترب من القرية . وهم بأن يفحص قلنسوته ، ولكنه أحس بأنها محكمة الوضع فوق راسه ، فلم ير داعيا لرفعها ، مطمئنا الى أن المظروف بداخلها . ومس « الطبل » بسوطه ، ونسق القش الذى كان يكسو أرض العربة ، وعاد يتخذ مظهر الفلاح الموسر ، ويتلفت حوله فى خيلاء ، والعربة تدرج نحو القرية !

وتراءى له مطبخ الدار ، و« الاركان » التى يسكنها الرقيق .. ولاحت له زوجة النجار وهى تحمل الغسيل ، ثم تبين مكتب ادارة الضيعة ، ومسكن السيدة .. **المسكن الذى لن يلبث أن يبرهن فيه على أنه رجل امين ، أهل للثقة .. لسوف يقول للسيدة : « بوسع كل امرىء أن يتقول على أى شخص كما يحلو له ! » .. وسترد السيدة قائلة : « لابأس يا بوليكى ! .. هاك ثلاثة (أو ربما خمسة ، بل عشرة) روبلات ! » . وستأمر بتقديم الشاى اليه ، بل ربما أمرت بتقديم بعض الفودكا !** .. ولن يكون هذا بالامر المستغرب ، بعد الوقت الذى قضاه فى البرد ! .. ومضى بوليكى يحدث نفسه : « بعشرة روبلات نستطيع أن ننعم غدا بعيد طيب ، وأن نبتاع أحذية ، ونرد الى نيكيتا روبلاته الاربعة والنصف .. اذ لا حيلة فى ذلك ، فهو قد بدأ يضايقنا بالمطالبة ... »

وعندما أصبح على حوالى مائة خطوة من الدار ، احكم لف معطفه حول جسمه ، وسوى من وضع حزامه وياقته ، وخلع قلنسوته فسوى شعره ، ودس يده تحت بطانة القلنسوة ، غير متعجل .. وأخذت اليد تعبث وتبحث داخل البطانة ، واشتدت سرعة أصابعها .. ثم انضمت اليها اليد الاخرى ، بينما أخذ وجه « بوليكى » يزداد شحوبا فوق شحوب . ودخلت احدى اليدين فى جوف القلنسوة بأكملها . ثم هوى

« بوليكى » على ركبتيه ، واستوقف الجواد ، وراح يبحث فى العربة ، منقبا بين القش ، وبين الاشياء التى كان قد ابتاعها .. متحسسا معطفه وسرواله .

ولكن .. لم يكن ثمة أثر للنقود !

وشرع يزأر ، وهو يشد شعره : « يا للسماوات ! ما معنى هذا ؟ .. ما الذى سيحدث الآن ؟ » .. ثم فطن الى أنه قد يشاهد ، فحول وجه الجواد نحو الطريق الذى أتى خلاله ، وأحكم قلنسوته على رأسه ، ثم ساق « الطبــل » عائدا من حيث أتى ، والجواد مشدوه مستنكر ، ولا بد أنه كان يقــول لنفسه : « ليس بوسعى أن أخرج ثانية مع بوليكى .. لقــد عنى باطعامى وسقايتى أتم عناية ، لمرة واحدة فى حياته ، ثم لم أحظ منه بغير الخداع الذى لا يسر النفس !.. لكم أجهدت نفسى فى الجرى أثناء العودة ، حتى اشتد بى التعب ! .. ومع ذلك ، فاننى لم أكد أصبح على قيد خطوات من العلف ، حتى شرع يسوقنى راجعا بى ! »

أما بوليكى ، فقد راح يصيح فيه ، خلال الدموع : « هيــا أيها الحصان المنهوك القوى ! » . ووقف منتصــبا فى العربة ، يشد عنان « الطبل » فى عنف ، وينهال عليه ضربا بالسوط !

(١٠) بوليكى ! .. أين بوليكى ؟

• لم ير أحــد « بوليــكى » فى (بوكروفسك) طيلة ذلك اليوم . وقد سألت السيدة عنه مرارا بعد الغداء ، واندفعت « اكسيوتكا » كالاعصار الى « اكولينا » ، ولكن « اكولينا » قالت انه لم يعد بعد ، لعل التاجر الذى كان يبتــاع خضر البستان قد عطله عن العودة ، أو لعل شيئا قد جرى للحصان .. واردفت قائلة : « ليته لم يصب بالعرج ! .. لقــد قضى « مكسيم » يوما بأكمله فى الطريق ــ عندما ذهب به فى المرة



السالفة ـ واضطر الى أنيقطع المسافة كلها عـلى قدميه ، فى العـودة ! »

ولتها « اكسيوتكا » ظهرها ، وعادتوهى تحرك بندوليها، بينما أخذت « اكولينا » فى ابتكار الاعذار التى تبرر غيـاب زوجها ، لتطامن من هواجس نفسها . ولكن ، دون جدوى ! .. كان قلبها مثقلا ، ولم تقو على أن تعمل بنفس راضـية فيما كانت تتخذه من استعدادات للعيد الذى كان مرتقبا فى اليوم التالى . **وضاعف من المها أن زوجة النجار راحت تؤكد لها أنها رأت بعينيها ((رجلا يشبه بوليكى تماما ، مقبـلا فى عربة ، ثم ولى راجعا))** .. كذلك راح الاطفال يرتقبون «بابا» فى لهفة وصبر نافذ ، وان اختلف حافزهم عن الحافز الذى كان يثير قلق أمهم . فان غيابه حرم « آنى » و « مارى » من جلد الغنم ومن السترة الثقيلة ، وهما اللذان كانا يمكنانهمـا من أن يقوما بجولات خارج البيت ، فلم تعودا تملكان سـوى أن تجريا فى دورات سريعة قصيرة ، حول البيت . ولم تكن المضايقات ـ التى ترتبت على ذلك ـ قليلة ، بالنسبة لجميـع من كانوا يقطنون مساكن الرقيق . ولقد ارتطمت « مارى » مرة ـ وهى تجرى ـ بساقى زوجة النجار التى كانت تحمل ماء بين يديها .. ومع أنها بدأت تعول مستبقة العقاب ـ بمجرد أن اصطدمت بركبتى المرأة ـ الا أن هذا لم يعفها من الضرب

وجذب الشعر ، مما جعلها تزداد صراخا .. أما اذا لم ترتطم بأحد ، فانها كانت تندفع من الخارج مارقة خلال الباب ، وتبادر الى اعتلاء وعاء لترقى الى قمة الفرن !

ولم يكن ثمة من راح يعانى القلق حقا — من أجل بوليكي — سوى السيدة و ((أكولينا)) .. أمة الأطفال ، فلم يكن يشغلهم سوى ما كان عليه من ثياب !

ولم تكن السيدة تكف عن سؤال ايجور ميخايلوفيتش : « ألم يحضر بوليكى بعد ؟ » .. أو : « ترى أين يحتمل أن يكون ؟ » . فكان يجيبها وكأنه مغتبط لان ماتوقعه قد تحقق : « لست أدرى » .. ثم كان يضيف فى لهجة ذات معنى : « كان الواجب أن يكون هنا حوالى الظهر ! »

* * *

لم يسمع احد شيئا عن « بوليكى » طيلة اليوم ، اللهم الا ما عرف — فى أواخر النهار — من أن بعض فلاحى المناطق المجاورة ، قد رأوه يجرى فى الطريق عارى الرأس ، يسأل كل من كان يصادفه عما اذا كان قد عثر على خطاب ما . **ورآه رجل راقدا على حافة الطريق بجوار عربة ربط جوادها الى شجرة . وقال الرجل : ((لقد حسبته سكرانا . وكان الجواد يبدو وكأنه لم يذق الماء ولا الطعام منذ يومين ، اذ كان جنباه منهدلين !))**

ولم تنم « أكولينا » الليل طوله ، بل ظلت ساهرة ، مرهفة السمع . ولكن « بوليكى » لم يعد . ولو أنها كانت بمفردها ، أو لو أنها أوتيت طاهية أو خادمة ، لشعرت بمزيد من التعاسة ، ولكن أولادها كانوا يلهونها أحيانا عن هواجسها . وما أن صاحت الديكة ، واستيقظت زوجة النجار ، حتى اضطرت « اكولينا » الى النهوض ، والى اشعال النار ، فقد كان اليوم عيدا .. وكان لا بد من انضاج الخبز واخراجه من الفرن

قبل ان يطلع النهار ، وكان لا بد من اعداد الجعة ، ومن خبز الفطائر ، ومن حلب البقرة ، ومن كى الثياب والاقمشة ، ومن تنظيف الاطفال ، ومن اجتلاب الماء الى «الركن» ، ومن الحيلولة دون أن تنفرد جارتها بالفرن كله .. ومن ثم شرعت «أكولينا» فى العمل ، وهى لا تزال ترهف سمعها .. ولكن النهار ازداد ضياء ، وأخذت أجراس الكنيسة تدق ، واستيقظ الاطفال .. ولم يعد بوليكى بعد !

وكانت بوادر الصقيع قد اكتنفت اليوم السابق ، وتساقط بعض الجليد وتراكم فى أكوام صغيرة فى الحقول ، وعلى الطريق واسقف الدور . ولكن الجـو كان بديعـا ومشمسا ، رغم الصقيع ، فى ذلك اليوم . وكأنما كانت الطبيعة تمجد العيـد .. وفى هذا الجو الصحو ، كان بوسع المرء أن يمد بصره فيرى على مسافة بعيدة ، ويسمع الاصوات عن بعد . **ولكن «أكولينا» ـ التى كانت تقف بجوار الفرن ـ راحت تدفع رأسها خـلال الباب ، وهى منهمكة فى اعداد الفطائر .. ومع ذلك فانها لم تسمع بوليكى ـ وهو يصل بالعربة ـ وانما عرفت من صيحات الاطفال أن زوجها قد عاد**

كانت « آنى » قد ضمخت شعرها بالزيت ، وتهيأت دون معونة أحد ، بوصفها الابنة الكبرى . وكانت ترتدى ثوبا من قماش منقوش ، جديدا ولكن المكواة لم تسر عليـه .. منحـة من السيدة . وكان مشدودا وكأنه مصنوع من الياف الشجر . مما غبطها عليه الجيران . واخذ شعر الصبية يلمع ، اذ كانت قد أذابت لتضميخه نصف بوصة من شحم الشموع . بينما غابت قدماها فى حذاءين رفيعين ، وأن لم يكونا جديدين .. أما « مارى » فكانت لا تزال ملتفة فى سـترة قديمة ، وقـد تلطخت بالوحل ، فلم تدعها « آنى » تدنو منها خشـية أن يتسخ ثوبها . ومن ثم فقد مكثت « مارى » خارج الركن ، فرأت اباها وهو يقبل فى العربة ، ومعه كيس كبير . وصرخت :

« بابا جاء ! » ، واندفعت خلال الباب الى الخارج ، مارة بآني ـ التى خفت لترى ما جعل أختها تصرخ ـ ملطخة لها ثوبها . ولم تعد « آنى » تحفل بالحيطة ، بعد أن اتسخ الثوب ، فانقضت عليها وضربتها . ولم يكن بوسع « أكولينا » أن تبرح مكانها ، فلم تملك سوى أن صاحت فى البنتين : « وبعد ؟ .. لسوف أسوطكما معا ! » . **والتفتت نحو الباب، فاذا بوليكى يدخل من الباب الخارجى ، حاملا كيسا ، فيسير الى «ركنه» مباشرة . ولاح لاكولينا أنه كان شاحبا ، وبدا لها من وجهه أنه اما كان يبتسم ، واما كان يبكى .. ولكنها لم تجد وقتا كى تكتشف أى الحالين كانت حاله .**

وصاحت تسأله ، وهى فى مكانها امام الفرن : « أكل شىء على ما يرام يا بوليكى ؟ » . فمغمغم بوليكى بكلمات لم تستبنها .. وعادت تصيح : « اه ؟ .. هل ذهبت الى السيدة ؟ » . وجلس بوليكى على السرير فى ركنه ، يتأمل ما حوله بنظرات طائشة ، وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الذنب .. ابتسامة تعسة ، مفرطة التعاسة . وتناهى اليه صوت أكولينا ، تتساءل : « ماذا يا بوليكى ؟ .. لماذا أطلت الغياب ؟ » . فقال فجأة : « أجل يا أكولينا ، لقد أسلمت السيدة نقودها .. وكم شكرتنى ! » . وشرع يتلفت حوله ، وقد ازداد ما شاب ابتسامته من قلق وارتباك .

شيئان اجتذبا نظراته المحمومة : الطفل الرضيع ، والحبال التى كانت مدلاة من المهد المعلق . ونهض فسار الى حيث كان المهد معلقا ، وشرع يفك بعجلة عقدة حبل منها ، بأصابعه النحيلة . ثم استقرت عيناه على الرضيع . ولكن « أكولينا » دخلت فى تلك اللحظة ، حاملة صحفة الفطائر ، فأسرع بوليكى الى اخفاء الحبل فى صدره ، وجلس على السرير .

وتساءلت أكولينا : « ماذا بك يا بوليكى ؟ .. انك لست فى حالك الطبيعية ؟ » . فأجابها : « لم أنم ! » . وفجأة ، مرق

شيء بجوار النافذة . وان هي الا لحظة حتى اندفعت «اكسيوتكا» ـ الخادم التي من « فوق » ـ كالسهم . وقالت : « السيدة تأمر بوليكي بأن يأتي في هذه اللحظة .. هـــذه اللحظة .. افدوشيا نيكولابيفنا تقول : هذه اللحظة ! » . فنظر بوليكي الى « اكولينا » ، ثم الى الفتاة ، وقال : « ها أنذا قادم . ترى ما الذي تريد ؟ » . قالها ببساطة ، فهدأت وساوس أكولينا . ثم استطرد : « لعلها تريد أن تكافئني .. قولي لها انني قادم ! »

ونهض فخرج . وتناولت « اكولينا » وعاء الاســـتحمام فوضعته على مقعد خشبي ، وملأته بالماء من الدلاء التي كانت الى جوار الباب ، ومن المرجل الذي كان في الفرن ، ثم شمرت عن ساعديها ، ولمست الماء لتتعرف مدى حرارته . وقالت : « تعالي يا ماري ، سأغسل لك جسمك ! » . فشرعت البنية الصغيرة ـ الحولاء اللثغاء ـ في الانتحاب . وصاحت أكولينا : « تعالي أيتها الشريرة ! سأغسل لك جســـمك ، فلا تثيري ضجة ولا ضوضاء .. هيا ، فلا يزال أمامي أن أنظف أخاك ! »

* * *

في تلك الاثناء ، لم يكن « بوليكي » قد تبع الخادم الموفدة من « فـــوق » ، وانما سعى الى مـــكان آخر .. فالى جانب الجدار ـ في الردهة ـ كان ثمة سلم يفضي الى الفراغ الذي تحت السقف مباشرة . **فلما بارح « بوليكي » مسكنه ، تلفت حوله ، حتى اذا لم ير أحدا ، أحنى ظهره ، وتسلق ذلك السلم بعجلة ، وخفة ، فكأنه كان يجري فوقه .**

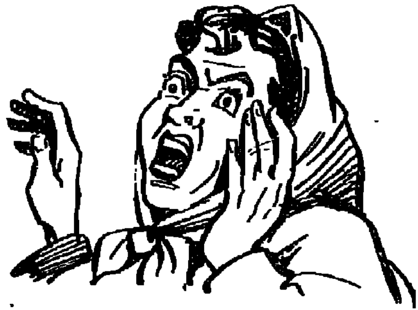
وتساءلت السيدة في صـــبر نافذ ، موجهـــة الخطاب الى « دنياشا » التي كانت ترجل لها شعرها وتنسقه : « ترى ما الذي جعل بوليكي لا يأتي حتى الآن ؟ .. اين بوليكي ؟ لماذا لم يأت ؟ » .. ومرة أخرى ، انسابت « اكسيوتكا » الى مساكن الرقيـــق ، واندفعت داخلة ، وهي تنـــادي بوليكي كي يوافي

مولاتها . فردت أكولينا التي كانت قد فرغت من « ماري » ؛ ووضعت ابنها الرضيع لتوها في حوض الغسيل ، وبدأت تبلل شعره الخفيف القصير ، غير حافلة ببكائه : « عجبا .. لقد ذهب منذ فترة طويلة » . وصرخ الطفل ، وتقلصت عضلات وجهه ، وراح يحاول أن يتشبث بشيء ما ، بيديه الصغيرتين الواهنتين . فوضعت أكولينا احدى يديها تحت ظهره الناعم ، البض ، الطري ، وراحت بالاخرى تغسل جسمه ، وهي تقول متلفتة في قلق : « ابحثي عنه خشية أن يكون قد استسلم للنوم في مكان ما ! »

وفي تلك اللحظة ، كانت زوجة النجار قد صعدت ـ مشعثة الشعر ، دون أن تحكم ضم أطراف ازارها ، الذي رفعت ذيله عن الارض بيدها ـ الى الفراغ الذي يلي السقف مباشرة ، حيث كانت قد علقت بعض الثياب لتجف . **وفجأة ، ملأت ذلك الفراغ صرخة ذعر ، وهبطت زوجة النجار كالمخبولة ، وقد أغمضت عينيها ، وكادت لفرط اسراعها تنزلق على السلم انزلاقا .. وصرخت : « بوليكي ! » .. وافلتت أكولينا طفلها من بين يديها ، بينما راحت زوجة النجار تصرخ : « لقد شنق نفسه ! »**

واندفعت أكولينا الى الردهة ، غير حافلة بالرضيع الذي تقلب في الحوض ، ثم وقع وساقاه في الهواء ، ورأسه تحت الماء ! .. وكانت زوجة النجار تقول : « انه مدلى .. من احدى العارضات الخشبية ! » . ولكنها أمسكت حين رأت « أكولينا » .

واندفعت « أكولينا » صاعدة السلم . وقبل أن يمسك بها أحد ، كانت قد بلغت قمته . ولكنها سرعان ما هوت من هناك ، وقد أرسلت صرخة رهيبة ، ولولا أن تلقفها القوم الذين أقبلوا مهرعين من كل ركن ، لكانت قد لقيت حتفها !



(١١) ضحكات فى « ركن » بوليكى !

• لم يكن من سبيل الى تمييز شىء خلال الضجيج العام ، لعدة دقائق . فقد تجمع حشـــد من القوم راحوا يصرخون ويتكلمون ، وأخـــذ الاطفال والعجائز يبـكون . بينمـــا كانت اكولينا مستلقية فاقدة الرشد . وأخيرا ، صعد رجلان ــ النجار ووكيل الاعمال ، الذى كان قدهرع الى المكان ــ درجات السلم . وشرعت زوجة النجار تروى ــ للمرة العشرين ــ كيف أنها لم تكن ترتاب فى شىء ، اذ صعدت لتحضر ثوبا لهـــا .. « ونظرت حولى هكذا .. ورأيت .. رجلا ! ونظرت مرة أخرى .. كانت ساقاه متدليتين . وتثلج كل جسمى ! .. أفهو أمر بديع ؟ تصوروا رجلا شنق نفســـه ، وتصوروا أن أكون أنا التى قدر لها أن تراه ! .. أما كيف هبطت مسرعة ، فهذا ما لست أذكره ! .. انها لمعجزة أن صان الله حياتى ! الحق أن الرب كان رحيما بى ! .. أهو أمر هين ؟ أن أقفز من مكان على مثل هذا الارتفاع . كنت خليقة بأن أهوى قتيلة ! »

وأقبل الرجلان اللذان صـــعدا السلم ، بعين القصـــة .. **كان بوليكى مدلى من احدى العارضات ، بالحبل الذى أخذه من المهد ، وهو فى قميصه وسرواله . وكانت قلنسوته مقلوبة ، باطنها الى الخارج ، وملقاة بجواره .. بينما كان معطفه وجلد**

الغنم مطويين فى تناسق وعناية ، على مقربة . وكانت قدماه تمسان الارض ، ولكن أى أثر للحياة لم يكن يبدو عليه . واستردت أكولينا وعيها ؛ فعادت تندفع نحو السلم ، ولكنها صدت عنه . وفجأة ، صاحت الصبية اللثغاء من « الركن » : « ماما .. لقد غلق (أى غرق) سيمكا ! » . وانتزعت أكولينا نفسها من أيدى الممسكين بها ، وجرت الى « الركن » .. كان الطفل ملقى على ظهره فى الحوض ، لا يحير حراكا ، وقد جمد ساقاه عن كل حركة . فانتزعته أكولينا من الحوض ، ولكنه لم يتنفس ، ولم يتحرك .. **والقته على السرير ، وانطلقت ــ وهى معقودة الذراعين على صدرها ــ بضحك مرتفع ، ثاقب ، رهيب .. حتى أن « مارى » ــ التى ضحكت هى الاخرى ، فى بادىء الامر ــ غطت أذنيها بكفيها ، وهرعت خارجة الى الردهة ، وهى تصرخ باكية !**

وتقاطر الجيران على « الركن » معولين باكين ، فحملوا الطفل الى الخارج ، وبدأوا يدلكون جسمه ، ولكن .. دون جدوى . وكانت « أكولينا » تتقلب على الفراش وهى تضحك .. تضحك بشكل بث الذعر فى نفوس كل من سمعوها ! .. وما كان المرء ليتبين عدد المقيمين فى مساكن العبيد ، ولا أى نوع من الناس هم ، الا فى مثل هذه الآونة ؛ وقد تزاحم الرجال والنساء .. كانوا جميعا فى هرج ، يتكلمون فى وقت واحد ، وكثير منهم راحوا يبكون ، ولكن أحدا لم يقم بعمل يناسب الموقف .. وكانت زوجة النجار لا تزال تجد اناسا لم يسمعوا قصتها عن الصدمة التى أصابت مشاعرها الرقيقة ، عندما وقع بصرها على المشهد غير المرتقب ، وكيف حفظها الله فلم تقع من قمة السلم .. وراح كهل القى على كتفيه سترة امرأة ــ وقد كان يوما خادما خاصا للسيد ــ يروى كيف أن امرأة أغرقت نفسها فى بركة ماء ، ذات يوم ، فى عهد السيد السابق .. وأوفد وكيل الاعمال رسلا الى القس والى « كونستابل »

البوليس ، كما أقام رجالا على حراســـة الجثـــة .. **وظلت « أكسيوتكا » ـ الخادم التى من « فوق » ـ تحملق فى الفتحة المفضية الى الفراغ الذى يلى السقف ، بعينين جامدتين ، دون أن ترى شـــيئا ، ودون أن تقوى ـ كذلك ـ على أن تنتزع نفســـها من موقفها ، وتعود الى مولاتها** .. وكانت « أجاثا ميخايلوفنا » ـ التى كانت وصيفة لصاحبة الضيعة السابقة ـ تبكى وتطلب بعض الشاى لتهدىء أعصابها ! .. أما « آنا » القابلة (الداية) فكانت ترقد جثة الطفل الصغير على المائدة ، وقد نضحت يديها البضتين ، المدربتين ، بزيت الزيتون . بينما وقفت نسوة أخريات حول « أكولينا » يحملقن فيها صامتات !

وانكمشت البنات الصغيرات معا فى الركن، ورحن يسترقن النظر الى أمهن ، ثم انطلقن فى العــويل . وما لبثن أن هدأن لحظة ، ونظرن الى أمهن ، ثم ازددن انكماشا وتماسكا .. وانتشر الرجال والغلمان خارج المبنى ، وهم ينظــرون الى الباب والنوافذ ، وقد تجلى الذعر على أساريرهم ، وأن لم يستطيعوا أن يروا أو يدركوا شيئا ، فراح كل منهم يســـأل الآخر عما جرى ! .. **فقال واحد أن النجار اجتث قدم زوجته ببلطة .. وقال آخر أن الغسالة قد حملت الى فراشها ، حيث وضعت ثلاثة توائم .. وقال ثالث أن قط الطاهية قد أصيب بلوثة فعض عددا من الناس** . على ان الحقيقة لم تلبث أن ذاعت تدريجا ، حتى صعدت ـ فى النهاية ـ الى سيدة الضيعة . ولاح أن أحدا لم يكن يدرك كيف يعلنها اليها . ولكن «ايجور» الجلف فاجأها بالحقائق مباشرة ، فاضطربت أعصاب السيدة ، وانقضت فترة طويلة قبل أن تسترد جأشـــها . وكان القوم المتجمعون فى أسفل الدار قد بدأوا يهدأون ، وأشعلت زوجة النجار النار تحت الغلاية ، لتعد بعض الشاى ، فلما لم توجه دعوة الى الذين لم يكونوا من المقيمين فى مســـاكن الرقيق ،

انصرفوا وقد رأوا أن ليس من اللياقة أن يبقوا . واخذ الغلمان يتصارعون خارج المبنى .

* * *

وكان كل امرىء قد عرف جلية الامر ، فراحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم ، وينفضون ، حين دوت فجأة صرخة عالية : « السيدة ! .. السيدة ! » . وتزاحم كل من في الحشد ، ليفسحوا لسيدة الضيعة طريقا ، وان راح كل منهم — في الوقت ذاته — يحاول أن يرى ما هى فاعلة .. **وولجت السيدة الردهة بوجه شاحب لطخته الدموع ، فاجتازت عتبة « ركن » أكولينا ، ودخلت عليها ..** وتلاصقت عشرات الرؤوس وتزاحمت لتنظر خلال الباب . واشتد الضغط على امرأة حبلى ، حتى اضطرت الى أن تطلق صرخة عالية ، ولكنها انتهزت هذا الظرف ، لتظفر لنفسها بمكان أمين فى الصف الاول .. وكيف كان لاحد أن يتمالك نفسه من الرغبة فى أن يرى سيدة الضيعة فى « ركن » أكولينا ؟ .. كان الامر — بالنسبة لرقيق الدار — أشبه بالاضواء الملونة التى تنار فى نهاية أى استعراض ! .. وكما أن اشعال نيران ملونة عمل عظيم ، يشير الى مناسبة جليلة ، فكذلك كان وجود سيدة الضيعة — فى ثيابها الحريرية الموشاة بالدانتيلا — فى « ركن » اكولينا !

وتقدمت السيدة ، فأمسكت يد « اكولينا » ، ولكن أكولينا جذبت يدها من قبضتها ، فهز العبيد المسنون رؤوسهم فى استهجان ، بينما قالت السيدة : « أكولينا ! .. ان أولادك بحاجة اليك ، فاحرصى على نفسك » . ولكن « أكولينا » انفجرت مقهقهة ، ونهضت قائلة : « ان أولادى كلهم من الفضة ، الفضة الخالصة ! .. فلست احتفظ بنقود ورقية !» . ثم تمتمت فى عجلة جعلت الكلمات تتلاحق وتندغم : « انني

قالت ابوليكى : « لا تأخذ نقودا ورقيـة ! » .. وها هى ذى النتيجة .. لقد لطخته بالقار .. بالقار والصابون يا سيدتى! .. فان القار والصابون يخلصانك من أى جرب يلحق بك ، فى الحال ! » . وازدادت قهقهتها ارتفاعا !

وتحولت السيدة عنها ، فأمرت باستدعاء مساعد الطبيب فورا ، وبأن يحضر معه لاصقات (لبخات) من الخردل . وقالت : « احضروا بعض الماء البارد ! » . وشرعت بنفسها تبحث عنه ، ولكنها أشباحت فجأة ، اذ رأت الطفل الميت مع القابلة العجوز « آنا » . ورأى الجميع كيف أخفت وجهها فى منديلها ، وانفجرت باكية .. ومما يؤسف له أن السيدة لم تر ما كانت الجدة « آنا » تفعل، فانها كانت قمينة بأن تقدره ، لا سيما وأنه كان من أجل خاطرها هى .. فقد غطت الطفل بقطعة من الكتان ، وبسطت ذراعيه بيديها الطريتين المدربتين، وهزت رأسه ، وعبست ، ثم أرخت جفنيه على عينيه ، وتنهدت وقد شعرت بأن كل امرىء رأى ــ فى عملها ــ مــدى طيبة قلبها ! . **ولكن السيدة لم تر شيئا من هذا ، لانها لم تقو على أن ترى أى شىء على الاطلاق . فقد راحت تبكى فى نشـيج هيستيرى !**

وأسرعت الايدى تعينها على الوقوف والسير ، واقتيدت الى خارج المكان ، ثم الى دارها . وقال كثيرون لانفسهم : « أهذا كل ما يرى منها ؟ » . ثم عادوا ينفضون ويتفرقون . وظلت « أكولينا » سادرة فى ضحكها وهذيانها . وما لبثت أن نقلت الى حجرة أخرى ، حيث حجمت ليسيل الدم المفسود من رأسها ، ثم كسيت الجراح بلصقات الخردل ، ووضع ثلج على رأسها . ومع ذلك فانها لم تثب الى رشدها ، ولم تبك ، بل ظلت تضحك وتأتى من الافعال والاقوال ما لم يتمالك معه أهل الرحمة ــ الذين عنوا بها ــ أنفسهم من أن يضحكوا هم الآخرون !



(١٢) ليلة رهيبة فى الضيعة !

• لم يكن العيد بهيجا فى (بوكروفسك) . ومع أن اليوم كان جميلا ، الا أن القوم لم يخرجوا للهو والنزهة ، ولم تردد الفتيات الاغانى فى الشارع ، ولم يعزف عمال المصنع ــ الذين أقبلوا من المدينــــة ليقضــــوا ذلك اليوم بين أهلهم ــ على « الكونسرتينا » ولا على « البلاليكا » (١) ، لا ولم يلعبوا مع الفتيات . وانما جلسوا جميعا فى الاركان واجمين، فاذا تكلموا كان حديثهم خافتا ، وكأنما هناك روح شريرة تتصنت أقوالهم . **ولم يكن الامر بالغ السوء ابان النهار ، ولكن .. ما آن هبط الليل ، وشرعت الكلاب تعوى ــ وقد زاد الامر سوءا أن هبت ريح راحت تولول خلال المداخن ــ حتى تملك القوم جميعا خوف طاغ ، دفع الذين كانوا يملكون شموعا الى أن يشعلوها أمام ايقوناتهم . واضطر كل من تصادف أن كان وحيدا فى ((ركنه)) الى أن يسعى الى جيرانه يسألهم الاذن ليمكث الليل معهم ، ليتخفف من الوحشة ..** وأى امرىء كان عمله يقتضيه ان يذهب الى الحظائر ، أبى أن يخرج ، وآثر أن يدع الماشية بلا علف ــ فى تلك الليلة ــ غير مشفق عليها .. كما أن الماء المقدس ــ الذى كان كل امرىء يمتلك زجاجة صغيرة منه لطرد كل سوء ، استهلك عن آخره خلال الليل !

---

(١) الكونسرتينا والبلاليكا من الآلات الموسيقية الشائعة فى روسيا

ومع ذلك فما أكثر من سمعوا شيئا يسير فى الفراغ ــ الذى يلى السقف مباشرة ــ بخطي ثقيلة .. وشاهد الحداد ثعبانا يطير نحو هذا المكان مباشرة ! .. أما « ركن » بوليكى فلم يكن يعمره أحد ، فقد نقل الاطفال والمرأة المجنونة الى مكان آخر. ولم يبق سوى جثمان الطفل الميت راقدا هناك ، وقد جلست عجوزان ســاهرتين عليــه ، بينما كانت امرأة ثالثــة .. « حاجة » (١) تتلو المزامير ، مدفوعة بحرارة تقواها ، لا من أجل الطفل ، وانما بشعور مبهم بالنكبة التى حاقت بالجميع .. فهكذا ارادت سيدة الضيعة . **ولقد سمعت ((الحاجة)) والمرأتان العجوزان ،كيف أن عارضات السقف الخشبية كانت تهتز ، كما كان ينبعث أنين متوجع ، كلما انتهين من كل فقرة من كتاب ((المزامير)) . وإذ ذاك كن يهتفن : ((ليقم الرب !)) ، فاذا بكل شيء يهدأ من جديد .**

ودعت زوجة النجار صديقة لها ، فلم تناما ليلتهما طولها ، بل شربتا كل الشاى الذى كانت قد أعدته للأسبوع كله . وسمعتا ــ هما الاخريان ــ كيف أن العارضــات كانت تئز فوق رأسيهما ، كما سمعتا جلبة وكأن أكياسا كانت تتساقط تبــاعا . ولقد اعان وجود الحراس الفلاحين على استبقــاء شجاعة أهل مساكن الرقيق بعض الشيء ، والا لكانوا قد ماتوا خوفا فى ذلك الليل ... وكان الفلاحون ينامون على بعض القش فى الردهة ، وقد ذكروا ــ فيما بعد ــ أنهم سمعوا هم الآخرون أمورا عجيبة فى الفراغ الذى يلى السقف ، وان كانوا ــ اذ ذاك ــ يتحادثون فى هدوء تام عن التجنيد ، ويمضغون لقما من الخبز ، ويحكون اجسادهم ، و ــ فوق كل شيء ــ يملأون الردهة برائحة غثة عرفت عن الفلاحين ، حتى أن زوجة النجار لم تتمالك أن بصقت ــ إذ تصادف أن مرت بالقرب

---

(١) « الحاجة » امرأة تصطنع اللوثة الدينية ، فتعتبر من الأولياء ،وتسمى « حاجة » ، ولو لم تكن قد زارت الأراضى المقدسة

منهم – ونعتتهم بأنهم « فروخ الفلاحين » !

ومهما يكن الامر ، فإن الميت ظل معلقا فى الفراغ الذى يلى السقف . ولاح كأنما خيمت روح الشر ذاتها على مساكن الرقيق ، باسطة جناحيها الهائلتين ، فى تلك الليلة ، مبدية قوتها وسلطانها ، مقتربة من أولئك القوم كما لم تقترب قط من قبل! .. هكذا شعروا جميعا . ولست أدرى ما اذا كانوا على صواب ، بل اننى لاراهم كانوا فى خطأ مبين . واعتقد انه لو كان قد قدر لشخص على شيء من الجراة أن يأخذ شمعة او مصباحا فى تلك الليلة الرهيبة ، وأن يرسم على صدره علامة الصليب – بل وبدون أن يرسم الصليب – فصعد الى ما تحت السقف ، وبدد رهبة الليل رويدا – خلال تقدمه بالشمعة – ملقيا الضوء على العارضات الخشبية ، وعلى الرمل ، وعلى أنبوبة المجارى المكسوة بنسيج العنكبوت ، وعلى لفافات العنق التى خلفتها زوجة النجار وراءها .. ووصل الى « بوليكى » ، فغالب مخاوفه ورفع المصباح الى مستوى وجهه ، لرأى عين الشكل النحيل ، وقد مست القدمان الارض لان الحبل ارتخى ، ومال الجسم جانبا وقد خلا من الحياة .. ولا صليب تحت القميص ، وقد سقط الراس على الصدر .. ولرأى الوجه الطيب السحنة وقد تفتحت عيناه بلا ابصار ، والابتسامة التى تجمع بين المسكنة والشعور بالذنب ، وهدوءا ساجيا ، وصمتا يسيطر على كل شيء .. **والواقع أن زوجة النجار كانت أكثر بشاعة وارهابا من بوليكى – رغم أن صليبه كان بعيدا عن جسمه ، وملقى على احدى العارضات – لا سيما وهى تنكمش فى ركن من سريرها ، بشعر مشعث ، وعينين مفعمتين بالذعر ، وقد راحت تروى كيف أنها سمعت ضجيج أكياس تتساقط !**

و « **فوق** » .. اى فى دار السيدة ، سيطرت عين الرهبة

التي سادت مساكن الرقيق . وكان مخدع السيدة نفسها معبقا برائحة « الكولونيا » والادوية ، بينما راحت « دنياشا » تصهر شمعا أصفر ، لتعد لاصقة « لبخة » . أما السبب الذي من أجله كانت هذه اللاصقة ، فهذا ما لست أدريه ، وأن كنت أعلم أن اللاصقات كانت تصنع عادة عندما تكون السيدة متوعكة . وقد كانت في تلك الليلة بالغة الاستياء ، حتى لقد حل بها المرض . ولقد أقبلت عمة «دنياشا» لتمكث الليل معها، حتى تشد أزرها . ومن ثم فقد كانت في غرفة الوصيفة أربع ، رحن يتكلمن بأصوات خافتة : دنياشا ، وعمتها ، والوصيفة الثانية ، وأكسيوتكا .. وما لبثت « دنياشا » أن تساءلت : « من منكن تذهب لتحضر بعض الزيت ؟ » . فقالت الوصيفة الثانية في حزم واصرار : « ما من شيء يغريني على الذهاب »

ــ هراء ! .. اذهبي مع أكسيوتكا !

فقالت أكسيوتكا : « سأهرع وحدى ، فلست خائفة من شيء ! » . بيد انها لم تكد تفرغ من قولها ، حتى شعرت بخوف طارىء ! بينما قالت دنياشا : « حسن .. اذهبي اذن يا عزيزتي الى الجدة آنا ، وسليها ان تعطيك بعض الزيت في قدح ، واحضريه الى هنا ، ولا تسكبي منه شيئا ! »

ورفعت « أكسيوتكا » ذيل ثوبها باحدى يديها . واذ حال هذا دون تأرجح ذراعيها معا كالبندولين ، فانها راحت تحرك ذراعا واحدة بعنف مضاعف ، في خط متعامد على خيط سيرها ، وهي تندفع ! وكانت خائفة .. وخيل اليها أنها قمينة بأن تموت ذعرا اذا هي رأت أو سمعت شيئا ، ولو كان هذا الشيء أمها التي كانت على قيد الحياة .. ومرقت في طريقها المألوف ، وهي مغمضة العينين !



(١٣) فلاح يقتحم مخدع السيدة !

• **وفجأة** ، انبعث على مقربة من اكسيوتكا صوت ريفى عميق ، متسائلا : « هل السيدة نائمة أو غير نائمة ؟ » . ففتحت الفتاة عينيها ــ اللتين كانت تغمضهما ــ ورأت أمامها جسما خيل اليها أنه أكثر ارتفاعا من الدار كلها . فصرخت وارتدت عائدة بسرعة هوجاء ، حتى أن ذيل ثوبها راح يتطاير خلفها فى الهواء . وبقفزة واحدة تجاوزت المدخل ، وبقفزة أخرى كانت فى غرفة الوصيفة ، حيث ارتمت على سرير وهى ترسل صراخا ضاريا . وأوشكت دنياشا وعمتها والوصيفة الثانية أن يمتن رعبا . وقبل أن يتمالكن حواسهن ، سمعن خطوات ثقيلة بطيئة مترددة ، فى الردهة ، انتهت أخيرا عند بابهن . **واندفعت « دنياشا » الى مخدع مولاتها والشمع المصهور يتناثر من بين يديها . واختبأت الوصيفة الثانية وراء الستائر . أما العمة ــ وكانت أقوى منهن شخصية ــ فقد همت بأن تدفع الباب المؤدى الى الردهة ، وتحكم اغلاقه . ولكن الباب فتح ــ فى تلك اللحظة ــ وولج فلاح الحجرة !**

ولم يكن القادم سوى دوتلوف بحذاءيه الشبيهين بالقاربين! .. وراح يتلفت حوله باحثا عن ايقونة ، دون أن يحفل بما استولى على من كن فى حجرة الوصيفة من مخاوف . واذ لم ير الايقونة الصغيرة التى كانت فى الركن الايسر من الحجرة ،

وقف امام صوان كانت اواني الشاي واقداحه تحفظ فيه ، ورسم على صدره علامة الصليب . ثم وضع قلنسوته على حافة النافذة ، ودس يده فى صدر معطفه ، وراح يدفعها موغلا ، وكأنه يريد أن يحك جلده ، تحت الابط . وما لبث أن أخرج المظروف الذى كان يحمل خمسة أختام بالشمع البني ، يحمل كل منها رسم مرساة (هلب) !

وضغطت عمة « دنياشا » قلبها بيدها ، ثم راحت تناضل ، حتى انتزعت الكلمات بعناء ، قائلة : « لعمرى !.. لقد أوقعت الذعر فى نفسى حقا ، حتى اننى لا أقوى على أن انطق بكلمة ! لقد ظننت أن لحظتي الاخيرة قد حانت ! » .. وصاحت الوصيفة الثانية ، وهى تبرز من وراء الستائر : « أفهكذا يتصرف الناس ؟ » .. وقالت « دنياشا » ، وهى تخرج من مخدع مولاتها : « لقد انزعجت السيدة نفسها . فما الذى تقصده اذ تقتحم الدار من مدخل الخادمات ، دون ما استئذان ؟ .. يا لك من فلاح جلف ! »

ولم يحاول « دوتلوف » أن يلتمس لنفسه الاعتذار ، بل قال انه راغب فى أن يقابل السيدة . فقالت دنياشا : « انها متوعكة المزاج ! » . وفى تلك اللحظة ، أطلقت « اكسيوتكا » ضحكا عاليا ، بدا أنها لم تكن تقو على كبحه ، حتى أنها اضطرت الى أن تدفن وجهها فى وسادة السرير . وظلت ساعة لا تقوى — رغم تهديدات دنياشا وعمتها — على أن ترفع وجهها فترة ، دون أن تنفجر فى الضحك ثانية ، وكأنما كان ثمة شيء يفجر الضحك فى صدر ثوبها الوردى المنقوش ، وفى شدقيها المضرجين بالحمرة . فلقد لاح لها أن من المضحك كل الاضحاك أن يستولى الخوف على الجميع — الى هذا الحد — وراحت تدس رأسها فى الوسادة ، وتدق الارض بحذاءيها ، وكل جسمها يهتز بعنف لفرط الضحك !

ووقف « دوتلوف » فى مكانه ، وراح يطيل النظر اليها بامعان ،

وكأنه يستوثق مما أصابها . ولكنه لم يلبث أن تحول عنها ، دون أن يكتشف سر ما بها ، وعاد يقـــول : ((**الواقع أن .. الامر .. الامر على جانب عظيم من الاهمية . وليس عليـك سوى أن تدخلي للسيدة ، فتقولي لها أن فلاحا وجد الخطاب الذى ضم النقود ؟))** . فتساءلت دنياشا : ((أية نقود ؟)) . وقرأت ـ قبل أن تحمل النبأ للسيدة ـ ما كان مكتـوبا على المظروف ، وسألت دوتلوف عن المكان والزمان اللذين وجـد فيهما النقود التى كان على ((بوليكى)) أن يحضرها من المدينة . حتى اذا استمعت الى كل شيء ، دفعت عن طريقهـا الخادم الصغيرة ـ التى كانت لا تزال تتلوى لفـرط الضـحك ـ وأقصتها الى البهو الخارجى ، ثم دخلت الى سيدتها .

* * *

ودهش ((دوتلوف)) اذ أبت السيدة أن تستقبله ، ولم تقل لدنياشا شيئا معقولا .. فقد كان كل ما قالته : ((**لست أدرى شيئا عن هذا الخطاب ، ولا أريد أن أعرف شيئا ؟ .. أى فلاح ؟ وأية نقود ؟ .. لا أستطيع ، ولا أريد أن أرى أحدا !.. ليتركني هذا الفلاح بسلام !))**

وقال دوتلوف ، وهو يقلب المظروف بين يديه : ((ما الذى ينبغى أن أفعل ؟ .. انه ليس بالمبلغ البسيط !)) . ثم سأل دنياشا : ((ما الذى كتب عليه ؟)) . فعادت الفتاة تقرأ العنوان .. و ((دوتلوف)) فى ريب من أمره ، وقد بقي فى نفسه شيء من الامل فى أن النقود قد لا تكون نقود السيدة ، وأن العنوان لم يقرأ له كما ينبغى أن يقرأ .. ولكن ((دنياشا)) قطعت كل شك ورجاء بشأن المبلغ والعنوان ، فدس المظروف فى صدره وهو يتنهد ، وهم بالانصراف قائلا : ((أعتقد أن على أن أسلمه الى ضابط البوليس)) . فاستوقفته دنياشا قائلة : ((مهلا !.. سأحاول مرة أخرى)) .. كانت قد أعملت فكرها بعد أن اختفى

المظروف فى صدر معطف الفلاح ، فلم تشأ أن تفــوت على سيدتها المبلغ ، وقالت : « هات هذا الخطاب ! » . فأخــرج « دوتلوف » الخطاب ثانية ، ولكنه تردد برهة قبل أن يضعه فى يد « دنياشا » المبسوطة . ثم قال : « قولى أن ســمعان دوتلوف قد وجده فى الطريق .. »

ــ حسنا .. هاته !

ــ لقد خيل الى أنه ليس ذا قيمة .. مجرد خطاب ! ولكن جنديا قرأ لى ما كتب عليه عن وجود نقود بداخله ..

ــ لا بأس .. اذن ، هاته !

فقال دوتلوف : « اننى لم أجسر على الذهاب الى أى مكان، ولا الى بيتى قبل أن .. » ، وسكت لحظة ، ثم استطرد دون أن يتخلى عن المظروف الثمين : « قولى هذا السيدة ! » .. وأخيرا ، أخذت دنياشا الخطاب منه ، ودخلت على مولاتها من جديد . فصاحت السيدة فى لهجة عاتبة : ((**أواه ، يا الهى ! .. لا تحدثينى يا دنياشا عن هذه النقود ! .. فقط تصورى ذلك الطفل الصغير .. !**)) . وارتجفت وهى تتمثـــل ابن « أكولينا » الميت ، بينما عادت دنياشا تقول : « أن الفـــلاح لا يدرى لمن تريدين أن يعطى هذا المبلغ ياmولاتى ! » . وهنا فتحت السيدة المظروف ، فارتجفت لمرأى النقود ، ووجمت فترة وهى شاردة البال ، ثم قالت : « يا للنقود البغيضة !.. ما أكثر ما تحدث من آثام ! » . فقالت دنياشا : « اندوتلوف هو الذى أحضرها يا مولاتى . فهل تأمرين بأن ينصرف ، أو تتكرمين بالخروج لكىتقابليه ؟ .. وهل النقودكاملة لم تمس؟»

وفجأة ، قالت السيدة وهى تتلمس يد دنياشــا لتتشبث بها . « لا أريد هذه النقود .. انها نقود رهيبة ! ما أكثر ما فعلت ! أنبئيه بأن له أن يأخذها اذا شاء ! » . **وراحت تردد على مسمع مندنياشا المذهولة : ((أجل ، أجل ، اجل ! .. دعيه يأخذها بأكملها ، وليفعل بها ما يشـــاء !))** . **وهتفت**

دنياشا ، وهى تبتسم ، وكأنها تحايل طفلة : ((ألف وخمسمائة روبل ؟ !)) . فصاحت السيدة بصبر نافد : ((دعيه يأخذها بأكملها ! .. كيف لا تفهمينني ؟ انها نقود منحوسة ، فلا تحدثيني عنها بعد الآن ! . ليأخذها الفلاح الذى عثر عليها ! هيا !))
وخرجت دنياشا الى حجرة الوصيفة ، فسألها دوتلوف : « هل وجدت المبلغ كاملا ؟ » . فأجابت دنياشا ، وهى تسلمه المظروف : « يحسن بك أن تحصيه بنفسك ، فقد أمرت بأن اسلمك اياه ! » . ودس « دوتلوف » قلنسوته تحت ابطه ، وانحنى الى الامام ، وشرع يحصى المبلغ . ثم تساءل : « هل لديكم عداد ؟ » (١) . فلقد خطر لدوتلوف أن السيدة كانت غبية لا تحسن العد ، وأن هذا هو الذى دعاها الى أن تامره بعد النقود . ولكن دنياشا قالت بجفاء : « تستطيع أن تعدها فى بيتك .. فالنقود لك ! .. لقد قالت السيدة : لا أريد أن أراها ، فدعيها للرجل الذى أحضرها ! » . وحملق «دوتلوف» فى دنياشا ، دون أن يقيم ظهره المنحنى ، بينما بسطت عمة الوصيفة راحتيها ، وهتفت : « آه ، أيتها الام المقدسة ! اى حظ ساقه الرب لهذا الرجل ! آه ، أيتها الام المقدسة ! » . ولم تستطع الوصيفة الثانية أن تصدق ما سمعت فهتفت بزميلتها : « ما أراك جادة يا افدوشيا بافلوفنا .. انك تمزحين ! » . فقالت دنياشا ، دون أن تخفى استياءها : « أمزح ؟ ! حقا ! .. لقد أمرتنى بأن أعطى الفلاح النقود .. هاك ، خذ النقود وامض !.. مصائب قوم عند قوم فوائد ! » . فقالت العمة : « ماهذا مجال المزاح . . انها ألف وخمسمائة روبل » . فعقبت دنياشا قائلة : « بل هى أكثر ! » . ثم أردفت قائلة لدوتلوف فى سخرية : « يجب أن تقدم شمعة بعشرة كوبكات

---

(١) اطار خشبى تمتد بعرضه اسلاك فيها قطع من الخرز ، يستخدم لتعليم الأطفال العد . وكان استعماله شائعا بين فلاحى روسيا قديما

للقديس نيقولا .. لماذا لا تثوب الى وعيك ؟ .. لو أن هـذه النقود آلت الى رجل فقير .. ! ولكن هذا الرجل أوتى وفرة من المال ! »

وأدرك « دوتلوف » أخيرا أن الامر لم يكن مزاحا ، فشرع يجمع الاوراق المالية التى كان قدنثرها حولهليحصيها ، وأخذ يضعها فى المظروف . بيد أن يديه كانتا ترتجفان ، وقد ظل ينظر الى الوصيفتين ليطمئن الى انه لم يكن فى الامر كله أى مزاح .. بينما راحت دنياشا تقول ، متظاهرة بأنها تحتقر الفلاح والمال معا : « أنظرن ! انه لايكاد يعقل لفرط الفرح ! .. .. دعنى أضع النقود لك فى المظروف ! » . **وهمت بأن تمسك بالاوراق المالية ، ولكن « دوتلوف » لم يدعها تصل اليها ، بل كور الاوراق معا ، ودفعها الى جوف المظروف ، ثم تنـاول قلنسوته** . فسألته دنياشا : « أمبتهـج انت ؟ » . وأجاب : « لا أكاد أدرى من أمرى شيئا ! .. الواقع .. » . ولم يتم عبارته ، بل لوح بيده ، وابتسم ، وغادر المكان وهو يوشك أن يبكى !

* * *

وذقت السيدة الجرس ، ثم تسـاءلت : « هل أعطيتـه النقود ؟ » . فأجابت دنياشا : « أجل »

ــ وهل كان شديد الابتهاج ؟

ــ كان أشبه بمجنون

ــ آه ! .. أدعه ثانية ، فانى أريد أن أسأله كيف عثر على الخطاب . أدعه الى هنا ، فلست أقوى على مبارحة المخدع !

وهرعت دنياشا الى الخارج ، فوجدت الفلاح عند المدخل ، وهو لا يزال عارى الرأس ، وان كان قد أخرج كيس نقوده ، ووقف منحنى القامة يفك رباطه ، بينما كان ممسكا بمظروف النقود بين أسنانه .. ولعله تصور أن النقود لن تصبح ملكا له ما لم تكن داخل الكيس . فلما نادته دنياشا ، اشـتد به

الجزع ، وهتف : « ماذا جرى يا أفدوشيا .. أفدوشيا بافلوفنا ؟ هل تريد السيدة أن تسترد النقود ؟ .. الا تستطيعين أن تشفعي لي عندها ، وأعدك أن أحضر لك بعض العسل البديع ؟ » . فقالت ساخرة : « حقا ! .. فما أكثر ما أحضرت ! »

وفتح الباب مرة أخرى ، واقتيد الفلاح الى السيدة ، وهو أبعد ما يكون عن الابتهاج . فقد راح يفكر في سريرته - وهو ماض خلال الحجرات ، رافعا قدميه أكثر مما ينبغي ، وكأنه يخطو خلال حشيش طويل يحاول أن لا يسحقه بحذاءيه المصنوعين من اللحاء : « ويلاه ! لسوف تسترد النقود ! » . ولم يتبين شيئا مما كان حوله .. ومر بجوار مرآة ، فرأى زهورا ، وفلاحا في حذاءين من اللحاء ، يرفع قدميه عاليا .. ثم رأى سيدا يضع على عينيه عوينتين (نظارة) ، في رسم على الجدار .. ثم شيئا أخضر كأنه الحوض الخشبي ، وشيئا أبيض .. وفجأة ، بدأ الشيء الابيض يتكلم ، فهو لم يكن سوى السيدة .. ولم يفقه دوتلوف شيئا ، بل اكتفى بأن راح يحملق أمامه ، دون أن يعرف أين كان ، وقد خيل اليه أن ضبابا يكتنف كل شيء !

— أهذا أنت يا دوتلوف ؟

— أجل يا سيدتي .. تماما كما كان ، لم أمسه .. انني لم أكن مسرورا ، فليساعدني الله ! .. لشدما أرهقت جوادي ، لاصل الى هنا مسرعا !

فقالت السيدة في ازدراء ، وان بدت ابتسامتها رقيقة : « حسنا ، انه حظك ! .. خذه ، خذه لنفسك ! » . ودارت عيناه في محجريهما ، بينما استطردت السيدة : « انني لمسرورة اذ آل اليك المبلغ ، فليجعله الله ذا نفع لك ! أفمسرور أنت الآن ؟ » . فأجاب مرتبكا : « وكيف لا أكون مسرورا ؟ .. انني مسرور جدا يا مولاتي .. مسرور جدا ! سأصلي دائما من أجلك ، وأدعو لك ! .. انما أنا مسرور بوجودك على قيد

الحياة . والحمد لله ! »

ـ وكيف عثرت عليه ؟

ـ أعني أن بوسعنا دائما أن نبذل قصارى طاقتنا من أجل مولاتنا ، في شرف وأمانة ، ودون ..

وهنا قالت دنياشا : « إنه مرتبك يا مولاتي ! »

ـ كنت قد صحبت ابن أخي الجند ، وفيما كنت أقـود عربتي عائدا ، عثرت على الخطـــاب في الطريق .. ولا بد أن بوليكي قد أسقطه عفوا !

ـ لا بأس ، انصرف .. انصرف ايها الرجل الطيب ، ويسرني انك أنت الذي عثرت عليه !

وقال الفلاح : « لكم أنا مسرور يا مولاتي ! » . ثم تذكـر انه لم يقدم لها الشـــكر اللازم ، ولم يدر كيف يتصرف . وابتسمت السيدة ودنياشا ، واذ ذاك شرع الرجل يســير وكأنه يخطو بين أعشاب عالية ، وهو يكبح نفسه بعناء حتى لا يجري ، وقد داخله الخوف من أن يستوقفوه فتؤخذ منه النقود !

(١٤) مع جثة « بوليكي » !

ما أن خرج دوتلوف من الدار ، حتى عرج صوب أشجار الزيزفون ، مبتعدا عن الطريق ، ثم فك حزامه ليخرج كيسه بسهولة ، وغيب فيه النقود . وكانت شفتاه تختلجان وتنبسطان وتتقاربان ، دون ما صوت . فلما وضع النقود في الكيس ، ثبت حزامه ، ورسم الصليب على صدره ، ثم عاد الى الطريق مترنحا ـ وكأنه ثمل ـ تحت وطأة الافكار التي تدافعت على ذهنه. **وفجأة ، رأى شبح رجل مقبلا عليه فصاح ، فاذا به « ايفيم » وقد أمسك بيده هراوة ، وسهر على الحراسة عند مساكن الرقيق .**

وقال ايفيم بابتهاج ، وهو يقترب منه ، وقد أمضه السهر وحيدا : « آه ، أهذا أنت يا أبي ســمعان ؟ ! .. هل ودعتم



المجندين يا أبت ؟ » . فأجابه : « ودعناهم .. وماذا تفعل ؟ »
ــ لقد عينت لحراسة « بوليكى » الذى شنق نفسه !
ــ وأين هو ؟
ــ فوق ، معلق فى الفراغ تحت السقف ، كما يقولون !
وأشار بهراوته نحو سقف مساكن العبيد ، فتطلع «دوتلوف» حيث أشار . ومع أنه لم ير شيئا ، فقد قطب عينيه ، وأرهف بصره . ثم هز رأسه . وقال ايفيم : « لقد جاء ضابط البوليس، كما قال الحوذى ، وسينزلون الجثة حالا . أليست هذه ليلة رهيبة يا أبت ؟ .. ما من شيء يحملنى على أن أصعد اليه بالليل ، ولو أمرت أمرا . لن أصعد ولو شاء ايجور ميخايلوفيتش أن يقتلني .. » وكان دوتلوف يردد ، دون أن يفقه ما يقول : « يا لها من خطيئة ! .. آه ، يا له من اثم ! » . وهم بأن يمضى فى طريقه ، فاذا صوت ايجور ميخايلوفيتش يستوقفه، اذ انطلق من مدخل مكتبه قائلا : « اسمع ، أيها الحارس ! تعال ! » . فلبى « ايفيم » نداءه . واذ ذاك سأله : « من ذلك الفلاح الذى كان يقف معك ؟ » . وأجابه ايفيم : « انه دوتلوف » . فصاح وكيل الاعمال : « آه ، أهذا أنت يا سمعان! تعال معنا ! »

واقترب دوتلوف .. وعلى ضوء مصباح كان الحوذى يحمله ، رأى الشيخ ايجور ميخايلوفيتش يقف مع رجل

قصير ، يحيط بقبعته شريط ، وقد ارتدى معطفا رسميا طويلا .. ذلك كان ((كونستابل)) البوليس . وأحس الشيخ بشيء من عدم الارتياح ، ولكنه لم يجد مفرا من أن يقف أمامهمـا ، بينما كان ايجور يقول : « وأنت يا ايفيم .. أنك فتى شجاع ، فأصعد الى الفراغ الذى يلى السقف ، حيث شنق نفسه ، وأصلح وضع السلم ليرقى صاحب الفخامة اليه » . وهـرع « ايفيم » ــ الذى كان منذ لحظة يقول أن شيئا فى الدنيا لن يحمله على الصعود ــ فيمم شطر المكان ، وحذاءاه الخشبيان يقرقعـــان .

وأشعل ضابط البوليس ثقابا ، أوقد به غليونا .. كان يقيم على حوالى ميل ونصف الميل . ولمـا كان قد تلقى من رئيسه تقريعا شديدا ــ لافراطه فى الشراب ــ فقد أبدى همة وحمية، فوصل فى الساعة العاشرة مساء ، ورغب فى أن يرى الجثـة لفوره ! .. وتحول « ايجور ميخايلوفيتش » الى «دوتلوف» فسأله عما أتى به . ولكى يجيبه دوتلوف ، راح يروى له كيف عثر على النقود ، وما فعلته السيدة . وقال انه كان فى طريقه الى « ايجور ميخايلوفتش » ليسأله رأيه . وشد ما جـزع حين سأله وكيل الاعمال أن يعطيه الظروف ، ثم أخذ يفحصه .. وتناول ((كونستابل)) البوليس الظرف بدوره ، فأمسك به للحظة وجيزة ، وسأل دوتلوف عن بعض الامور بشيء من الجفاء . وأخذ الشيخ يقول لنفسه : ((واحسرتاه ! لقد طارت النقود !)) . ثم مضى يتلمس تبرير امره ، ولكن «الكونستابل» لم يلبث ان ناوله النقود ثانية ، وهو يقول : « يا له من حظ ، لغبى مأفون ! » . فقال ايجور ميخايلوفيتش : « لقد واتاه فى الوقت المنـاسب ، فقد كان عائدا بعد أن رافق ابن أخيـــه المجند . وبوسعه الآن أن يفتديه ! » .. وقال رجل البوليس : « آه ! » . ثم سار نحو مساكن الرقيق

وتحول ايجور ميخايلوفيتش لدوتلوف : « هل ستفتديه..

اقصد ايليشا ؟ » . فقال الرجل : « وكيف لى ان أفتديه ؟ . هل ستكون ثمة نقود كافية ؟ . . ثم ، قد تكون الفرصة فاتت ! » . فقال وكيل الاعمال : « انت أدرى بذلك ! » . وتبعا « كونستابل » البوليس . واقتربوا من مساكن الرقيق، حيث كان الحراس الكريهو الرائحة يقفون فى الردهة ، ومعهم مصباح . . ولاحوا وكأنهم مذنبون ، ولعل ذلك كان راجعا الى الرائحة الكريهة التى كانوا يبثونها حولهم . . وكانوا جميعا صامتين . فتساءل كونستابل البوليس : « أين هو ؟ » . . فقال ايجور ميخايلوفيتش هامسا : « هنا » . ثم اردف قائلا لايفيم : « انك فتى جسور ، فتقدم الضابط، ومعك المصباح! » . وكان ايفيم قد وضع لوحا مستقيما من الخشب ، فوق قمة السلم . وبدا انه فقد كل خوف ، فصعد السلم ، طاويا كل درجتين أو ثلاث معا ، مبتهجا ، ملقيا الضوء على طريق « كونستابل » البوليس . وعندما غابا فى الفراغ الذى يلى السقف ، تنهد دوتلوف ، ووقف واحدى قدميه على ادنى درجات السلم وتبعهما وكيل الاعمال .

ومرت دقيقتان أو ثلاث . وكان وقع الاقدام ـ تحت السقف ـ قد انقطع ، مما نم عن أنهما بلغا الجثة . وما لبث « ايفيم » أن نادى من أعلى : « ابتاه ، انهم يريدونك ! » . فبدأ دوتلوف يصعد السلم . ولم يكن ضوء المصباح يكشف سوى الجزء الاعلى من جسم كل من « كونستابل » البوليس و « ايجور ميخايلوفيتش » ، خلف القوائم الخشبية . وكان ثمة شخص آخر يقف خلفهما وظهره نحو فتحة المكان . . وكان هذا هو « بوليكى » . وصعد « دوتلوف » ، ثم وقف ، ورسم علامة الصليب على صدره . . وقال « كونستابل » البوليس : « أديروه يا أولاد ! » . فلم يتحرك احد . واذ ذاك قال ايجور ميخايلوفيتش : « ايفيم . . انك فتى جسور ! » . فتقدم « الفتى الجسور » ، **وأدار « بوليكى » ، ووقف بجانبه،**

وهو ينقل بصره ــ وقد تهلل وجهه ــ بين بوليكى ورجـل البوليس ، كرجل يعرض أمهق أو « جوليا باسترانا » (١) ، وينقل بصره بين الناس وما يعرض ، وهو على استعداد لان يفعل كل ما يبتغيه النظارة .

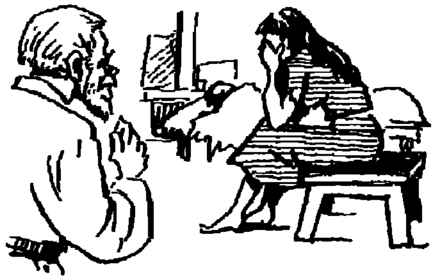
وقال رجل البوليس : « أدره مرة أخـرى ! » . فأدير « بوليكى » ، وذراعاه يتأرجحان قليلا ، وقـدماه يحتكان بالرمال . وعاد الكونستابل يقول : « أمسكوه ، واهبطوا به » . فتساءل ايجور ميخايلوفيتش : «هل نقطع الحبل كله ياصاحب الفخامة ؟ .. آتونا بفأس يا أولاد ! » .. ولم يكن ثمة بد من تكرار التعليمات على الحراس ودوتلوف ، قبل أن يشرعوا فى العمل . على أن « الفتى الجسور » حمل بوليكى كما يحمل جثة خروف .. وما لبث الحبل أن قطع فى النهاية ، وحملت الجثة الى أسفل ، ثم نشر عليها غطاء . وقال « كونستابل » البوليس ان الطبيب سيفد فىاليوم التالى..وصرف الجميع.

(١٥) عودة المجند الى قريته !

• سعى دوتلوف الى داره ، وهو لا يزال يحرك شفتيه . وكان ــ فى البداية ــ يشعر بتوجس وتشـاؤم ، ولكن هـذا الشعور لم يلبث أن زايله ، حين اقترب من البيت ، وتولاه ابتهاج أخذ يسرى فى فؤاده تدريجا . وسمع أغانى وأصوات السكارى تنبعث من القرية .. ولم يكن دوتلوف قـد عاقر الخمر اطلاقا ، ومن ثم فقد يمم ــ فى هذه المرة ايضا ــ شطر بيته مباشرة . وكان الوقت متأخرا ، حين ولج كوخه ، فاذا زوجه العجوز نائمة . وكان ابنه الاكبر وأحفاده نياما عـلى

---

(١) الأمهق هو الشخص الشديد البياض والشقرة ، ويسمى عادة « عدو الشمس » . اما « جوليا باسترانا » فكانت انثى نصف امراة ونصف حمارة ، عرضت فى روسيا منذ قرن تقريبا .



الفرن ، فى حين كان ابنه الثانى نائما فى المخزن . ولم يكن من مستيقظ سوى زوجة ايليشا ، فقد جلست تبكي .. عارية الراس ، على مقعد خشبى ، وفى ثوب العمل اليومى القذر . ولم تنهض لاستقباله ، بل ازدادت نحيبا ، وراحت ترثى حالها عندما دخل . وكانت ــ كما قالت زوجته العجوز ــ تجيد الندب والنعيب بطلاقة ، لا سيما وان صغر سنها لم يكن قد أتاح لها فرصة للمران !

واستيقظت العجوز فأعدت عشاء لزوجها .. وأقصى دوتلوف زوجة ايليشا عن المائدة قائلا لها : « كفي ! كفى ! » . فابتعدت « أكسينيا » عن المائدة ، واستلقت على اريكة خشبية ، وواصلت الندب والنعيب . ووضعت العجوز العشاء على المائدة ، ثم رفعته ــ فيما بعد ــ فى صمت .. ولم يتكلم الشيخ كذلك . وبعد إن صلى لله شكرا ــ عقب العشاء ــ تجشأ ، وغسل يديه ، ثم رفع العداد عن مسمار فى الجدار ؛ وذهب الى المخزن . وهناك ، راح والعجوز يتكلمان همسا لبرهة ، ثم شرع ــ بعد انصرافها ــ يعد على العداد ، وليس من صوت سوى صلصلة الخرز .. وأخيرا ، رفع غطاء صندوق كبير ــ هناك ــ وهبط الى فراغ تحت الارض . وقضى وقتا طويلا فى الحجرة والفراغ الذي كان تحتها . وعندما عاد الى غرفة الجلوس ، كان الظلام يسود الكوخ ، اذ أن شظية الخشب ــ التى كانت تستخدم كشمعة ــ انطفأت ، فأشعلها

من جديد . وكانت زوجته ـ الهادئة ، الصامتة أثناء النهار ـ قد تكورت على السرير الخشبي وملأت الكوخ غطيطا . أما زوجة ايليشا الصاخبة فكانت تتنفس بهدوء ، وقد نامت هى الاخرى .. كانت ترقد على الاريكة الخشبية فى عين الثياب التى كانت فيها طيلة يومها ، وليس من شىء تحت راسها يعوضها عن الوسادة !

وشرع دوتلوف يصلى ، ثم نظر الى زوجة ايليشا وهز رأسه ، وأطفأ النور .. وتجشأ ثم صعد الى قمة الفرن ، حيث ينام الى جوار حفيده الصغير . والقى بحذاءيه المكسوين بلحاء الشجر الى الارض فى الظلام ، واستلقى على ظهره متطلعا الى ألواح السقف الخشبية التى كانت فوق رأسه مباشرة ، والتى كانت لا تبين تقريبا .. وأخذ ينصت الى أصوات الصراصير وهى تطير مرتطمة بالجدران ، والى التنهدات ، والزفرات ، والغطيط ، وحفيف قدم تحتك بأخرى ، وجلبة الماشية فى الخارج . وانقضى وقت طويل قبل أن ينام ، بزغ خلاله القمر ، فأضاءت أشعتهالكوخ ، واستطاع الشيخ أن يرى « اكسينيا » فى ركنها ، وشيئا لم يستطع أن يتبين ما اذا كان سترة نسيها ابنه ، أو وعاء غسيل وضعته النسوة هناك ، أو رجلا قابعا ! .. ولعله كان قد بدأ ينعس ـ اذ ذاك ـ وربما لم يكن قد بدأ ، ولكنه ـ على أية حال ـ شرع يتفرس فى الظلام .. والظاهر أن الروح الشريرة التى قادت بوليكى الى ارتكاب فعلته الشنيعة ، والتى كان كل من فى مساكن العبيد يشعرون بوجودها ـ فى تلك الليلة ـ قد بسطت جناحها عبر القرية الى الكوخ الذى كانت فيه النقود التى استخدمتها فى القضاء على بوليكى ! .. **ومهما يكن الامر ، فقد أحس دوتلوف بوجود الروح الخبيثة ، فاضطرب ، ولم يعد فى وسعه أن ينام ، ولا أن ينهض .وبعد ان لاحظ الشىء الذى لم يستطع أن يتبينه ، تمثل ايليشا وقد أوثق كتافه ،**

ووجه ((اكسينيا)) ورثاءها الطلق ، وتذكر بوليكى ويديه اللتين تأرجحتا !

وفجأة ، خيل للشيخ أن شخصا مر بجوار النافذة ، فقال لنفسه : « من عساه يكون ؟ .. أيكون شيخ القرية وقد أقبل مبكرا يحمل مذكرة لى ؟ » . وسمع خطوة فى الردهة ، فساءل نفسه : « كيف فتح الباب ؟ .. أو لم تضع العجوز المزلاج ، عندما عادت من الردهة ؟ » . وبدأ الكلب يعوى فى فناء الدار ، والروح الشريرة ـ كما حدس الشيخ فيما بعد ـ تخطو فى الردهة ، وكأنها تبحث عن الباب . ثم مرت ، وبدأت تتحسس الجدار ، وتعثرت فى وعاء فوقع على الارض محدثا صوتا . ثم عادت تتحسس ، وكأنها تبحث عن اللسان الذى يغلق الباب . وأمسكت باللسان ورفعته .. وسرت فى جسد الشيخ قشعريرة . ورفعت الروح الخبيثة اللسان ودخلت متخذة شكل رجل .. وأدرك دوتلوف أنها الروح الشريرة ، فحاول ان يرسم الصليب على صدره ، ولكنه لم يقو .. وسار الشبح الى المنضدة التى كانت مكسوة بغطاء ، فجذبه وألقاه على الارض ، وشرع يصعد الى قمة الفرن ! .. **وأدرك الشيخ أن الروح الخبيثة اتخذت شكل ((بوليكى)) وقد كشر عن أنيابه ، وراحت يداه تتارجحان حوله .. وصعد ، ثم ارتمى على صدر الشيخ ، وبدأ يخنقه !**

وقال بوليكى : ((ان النقود لى)) ، فحاول سمعان أن يقول : ((دعنى .. لن أمسها !)) ، ولكنه لم يقو .. واخذ بوليكى يثقل عليه ، وكأنه جبل صلد . وكان دوتلوف يعرف انه لو استطاع أن يردد أدعية ، لخلت الروح الخبيثة عنه ، وكان يعرف اية أدعية يجب أن يتلو ، ولكنه لم يستطع أن ينطق .. وارسل حفيده ـ الذى كان ينام الى جواره ـ صرخة عالية ، وشرع يبكى ، فقد دفعه جده الى الحائط ، وراح يضغطه فيه . وفكت صرخة الطفل عقدة لسان الشيخ ، فانطلق : « لينهض

الرب ! .. » ، فبدأ ثقل الشبح يخف .. « وليتفرق شمل اعدائه ! .. » . وهبط الشبح عن الفرن ، وسمع «دوتلوف» صوت ارتطام قدميه بالارض ، فمضى يردد تباعا كل ما كان يعرف من صلوات .. وسار الشبح الى الباب ، مارا بالمائدة . وصفق الباب خلفه فهز الكوخ بأسره . ومع ذلك فقد ظل الجميع نياما ، عدا الجد والحفيد . فقد كان الجـد يتمتم بالصلوات وهو يرتجف ، بينما كان الحفيد يرهق نفســه بالبكاء ، والنوم يغالبه ، وقد ازداد التصاقا بجده .

* * *

وعاد الهدوء يسيطر على الكوخ ، فظل الشـيخ راقدا فى مكانه . وصاح ديك من خلف الجدار ، بجانب أذن دوتلوف .. وسمع نقنقة الدجاج ، وصـوت دويك يحاول أن يرد على الديك الكبير ، دون أن يوفق . وتحرك شيء على ساق الشيخ .. واذا به قطة ما لبثت أن قفزت الى الارض دون أن تحدث صوتا ، وراحت تموء بجوار الباب . ونهض الشـيخ ففتح النافذة ، واذا الطريق مظلمة موحلة . وكان مقدم العربة قريبا من النافذة . ورسم الرجل الصليب على صدره ، ثم خرج حافيا الى فناء الدار ، حيث كانت الخيل . **وكان من السهل أن يتبين المرء أن الشـبح قد مر بالمكان ، فان الفـرس التى وضعت من عهد قريب ، كانت تقف الى جوار وعاء به علف ، وقد لفت الحبل الذى ربطت به حول ساقها ، وراحت تنتظر أن يأتى صاحبها فيخلصها .. اما رضيعها ، فقد تعثر وسقط على كوم من الروث** . فانهضه الشيخ واقامه على أقدامه . وخلص الفرسة وقدم لها غذاء ، ثم عاد الى الكوخ .

واستيقظت العجوز وأشعلت فتيلا ، فقال لها : « ايقظى الولدين ، فانى ذاهب الى المدينة ! » . ثم تناول شـمعة رفيعة كانت أمام أيقونة ، فأشعلها ، وهبط بها فى الفراغ الذى

كان أسفل المخزن . وعندما صعد ثانية ، كانت الاضواء تلوح في نوافذ جميع الدور المجاورة ، اذ استيقظ الشباب متأهبين للعمل ، وأخذت النسوة يرحن ويجئن بدلاء اللبن . وكان « اجنات » يربط الجواد الى احدى العربات ، بينما كان الابن الثاني يعنى بتشحيم عجلات عربة أخرى . ولم تعد الزوجة الشابة تندب حظها ، بل نظفت نفسها ، ولبست ثوبا نظيفا ، وربطت شالا حول رأسها ، وجلست تنتظر ريثما يحين الوقت للذهاب الى المدينة كي تودع زوجها .

وبدا الشيخ متجهما ، رصينا ، فلم ينبس ببنت شفة لاحد ، بل ارتدى خير سترة لديه ، وشد حزامه ، وتهيأ للذهاب الى ايجور ميخايلوفيتش ونقود « بوليكى » في صدر معطفه . وقال لابنه الذي كان يدير العجلات حول محوريها بعد أن كساهما بالشحم : « لا تتلكأ ، فلسوف أعود بعد دقيقة .. وتأكد من أن كل امرىء على أتم استعداد ! » ..

ووجد وكيل أعمال السيدة قد استيقظ لتوه ، وأخذ يحتسي الشاي ، ويتخذ استعداده ليذهب — هو الآخر — الى المدينة ليسلم السلطات مجندي الضيعة .. وبادره قائلا

— انني أريد أن أفتدي فتاى من الخدمة العسكرية يا ايجور ميخايلوفيتش . فكن كريما ! لقد قلت منذ أيام أنك تعرف شخصا في المدينة يرغب في التطوع ، فاذكر لي كيف أبرم الامر

— ولماذا انتهيت الى هذا القرار ؟

— لم يكن بد من ذلك يا ايجور ميخايلوفيتش ، فاني آسف على الفتى . انه ابن اخي ، على أية حال ، ومهما يكن من امره . انني آسف عليه ! .. ان المال سبب كثير من الخطايا .

وانحنى حتى ساوى راسه وسطه . ووقف ايجور ميخايلوفيتش مفكرا ، وهو يمص شفتيه محدثا صوتا ، كما كان يحلو له في مثل هذه المناسبات .. حتى اذا تدبر الامر ، كتب ورقتين ، وأخبر الشيخ بما ينبغي أن يفعل في المدينة ،

وكيف يفعله .. وعندما عاد دوتلوف الى داره ، كانت زوجة « ايليشا » الشابة قد انطلقت مع « اجنات » ، وكانت الفرسة السمينة القوية تقف مشدودة الى عربة بجوار الباب الخارجي . فاقتطع فرعا من شجرة ، واحكم سترته حول جسده ، وارتقى العربة ، ثم ساط الفرسة بفرع الشجرة ، فجعلها تجرى مسرعة ، حتى أن جنبيها لم يلبثا أن هبطا ، فقد كان التفكير فى أن الفرصة قد تضيع ، وأن « ايليشا » قد يصبح جنديا ، وتظل نقود الشيطان فى حوزته . . كان التفكير فى هذا يضنيه !

ولن أسهب فى وصف كافة ما فعل دوتلوف فى ذلك الصباح ، وانما أكتفى بأن أقول انه كان سعيد الحظ الى درجة عجيبة . فقد كان لدى الرجل ــ الذى أسلمه ايجور ميخايلو فيتش رسالة اليه ــ متطوع على أتم الاهبة ، وكان مدينا بثلاثة وعشرين روبل فضيا ، وقد أقر مجلس التجنيد صلاحيته . وكان سيده يطلب أربعمائة روبل فضى فى مقابل تطوعه للخدمة العسكرية بدلا منه ، وقد ظل شخص من المدينة يحاول اقناعه ــ طيلة الاسابيع الثلاثة الاخيرة ــ بأن يقبل ثلاثمائة روبل . وحسم دوتلوف الامر بكلمتين : « هل تقبل ثلاثمائة وخمسة وعشرين ؟ » . وبسط يده . **ولكن مظهره كان ينم عن أنه مستعد لان يدفع مزيدا ، فلم يمد السيد يده ، وأصر على الاربعمائة روبل . فقال دوتلوف : « أو لن تقبل ثلاثمائة وربع المائة ؟ » . وأمسك بيسراه يمنى الرجل ، يعدها كى يطبق عليها بيمناه مصافحا ، اشارة الى الاتفاق . ولكنه ما لبث أن طوح بيد الرجل بأقصى قوته ، قائلا وهو يدبر عنه : « أو لست تقبل ؟ .. حسنا ، ليكن الله معك ! »** . وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلا : « يبدو أن لا بد من هذا .. خذ ثلاثمائة ونصف المائة ! .. هيا ، احضر أذن التسريح ، وهات الشاب . وهاك ورقتين من فئة العشرة روبلات كعربون . . أيكفيك هذا ؟ »

وفك دوتلوف حزامه ، وأخرج النقود . ومع أن الرجل لم يسحب يده ، الا أنه لم يبد قبـولا تاما ، متوقعـا أن يزيد دوتلوف من المبلغ . ولكن هذا راح يردد ، وهو ممسـك بالنقود : « لا ترتكب اثما ! .. كلنا الى الموت يوما ! » . وراح يخفف من لهجته ، ليغرى الرجل ويطمئنه ، فما لبث هذا أن قال : « ليكن ! » . وصافح يد دوتلوف ، وشرع يدعو الله كى يبارك الصفقة ، قائلا : « ليهبك الله الحظ ! »

وسرعان ما أيقظا المتطوع ، وفحصاه ، ثم رافقاه الى ادارة التجنيد . وكان المتطوع مرحا ، وقد طلب قدرا من « الروم » لينتعش ، فمنحه دوتلوف بعض النقـود لذلك . ولم يخنه جلده الا عندما بلغوا ساحة مجلس التجنيد . وتقدم السيد والمتطوع ، فوقفا طويلا فى بهو المجلس .. وكان السيد فى عباءة شديدة الزرقة ، والمتطوع فى سترة قصيرة من جلد الغنم ، وقد ارتفع حاجباه ، وراحت عيناه تحملقان فى الفضاء .. وظلا طويلا يتهامسـان ، ويحاولان الوصول الى مكان معين ، ويبحثان عن شـخص معين .. ولامـر ما ، كانا يخلعان قلنسوتيهما وينحنيان لكل كاتب صادفهما ، ثم أنصتا باهتمام الى قرار حمله اليهما أحد الكتبة ، من معارف السيد . **وبدا كل أمل فى انجاز المهمة فى ذلك اليوم يتبدد ، وعاد المتطوع يزداد مرحا وطربا . وفجأة ، رأى دوتلوف أمامه ((ايجور ميخايلوفيتش)) ، فتشبث به لفوره ، وشرع يتوسل اليه ، وينحنى أمامه . وساعده ((ايجور ميخايلوفيتش)) بهمة ، فلم تحن السـاعة الثالثة حتى كان المتطوع قد اقتيد ــ لدهشته واستيائه ــ الى قاعة الفحص** .. وفى غمرة المرح العـام ــ الذى استولى على الجميع ، من العسـس حتى الرئيس ، دون أن يدرى له داعيا ــ خلعت عنه ثيابه ، وألبس ثياب المجندين ، وحلق شعره ، وسيق الى الباب .. وبعد خمس دقائق ، أحصى دوتلوف النقود للسيد ، وتسلم أمر تسريح ابن أخيه ، فودع

المتطوع وسيده ، واسرع الى حيث كان مجندو (بوكروفسك) وكان « ايليشا » وزوجته الشابة يجلسان فى ركن المطبخ ، فما ان أقبل الشيخ حتى أمسكا عن الكلام ، وتطلعا اليه فى توجس ، وان بدا أنهما كانا يكبحان مشاعرهما . وأدى الشيخ صلاة — ارضاء للعادة التى شغف بها — ثم فك حزامه ، وأخرج منه ورقة ، ونادى الى الحجرة كلا من ابنه الاكبر « أجنات » ، وأم ايليشا ، اللذين كانا فى فناء الدار . وتقدم بعد ذلك من ابن اخيه ، فقال له : « **لا تأثم يا ايليشا ! .. لقد آذيتني — ليلة الامس — بكلمة .. أفلست أشفق عليك ؟ .. انني لاذكر كيف ان اخي تركك لي ، فهل كنت أدعك تأتي الى هنا لو كان في مقدوري أن أحول دون ذلك ؟ .. لقد أرسل الله لي حظاً ، ولن أضن به عليك . هاك .. خذ هذه الورقة !** » . ووضع على المنضدة أمر التسريح ، وسوى أطراف الورقة بأصابع متصلبة ، متوترة .. واقبل من الفناء فلاحو (بوكروفسك) ، واتباع صاحب الخان ، بل والاغراب ، وقد حدسوا جميعا ما كان يجرى . ولكن أحدا لم يقطع على الشيخ حديثه الوقور ، فمضى يقول : « هاك الورقة ! .. لقد دفعت من أجلها أربعمائة روبل فضى ، فلا تلم عمك مرة أخرى ! »

ونهض « ايليشا » من مجلسه ، ولكنه ظل صامتا ، لا يدرى ماذا يقول ، وقد راحت شفتاه ترتجفان انفعالا . وأقبلت أمه العجوز ، فكادت ترتمى على صدره باكية ، لولا أن أشار لها الشيخ كى تبتعد ، وواصل حديثه قائلا : « لقد آذيتني — ليلة الامس — بكلمة .. ولقد طعنت فؤادى بتلك الكلمة ، وكأنها سكين ! .. لقد تركك ابوك المتوفى فى رعايتى ، فكنت لى بمثابة ابن ، واذا كنت قد غبنتك فى كل شىء ، فكل حى يأثم ! .. أليس كذلك أيها المسيحيون الاتقياء ؟ » . وتلفت الى الفلاحين الذين احاطوا بالمكان . ثم استطرد : « ها هى ذى أمك ، وزوجتك ، وأمر تسريحك . ولست بنادم على النقود ،

وانما .. اغفر لى ، من اجل المسيح ! » .. وجثا على ركبتيه ، رافعا أطراف معطفه ، وركع على الارض امام « ايليشا » وزوجته . وحاول الشابان جهدهما أن يمنعاه ، فلم يمتنع حتى مست جبهته الارض . واذ ذاك نهض قائما ..

وبكت أم ايليشا وزوجته فرحا ، وانسابت من الجمع كلمات الاعجاب والتقدير ، فقال شخص : « هكذا الانصاف .. هذه هى الطريقة التى ترضى الله ! » . وقال آخر : « ما المال ؟ .. انك لا تملك ان تبتاع امرءا بالمال ! » . وقال ثالث : « يوما السعادة ! .. ما من خلاف فى أن الرجل منصف عادل ! » . ولم يسكت عن التحبيذ سوى الفلاحين اللذين كانا مسوقين الى أداء الخدمة العسكرية ، فقد انسحبا الى فناء النزل .

* * *

بعد ساعتين ، انطلقت عربتا دوتلوف ، مجتازتين أطراف المدينة ، وقد جلس الشيخ و « أجنات » فى الاولى ، وراحت تجرها الفرسة السمينة السمراء ، التى تهدل جنباها ، وتفصد العرق من عنقها .. وكانت تهتز خلفهما خيوط علق بها بعض الخبز الذى صيغ فى أشكال طريفة ، والذى كان الفلاح يعتز به كهدية لاسرته ، فى عودته من المدينة .. أما العربة الاخرى ـ التى لم يكن ثمة من يمسك أعنة جوادها ـ فقد جلست الزوجة الشابة ، وحماتها ، وقد لفتا رأسيهما فى شالين ، وبدا عليهما الفرح والهناء . وكانت الاولى تمسك ـ تحت مرولتها ـ بزجاجة من « الفودكا » . وجلس « ايليشا » القرفصاء ، موليا الحصان ظهره ـ وقد اشتد احمرار وجهه ، وراح يقضم لقما من رغيف ، وهو لا يكف عن الكلام . واندمجت الاصوات ، وقرقعة العجلات على أرض الطريق الحجرية ، وصهيل الجوادين ، فى لحن مرح منسجم .. وأخذ الجوادان يضاعفان من سرعتهما ، وهما يذبان الهواء بذيليهما .

وقد لج بهما الحنــين الى البيت .. بينما كان المـارة ــ من مشاة وركوب ــ يلتفتون ، ليتأملوا الاسرة السعيدة !

وما ان بارح آل دوتلوف المدينة ، حتى صادفوا جماعة من المجندين ، وقف فريق من افرادها فى حلقة امام حانة . وكان احد المجندين يعزف على « البلاليكا » بشدة ، وقد بدا وجهه غير عادى ، كما هى وجوه المجندين عندما يحلق شعر مقدم رؤوسهم ! .. بينما راح آخر يرقص فى وسط الحلقة ، وهو عارى الراس ، وقد امسك بزجاجة من « الفودكا » فى يده . واستوقف « اجنات » فرســه ، وهبط ليحكم ربط اجزاء سرجها . واخذ آل « دوتلوف » جميعا يتأملون الراقص فى فضول ، واعجاب ، وطرب . ولم يلح على المجنــد انه راى احدا ، ولكنه احس بالاعجاب العام ، فزاده هذا اقبالا وخفة . وراح يرقص بشــدة ، وقد عقد حاجبيه ، وتضرج وجهــه ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة فقدت كل معنى . **وكان يغمز بعينه الى عازف ((البلاليكا)) الذى شرع يعزف بحرارة اشد ، ويداعب كل الاوتار ، بل ويدق بعظام أصابعه على ظهر الآلة .** وكان المجند يقف لحظات ، ولكنه يبدو ــ رغم وقوفه ــ كما لو كان مستمرا فى الرقص . ثم شرع يهز كتفيه فى بطء . وفجأة ، دار حول نفسه ، وقفز فى الهواء ، مطلقا صرخة عالية ، ثم هبط ، فأقعى ، وبسط احدى ساقيه ، واتبعها بالاخرى . وضحك الصبية ، وهزت النسوة رؤوسهن ، بينما ابتسم الرجال اعجابا . وكان ثمة « جاويش » مسن وقف ساكنا ، وكانما كانت نظراته تقول : « أو تظنون انه رائع .. لقد ألفنا هذه الرقصة وحذقناها ! » .

وصاح العازف وهو يشير الى دوتلوف : ((اسمع يا اليخا .. هاك كفيلك !)) .. فهتف ((اليخا)) : ((اين ؟ .. اهلا بك يا اعز صديق !)) .. كان هو عين المجند الذى كان دوتلوف قد دفع المال ليحل محل ابن اخيه فى الجندية . وتقدم مترنحا

على ساقيه الكليلتين ، وقد رفع زجاجة « الفودكا » فوق راسه ، وتحرك نحو العربة ، وهو يصيح فى العازف : « هات كوب يا ميشكا ! . . أيها السيد ! أيها الصديق الاعز ! يا له من سرور ! » . واسند راسه الكليل الى حافة العربة ، وشرع يدعو الرجال والنساء الى « الفودكا » . فشرب الرجال ، وابت النسوة . . وكانت ثمة امرأة تبيع بعض المأكولات ــ واقفة بين الحشد ــ فلمحها « اليخا » ، وأمسك بصحفتها ، فأفرغ كل محتوياتها فى العربة ، وصاح فى صوت خنقته العبرات ، وهو يخرج كيس نقوده ، ويطوح به الى ميشكا : « سادفع ، فلا تخافى أيتها اللعينة ! »

ووقف مسندا مرفقيه الى العربة ، متأملا الجالسين فيها من خلف دموعه ، ثم قال : « اين الام . . أهذه أنت ؟ يجب ان أكرمك ! » . ووقف يفكر لحظة ، ثم دس يده فى جيبه ، واخرج منديلا جديدا ، وأسرع فخلع منديلا آخر كان قد لفه حول وسطه ــ تحت سترته ــ ووشاحا أحمر كان يلفه حول عنقه ، وكورها جميعا ، ثم القى بها فى حجر العجوز ، وهو يقول بصوت كان يحتبس تدريجا : « أليك ! . . انتى أقدمها جميعا لك ! » . فقالت العجوز لدوتلوف ، الذى اقبل من عربته : « لماذا كل هذا ؟ . . انظر طيبة هذا الفتى ! » . **وكان « اليخا » قد سكن تماما ، وبدا مسلوب الحواس ، ولاح كأنه يوشك أن ينام . واخذ ينكس رأسه رويدا ، وهو يتمتم : « انما أنا ذاهب الجندية من أجلك . . من اجلك انا ذاهب للهلاك ! هذا هو السبب فى اننى أعطيك هذه الهدايا ! » . . وصاح واحد من وسط الجمع : « اعتقد ان له هو الآخر اما ! يا له من ساذج ! وا أسفاه عليه ! »** . فرفع « اليخا » رأسه ، وقال : « ان لى أما . . ولى أب كذلك ، وقد تخلى عني الجميع » . ثم تحول الى أم ايليشا قائلا : « اسمعى ايتها العجوز ، لقد منحتك هدايا . انصتى لى بحق المسيح ! . .

اذهبى الى قرية (فوذنو) ، وسلى عن العجوز « نيكونوفنا » .. انها أمى ! .. سلي عن العجوز نيكونوفنا ، فى الكوخ الثالث ، من آخر الصف ، بالقرب من البئر الجديدة . وقولى لها أن إبنها « اليخا » .. هل فهمت ! .. اعزف أيها الموسيقى ! »

وتمتم بشيء غير مسموع ، ثم عاد يرقص لتوه ، وهو يطوح بالزجاجة وما تبقى فيها من « فودكا » الى الارض . وصعد « أجنات » الى عربته ، وهم بأن يستأنف السير ، فقالت العجوز للمجند ، وهى تلف عباءتها حولها : « وداعا ! ليباركك الرب ! » . فتوقف « أليخا » فجأة ، وصاح وهو يهز قبضتيه فى وعيد : « اذهبى الى الشيطان ! .. لعلك أمك .. » . **ورسمت أم ايليشا الصليب متعوذة . وانطلقت العربتان . ووقف « اليخا » فى وسط الطريق بقبضتين مشدودتين ، ونظرة مهتاجة،وراح يسب الفلاحين بكل ما أوتى من سباب .** وتهدج صوته ، ثم ارتمى على الارض ، حيث كان يقف !

وسرعان ما بلغ آل « دوتلوف » الحقول ، ولم يعودوا يبصرون جماعة المجندين . وبعد أن قطعوا أربعة أميال ، هبط « أجنات » من عربته ــ التى كان أبوه قد نام فيها ــ وسار الى جوار عربة « ايليشا » .. واقتسم مع الشاب زجاجة « فودكا » كانا قد اشترياها من المدينة .. **وان هى الا برهة ، حتى شرع « ايليشا » يغنى ، فانضمت اليه المرأتان ، بينما راح « اجنات » يصيح طربا** . ومرت بهم عربة أنيقة ، كانت تنطلق فى خفة ، فصاح الحوذى فى جياده منتشيا ، والتفت مساعده الى الرجال والمرأتين ــ الذين كانوا فى العربتين ــ وغمز بعينه ، بينما كانوا يهتزون مع ارتجاج العربتين ، وقد احمرت وجوههم ، وهم ماضون فى أغنيتهم الطروب !

ــ « تمت » ــ

فارسان .. وعذراء !



تمهـــــيد

• في اوائل القرن التاسع عشر ، عندما لم تـكن ثمة بعد سكك حديدية ، وولا طرق مرصوفة ، ولا اضاءة بالغاز ، ولا شموع من « الستيرين » (١) ، ولا مركبات منخفضـة ذات وسائد مجهزة بزنبركات ، ولا أثاث بدون طلاء لامع ، ولا شباب مغرور ذو عوينات (نظارات) ، ولا فيلسوفات من دعاة التحرر ، ولا أي من « غادات الكاميليا » الفاتنات اللاتي يوجدن فى ايامنا بكثرة .. فى تلك الايام الساذجة ، عندما كان المرء ــ اذا سافر من موسكو الى بطرسبورج فى مركبة مغلقة ، أو عربة مجهزة بملء مطبخ من المؤن المعدة ــ يقضي ثمانية ايام فى طريق لينة الارض ، أو متربة ، أو موحلة ، معتمدا على شرائح اللحم المقلوة ، وعلى الكعك العادى ، وعلى اجراس الزحافات .. وعندما كان من الضرورى اصلاح فتائل الشموع المصنوعة من الشحم ، والتى كانت تلتف حولها الجماعات العائلية ، مؤلفة من عشرين وثلاثين شخصا ، فى ليالى الخريف الطويلة .. وعندما كانت قاعات الرقص تضاء بثريات الشمع الشحمى أو الشمع المصنوع من عنبر الحوت .. وعندما كانت قطع الاثاث ترتب فى نظام هندسى دقيق .. **وعندما كان آباؤنا لا يزالون شبانا ، لا يكتفون باثبات ذلك بمجرد غياب التغضنات والشعر الاشيب ، وانما بخوض المبارزات من أجل امراة ، وبالاندفاع من الركن المقابل من حجرة ما لالتقاط منديل ضئيل الحجم اسقط عمدا او عفوا .. وعندما كانت امهاتنا يرتدين اثوابا مرتفعة خط**

الوسط ، وآكماما هائلةمنتفخة ، ويتخذن القرارات فى الشؤون العائلية عن طريق سحب القرعة (الاقتراع بالورق المطوى) !..
وعندما كانت « غادات الـكاميليا » الفاتنات يختبئن من ضوء النهار فى مساكن الماسونية» و«المارتانية» ، و«التوجينبوند» (٢)، فى تلك الايام الطيبـــة .. أيام الميلوردوفيتشـيين (٣) ، والدافيدوفيين (٤) ، والبوشكينيين (٥) .

فى تلك الايام ، عقد اجتماع فى مدينة (ك ...) التابعـة للحكومة ، حضره أصحاب الاراضى ، واجريت فيه انتخابات الاعيان (٦)

• • • • • • •

ايضاحات وتعليقات على ما ورد فى التمهيد

(١) الستيرين مادة كيمياوية استخدمت فى صناعة الشموع بدلا من الشحم.
(٢) كانت الماسونية الحرة جمـاعة سرية فى روسيا ، غرضـها الأصلى الاصلاح الخلقى على أسس من المساواة والأخوة العـامة . وقد بدات كحركة دينية ، ثم انقلبت الى حركة سرية ، واضطهدت فى اوائل القرن التاسع عشر. وكانت « المارتانية » جماعة من الماسونيين الروس ، انتسبوا الى الفيلسـوف الصوفى الفرنسى « لوى كلود سـان مارتان » . اما « التوجينبوند » فكانت جمعية وطنية المانية ، اتخذت مثلا فى روسيا للشباب المتحمس ، ولعبت دورا رئيسيا فى التهيئة لحرب سنة ١٨١٢
(٣) نسبة الى « م. هـ. ميلورادوفيتش » الذى ابلى بلاء حسنا فى الحرب ضد نابليون . وصار حاكما عاما لبطرسبورج ، واغتيـل عندما حاول قمع « فتنة ديسمبر » سنة ١٨٢٥
(٤) نسبة الى « د. ف. دافيدوف » ، وكان شاعرا ذا شهرة شـعبية ، وزعيما لفرق العصابات فى حرب سنة ١٨١٢
(٥) نسبة الى « ا. س. بوشكين » اعظم شاعر روسى اذ ذاك .
(٦) انتخابات كانت تجرى بين الأعيان ، من اصحاب الألقاب ، والأغنياء ، واصحاب الأراضى.



— ((١)) —

• — لا بأس .. فان قاعة الجلوس (الصالون) تغنى !

قال هذه الكلمات ضابط شاب فى معطف من الفراء ، وقلنسوة كتيبة الفرسان الخفيفة ، وقد غادر لفوره زحافة خط البريد ، وهم بأن يدخل أحسن فندق فى مدينة (ك...) .

وقال خادم الفندق ، الذى استطاع ان يعلم من تابع الضابط أن اسمه « الكونت توربين » ، ومن ثم فقد راح يخاطبه بـ « صاحب السعادة » : « لقد حضر الاجتماع عدد هائل يا صاحب السعادة . على أن مالكة اراضى (أفريموفو) قالت انها راحلة الليلة ، ومعها بناتها ، ومن ثم فان الحجرة رقم ١١ ستكون تحت أمركم بمجرد رحيلهن ! » . وراح يخطو بخفة أمام « الكونت » وهو لا يكف عن التلفت حوله .

وفى قاعة الجلوس العامة ، والى منضدة صغيرة — تحت صورة مغبرة بالحجم الطبيعى للامبراطور الكساندر الاول — جلس عدد من الرجال ، يشربون «الشمبانيا» ، ولعلهم كانوا من اعيان المنطقة .. بينما جلس فى الطرف الآخر من القاعة، بعض الرحالة .. تجار فى معاطف زرقاء ، مبطنة بالفراء ! .

ودخل الفارس القاعة مناديا « بلوخر » .. وهو كلب مغبر اللون ، هائل الحجم ، أحضره معه . وخلع « الكونت » معطفه الذى كانت ياقته لا تزال مكسوة بالصقيع الابيض ، وصاح يطلب « فودكا » ، وجلس الي المائدة فى سترته القوزاقية

انحريرية الزرقاء ، واندمج في حديث مع السادة الموجودين . وسرعان ما اجتذبتهم اليه طلعة القادم المليحة الصريحة ، فقدموا اليه قدحا من « الشمبانيا » . واحتسى الكونت قدحا من « الفودكا » - بادىء ذى بدء - ثم طلب زجاجة اخرى من « الشمبانيا » ، ليكرم معارفه الجدد . وأقبل سائق الزحافة ليسأل الكونت مكافأة (بقشيشا) ، فصاح الكونت : « ساشكا ! اعطه شيئا ! »

وخرج السائق مع « ساشكا » ، ولكنه عاد ثانية والنقود فى راحته ، وهو يقول : « انظر يا صاحب السعادة .. ألم أبذل قصارى جهدى من اجل فخامتكم ؟ .. ألم تعدنى بنصف روبل ؟ .. ولكنه لم يعطنى سوى ربع روبل ! »

- اعطه « روبل » يا ساشكا !

فغض « ساشكا » بصره ، ونظر الى قدمى السائق ، ثم قال بصوت منخفض : « يكفيه ما أخذ ! .. ثم انه لم تعد معى نقود ! » . وجذب الكونت من حافظة نقوده ورقتين ماليتين من فئة الخمسة روبلات ، كانتا كل ما احتوته الحافظة ، فأعطى احداهما للسائق الذى قبل يده وانصرف .

وقال الكونت : « لقد استنزفت كل ما كان معى ! .. هذه الروبلات الخمسة هى آخر ما معى ! » . فقال أحد النبلاء : « هكذا عادة ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة يا كونت ! » . وكان يبدو من شاربيه ، وصوته ، وبعض الحركات المتحررة من ساقيه ، انه كان من الفرسان المتقاعدين . وما لبث أن تساءل : « أتراك ستقيم هنا بعض الوقت يا كونت ؟ »

- لا بد لى من الحصول على بعض المال . وما كنت لانزل هنا اطلاقا ، لولا هذا .. ومع ذلك ، فلا غرف يمكن الحصول عليها فى هذا النزل اللعين .. الا فليتخطفهم الشيطان !

فقال الضابط الفارس المتقاعد : « الا اسمح لى ياكونت .. هلا شاطرتنى غرفتى ؟ .. ان غرفتى هى رقم ٧ ، فاذا لم

يسؤك هذا ، فلك ان تشاطرنيها الليلة ..ثم ، الا تمكث معنا يومين ؟ .. ومن المصادفات ان « ماريشال طبقــة النبلاء » يقيم الليلة حفلة راقصة . ولسوف تزيده سعــادة اذا انت ذهبت ؟ »

وقال آخر . وكان شابا وسيما : « أجل يا كونت . الا امكث معنا ! .. من المؤكد ان ليس هناك من داع لتعجل الرحيل ! انك لتعلم انها لا تحــدث الا مرة كل ثلاث سنوات .. أعنى الانتخابات . وجدير بك أن تلقي نظرة على سيداتنا الشابات .. ـ على الاقل ـ ياكونت ! » . فنهض الكونت قائلا :« ساشكا . أعد ثيابا داخلية نظيفة ، فانني ذاهب الى الحمام (١) . وربما القيت نظرة على حفلة الماريشال بعد ذلك »

ثم نادى الساقي وهمس اليه بكلمات ، اجاب عنها هذا ، وهو يبتسم : « ان هــذا أمر يمكن تدبيره ! » (٢) . وخرج الساقي .. وخرج الكونت . وما لبث أن صاح من الردهة : « اذن فسآمر بنقل حقيبتي الى حجرتك ايها الزميل العزيز! » . فصاح ضابط الفرسان المتقاعد : « أرجو ان تفعل ، فلسوف يسعدني هــذا كل الاسعاد ! » . وهرع الى البــاب مردفا : « الحجرة رقم ٧ .. لا تنس ! »

* * *

وعندما لم يعد وقع خطى الكونت مسموعا ، عاد الضابط الفارس المتقاعد الى مكانه ، فجلس بجوار موظف حكومي كان بين الحضور ، وحملق في وجهه مبــاشرة ، وقال وعينــاه

---

(١) كانت الحمامات في روسيا ، على نمط ما نعرفه اليــوم بـ « الحمام التركي » .. مؤسسات عامة يذهب اليها المرء ، حيث يتعرض للبخــار لطرد العرق .

(٢) كان من المالوف ان يقترن الحمام بامراة . وهذا ما اتفق عليه الكونت مع ساقي الفندق

تينسمان : « انه نفس الرجل ، كما ترى ! »

ـ كلا !

ـ أؤكد لك انه هو ! .. نفس ضابط كتيبة الفرسان الخفيفة ، البارع في المبارزة .. توربين الشهير ! .. ولا بد انه عرفني .. اراهنك ـ على اى مبلغ شئت ـ أنه عرفني. وكيف لا ؟ .. لقد قضينا في اللهو معا ثلاثة اسابيع متواصلة، عندما كنت في (لبيدياني) ،حيث نعمنا بألعاب الفروسية (١). وكان ثمة شيء واحد ، وفق فيه كل منا .. هو وأنا .. انه لشاب بديع . أليس كذلك ؟

ـ انه لشاب رائع .. وان اخلاقه لتشرح الصدر ! فهو لا يبدى ذرة من .. ماذا يسمونه ؟

وقال الشاب الوسيم : « ما أسرع ما توثق الود بيننا ، وزالت الكلفة .. انه لم يتجاوز الخامسة والعشرين .. اتراه تجاوزها ؟ »

ـ آه ، كلا .. انه يبدو هكذا ، ولكنه فوق هذه السن . ان على المرء ان يعرفه عن كثب ، ليدرك هذا الامر ، كما تعلم .. من الذى سلب « ميجونوفا » مجده ؟ .. انه هو ! وهو الذى قتل «سايلين» . وهو كذلك الذى امسك بساقي «ماتنئيف» وطوح به من النافذة .. وهو الذى ربح ثلاثمائة ألف روبل من الامير نيستوروف . انه لشيطان مريد ، **جسور في كل شيء : مقامر ، ومبارز ، وفاتن يغوى الحسان .. انه لدرة في كتيبة الفرسان الخفيفة .. لؤلؤة حقيقية !** .. ان الشائعات التى تحوم حولنا لاتقاس بالحقيقية في شيء .. اذا قدر للمرء ان يعرف فرسان الكتيبة الخفيفة على حقيقتهم ! .. آه ، تلك كانت أوقات وانقضت !

---

(١) لبيدياني بلدة في مقاطعة (تامبوف) ، اشتهرت باسواق الخيل ومهرجانات الفروسية

وراح الفارس المتقاعد يروى لمحدثه عن فترة للهو قضاها مع الكونت فى (لبيدريانى) ، لم يحظ بمثلهـــا ، بل وما كان بوسعه أن يحظى بمثلها قط .

ومع ذلك فما كان من الممكن ان تكون قد حدثت .. أولا ، لانه لم يكن قد رأى الكونت قبل ذلك اليوم ، وقد ترك الجيش قبل أن يلتحق به الكونت بعامين .. وثانيا ، لان الفارس المتقاعد لم يخدم فى فرقة الفرسان اطلاقا ، وانمـا ظل أربع سنوات فى أدنى مراتب الناشئين فى كتيبة (بليفسكى) ، وقد تقاعد بمجرد أن قدر له ان يحظى برتبة الضابط .. بيد انه ورث ـ منذ عشر سنوات ـ بعض المال ، وزار (لبيديانى) فعلا ، حيث بدد سبعمائة روبل مع بعض ضباط كانوا قـد ذهبوا الى هناك لشراء خيل .. بل انه ذهب الى أبعـــد من هذا ، فأمر بأن تصنع له بزة رسمية على نمط الزى الخاص بفرسان « الاوغلان » ، ذات وشى برتقالى فى صدرها ، معتزما أن يلتحق بكتيبة من كتائب « الاوغلان » . وقد ظلت هـذه الرغبة فى الالتحاق بالفرسان ، والاسابيع الثلاثة التى قضاها مع الضباط الفرسان فى لبيديانى من أسعد ذكريات حياته وأكثرها تألقا. **ومن ثم فقد حول الرغبة ـ فى بادىء الامر ـ الى حقيقة ، ثم الى ذكرى واقعية ، وتعود أن يعتقد اعتقادا وطيدا بماضيه كضابط من الفرسان .. وكلها أشياء لم تحل دون أن يكون من أكثر الرجال مكانة ، من حيث اللطف والامانة !**

وقال : « أجل ، أن أولئك الذين لم يقدر لهم أن يخدموا فى سلاح الفرسان ، لا يستطيعون أن يفهمونا اطلاقا ! »

وجلس فى مقعده منفرج الساقين ، وكأنه على صهوة جواد ، ودفع فكه السفلى فى زهو ، وشرع يقول بصـــوت منخفض وقور : « انك لتركب على رأس فصيلتك ، لا جوادا من الجياد العادية ، وانما شيطانا يتجسد حصانا يقفز متوثبا تحتـك ، فلا تملك سوى أن تجلس مستهترا ، مستخفا .. ويركب

قائد الفصيلة مستعرضا فرسانه ، فيقول : « اننا لا نستطيع أن نستغنى عنك ايها الملازم . تفضل بقيادة الفصيلة فى طابور استعراضي » .. فتقول : « حسنا ! » .. وهكذا تروح تلف وتدور ، وتصيح فى زملائك ذوى الشوارب .. آه ، ليتخطفها الشيطان .. تلك الايام ! »

* * *

وعاد الكونت من الحمام شديد الحمرة ، مبتل الشعر ، فمضى مباشرة الى الحجرة رقم ٧ ، حيث كان الفارس المتقاعد جالسا فى ثوب الغرفة (الروب دى شامبر) ، وهو يدخن غليونه ، يفكر فى سرور — وان لم يخل من التوجس — فى السعادة التى حلت به ، اذ شاطر « توربين » الشهير غرفة .. وكان يقول لنفسه : « ولكن ، هب انه يمسك بى فجأة ، ويجردنى من ثيابى ، ويسوقنى الى أبواب المدينة ، ويلقى بى فى الجليد .. أو يجللنى بالقار .. أو يكتفى بأن .. » . ثم يستدرك ليسرى عن نفسه : « ولكن ، لا .. انه لا يرتضى لنفسه أن يفعل هذا بزميل »

وفى تلك اللحظة ، صاح الكونت ، وهو يلج الغرفة : « ساشكا .. اطعم بلوخر ! »

وأقبل « ساشكا » الذى كان قد تناول زجاجة من « الفودكا » لينعش نفسه من عناء الرحلة ، فراح يترنح بما لا يدع شكا فى انه قد ثمل . وصاح الكونت : « عجبا ، أتثمل منذ الآن ؟ ! .. أكنت تشرب أيها الوغد ! .. هيا اطعم بلوخر ! » . فأجاب ساشكا وهو يربت ظهر الكلب : « انه لن يموت جوعا على اية حال .. الا انظر كيف انه ناعم ! »

— اخرس ! .. اخرج واطعمه !

— انك تهتم بأن يتغذى الكلب .. اما حين يشرب الرجل قدحا ، فانك تؤنبه وتزجره !

فصرخ الكونت بصوت ارتجله زجاج النوافذ .. بل وداخل الخوف ــ من جرائه ــ قلب الفارس المتقاعد ، بعض الشيء : « هاى ! .. لسوف أسوطك ! » . فدمدم ساشكا : ((**كان خليقا بك أن تسأل عما اذا كان ساشكا قد ظفر بلقمة فى يومه ! .. اجل ، اضربنى ما دمت تفكر فى الكلب أكثر مما تفكر فى رجل !**)) . ولكنه ــ عند هذا الحد من دمدمته ــ تلقى لكمة فظيعة أصابت وجهه ، من قبضة الكونت ، فوقع ، وارتطم رأسه بحافة الجدار .. وأمسك بأنفه وهو يهرب من الحجرة ، ويرتمى على مقعد فى الردهة .

وأخذ ساشكا يزمجر ويئن ، مرددا : ((**لقد حطم أسنانى !**)) .. وباحدى يديه راح يمسح أنفه الذى تفصد الدم منه ، بينما كان يحك ــ بيده الاخرى ــ ظهر « بلوخر » الذى كان يلعق جسده بلسانه . واستطرد ساشكا يحدث الكلب : ((**لقد حطم أسنانى يا بلوخى ، ولكنه ــ رغم ذلك ــ سيدى الكونت ، وانى لاخوض النار من اجله .. اجل ! فهو .. هو كونتى . اتفهم يا بلوخى ؟ .. اتريد عشاءك ؟ هه ؟**))

وبعد أن ظل مستلقيا ساكنا لبرهة ، نهض فأطعم الكلب ، ثم سعى الى خدمة سيده الكونت ، وقد أفاق تقريبا من تأثير الشراب ، فتهيأ ليقدم له الشاى .

وكان الفارس المتقاعد يقول فى تلطف وتقرب ، وهو يقف أمام الكونت الذى استلقى فى سرير الرجل ، ومد ساقيه الى الجدار : « الحق اننى سأشعر بجرح لكرامتى . فأنت ترى اننى عسكرى قديم ، و .. زميل ، اذا جاز لى أن أقول ذلك . فلماذا تقترض من اى امرىء آخر ، اذا كان يسرنى أن أقرضك مائتى روبل ؟ .. ان المبلغ ليس معى بأكمله الآن ، وانما معى منه مائة روبل .. على اننى سأحضر الباقى اليوم .. لسوف تجرح شعورى حقا يا كونت ، اذا انت أبيت ! »

وقال الكونت ، وقد أدرك لفوره نوع العلاقات التى كان

لا بد من أن تقوم بينهما ، فدق بيده كتف الفارس : ((شكرا ، ايها الصديق الحميم ! شكرا ! .. ليكن لك ما شئت الآن ، وسنذهب الى حفلة الرقص ، اذا لم يكن من ذلك بد . ولكن ، ماذا نفعل الآن ؟ .. حدثني عما اوتيتم في بلدتكم هذه .. اى نوع من الحسان ؟ واى رجال أهل لأن يكونوا زملاء في اللهو ؟ واية مقامرات تعقد ؟))

فأخذ ضابط الفرسان يبين له أن الحفل سيكون غاصا بكثيرات من المخلوقات البديعة ، وان « كولكوف » ــ الذى أعيد انتخابه قائدا للبوليس ــ كان خير زميل في اللهو ، وان كانت تعوزه روح ضباط الفرسان الحقة .. كان رجلا رائعا، فيما عدا ذلك ، حقا .. كذلك كانت فرقة الموسيقى الغجرى « ايليوشين » في المدينة تقيم حفلاتها الغنائية ــ منذ بدأت الانتخابات ــ بقيادة « ستيشكا » ، وان كل امرىء كان يعتزم الذهاب لسماع اغانيها ، بعد الانصراف من دار الماريشال، في تلك الليلة .. ومضى قائلا : « وهناك كثير من العاب المقامرة كذلك .. لسوف يلعب « لوخنوف » الورق ، وقد أوتى نقودا كثيرة . وهو يقيم هنا خلال رحلته .. وقد خسر « ايلين » ــ وهو حامل العلم في سرية من فرسان «الاوغلان»، ويشغل الحجرة رقم ٨ ــ مبلغا كبيرا أثناء اللعب معه . ولقد شرعا في اللعب في هذه الحجرة بالذات ، واصبحا يلعبان كل ليلة . ويالايلين هذا من شاب بديع ! .. اؤكد لك يا كونت انه ليس مقترا او بخيلا ، بل انه ليتخلى عن آخر قميص على جسده ، راضيا ! » . فقال الكونت : « حسنا ، اذن فلنذهب الى حجرته ، ولنر اى نوع من القوم اولئك الذين يلعبون هناك !» . وقال الآخر : « اجل ، هيا .. لسوف تتملكهم فرحة الشيطان نفسه ! »



— « ٢ » —

• لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ « ايلين » ، حامل العلم فى كتيبة فرسان « الاوغلان » . فقد جلس — فى الليلة السابقة — الى أوراق اللعب فى الساعة الثامنة مساء ، وراح يخسر باطراد لخمس عشرة ساعة بأكملها .. أى الى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى . ولقد خسر مبلغا كبيرا ، ولكنه لم يعرف مدى ضخامته تماما . **فقد كان معه حوالى ثلاثة آلاف روبل من نقوده الخاصة ، وخمسة عشر الفا من الروبلات ، من أموال التـــاج التى امتزجت بأمواله الخاصة منذ مدة طويلة ، حتى أصبح يخشى أن يحسب ما معه ، حتى لا تتأكد مخاوفه من ان قسطا من أموال التاج قد تبدد !**

وكان النهار قد انتصف تقريبا ، عندما استسلم للنعاس ، فحظى بذلك النوم العميق ، الخالى من الاحلام ، الذى لا ينعم به سوى الشبان الصغار فى السن ، عقب أن يمنوا بخسارة فادحة . وما أن استيقظ فى الساعة السادسة من المساء — فى عين الوقت الذى وصل فيه الكونت توربين الى الفنـدق — وأبصر الارض حوله وقد تناثرت عليها أوراق اللعب ، وبقايا أقلام الطباشير ، ورأى الموائد فى وسط الحجرة مجللة بعلامات الطباشير ، حتى تذكر — فى جزع — لعب الليـلة الماضيـة ؛

والورقة الاخيرة ـ وكانت « فاليه » ـ التى خسر عليها خمسمائة روبل .. على أنه لم يكن قد اقتنع بعد تمام الاقتناع بكل هذا ، فاخرج نقوده من تحت الوسادة ، وشرع يعدها .. وتبين بينهما بعض أوراق مالية تنقلت من يد الى أخرى ، فتذكر كل تطورات اللعب .. **ولم يكن قد تبقى معه شيء من الثلاثة آلاف روبل التى كانت من ماله الخاص ، كما أن حوالى ألفين وخمسمائة روبل من أموال الحكومة كانت قد ولت .. فلقد قضى « ايلين » أربع ليال متوالية ، فى اللعب !**

كان قد أقبل من موسكو ، حيث عهد اليه بذلك المبلغ من أموال التاج ، فلما بلغ (ك ...) عطله المشرف على مركز البريد (١) بحجة أنه لم تكن هناك جياد . ولكن السبب الحقيقى تمثل فى أن المشرف كان على اتفاق مع صاحب الفندق على أن يعطل المسافرين يوما عن مواصلة أسفارهم ! .. ولقد سر فارس « الاوغلان » ، الذى كان شابا فى غضارة الصبا ، تلقى من والديه ـ فى موسكو ـ ثلاثة آلاف روبل ليجهز نفسه للالتحاق بكتيبته .. سر بقضاء بضعة أيام فى بلدة (ك ...) ابان الانتخابات ، أملا فى أن يمتع نفسه الى أقصى حد . وكان يعرف سيدا من أصحاب الارض ، ذا أسرة ، فراح يفكر فى زيارته ، وفى مغازلة بناته .. **واذا بالفارس المتقاعد يتعرف اليه ، فى تلك الاثناء ، ثم يقدمه ـ دون ما سوء نية ـ الى معارفه فى قاعة الجلوس العامة ، أو القاعة العامة فى الفندق ، فى المساء ذاته .. وكان هؤلاء المعارف هم « لوخنوف » وغيره من المقامرين** . ومنذ ذلك الحين ، عكف ضابط « الاوغلان » على لعب الورق ، ولم يعد يسأل مركز البريد عن جياد .. وأصبح أقل رغبة فى الذهاب لزيارة صاحب الارض الذى كان

---

(١) كان البريد ينقل اذ ذاك فى عربات وزحافات خاصة ، يسمح للمسافرين بأن يسافروا فيها ، أو بأن يستاجروا الجياد من مركز الى آخر

يعرفه .. بل أنه لم يبرح حجرته أربعة أيام بطولها !

* * *

واذ ارتدى ثيابه واحتسى الشاى ، سار الى النافذة . وشعر بميل الى أن يخرج ويتمشى ويتخلص من الافكار التى راحت تطارده ، فارتدى معطفه وخرج الى الطريق . وكانت الشمس قد توارت خلف المنازل البيضاء وسقوفها الحمراء ، وأخذت الظلمة تزحف .. وكان الجو دافئا بالنسبة لما هو مألوف فى الشتاء ، ومع ذلك فقد كانت كسف عريضة من الثلج تتساقط فى بطء الى الطريق الموحلة .. وفجأة ، غشى الشاب أسى لايطاق ، اذ تذكر أنه نام طيلة النهار الذى اشرف على نهايته.

وقال لنفسه : « ان هذا اليوم ، الذى يحتضر الآن ، لا يمكن ان يسترد ثانية! » .. ثم قال لنفسه فجأة : « لقد دمرت شبابى! » .. لم يقلها لانه فكر حقا فى انه قد دمر شبابه ـ فالواقع ان هذا لم يخطر بباله اطلاقا ـ وانما قالها لانها عرضت لذهنه مصادفة ! .. وعاد يسائل نفسه : « ما الذى ينبغى ان أفعله الآن ؟ .. اقترض من شخص ما ، وابادر الى الرحيل ؟ » .. ومرت به فى تلك الاثناء سيدة كانت تسير على الرصيف ، فقال لنفسه لسبب لم يدره : « ها هى ذى امرأة غبية ! » . ثم عاد يقول : « ما من أحد هنا اقترض منه .. لقد دمرت شبابى ! »

وبلغ السوق ، فاذا بتاجر يقف لدى باب حانوته ـ فى معطف من فراء الثعلب ـ يجتذب العملاء .. ومضى الشاب يقول لنفسه : « لو لم اسحب تلك الثمانية ، لكنت قد استطعت أن أن أعوض خسائرى ! » .. وتبعته متسولة عجوز ، لا تكف عن الغمغمة .. وظل هو يردد : « ما من أحد أقترض منه ! » .. ومر به رجل فى معطف من جلد الدب ، يسوق عربة .. وكان ثمة شرطي يقف فى المركز المعين له .. وراح الشاب يقول لنفسه : « اى عمل غير عادى أستطيع ان آتيه ؟ أأطلق النار

عليهم ! لا ، ان هذا غباء .. لقد دمرت شبابي ! .. آه ، ها هي بعض سروج بديعة لاعناق الخيل ، وركابات ، معلقة هناك ! آه ، لو كان بوسعي أن انطلق في عربة تجرها ثلاثة جياد .. واها للحسان هناك ! .. لسوف أعود . وسيأتي « لوخنوف » عما قليل ، ونلعب ! »

وعاد الى الفندق ، فأخذ يحصي نقوده من جديد .. لا ، لم يكن قد أخطأ في شيء ــ في المرة الاولى ــ فلا يزال ينقص نقود التاج ألفان وخمسمائة روبل .. وقال لنفسه : ((**سأرمي خمسة وعشرين روبل ، ثم أطلب كشف الورق .. سأضاعفها الى سبعة أمثالها ، ثم الى خمسة عشر مثلا ، ثم ثلاثين ، ثم ستين .. ثلاثة آلاف روبل . واذ ذاك سأبتاع أطواق الجياد ، وارحل ..لن يدعني الوغد افلت ! .. لقد دمرت شبابي !))**

وهذا ما كان يدور في راس فارس « الاوغلان » عندما دخل عليه « لوخنوف » الحجرة ، وسأله وهو يرفع ــ في تباطؤ ــ العوينتين الذهبيتين عن أنفه النحيل ، ويمسحهما بمنديل حريري أحمر ، في عناية : « هل استيقظت منذ أمد طويل يا ميخائيل فاسيليتش ؟ »

ــ لا ، بل انني لم استيقظ الا من أمد قصير .. لقد نمت نوما عميقا ، على غير عادتي !

ــ لقد وصل أحد ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة ، على ما اعتقد . وقد نزل على حجرة زافالشيفسكي . هل سمعت به؟

ــ لا ، لم اسمع .. ولكن ، كيف تعلل عدم وصول أحد الى هنا حتى الآن ؟

ــ لا بد انهم ذهبوا الى دار برياخين .. ولن يلبثوا أن يأتوا الى هنا فورا .

وهذا ما حدث فعلا ، فبعد قليل وفد على الحجرة أحد ضباط الحامية ــ وكان قد اعتاد أن يلازم ((لوخنوف)) دائما ــ وتاجر يوناني له أنف ضخم اسمر معقوف وعينان سوداوان

غائرتان ، ورجل سمين منتفخ من اصحاب الارض ، وصاحب مصنع للتقطير اعتاد أن يلعب فى كل الامسيات ، وأن يراهن بمبالغ رمزية ، تتمثل دائما فى نصف روبل فى كل مرة ..
ورغب الجميع فى ان يبدأوا اللعب بأسرع ما يمكن ، ولكن المقامرين الرئيسيين لم يشيروا الى الموضوع بشيء ، لا سيما لوخنوف الذى راح يروى ـ فى صوت هادىء للغاية ـ قصة سرقة وقعت فى (موسكو) . واخذ يقول:«تصوروا..مدينة مثل موسكو، العاصمة التاريخية ، والمركز الرئيسي للدولة .. فيها رجال يتنكرون فى زى شياطين ، وينطلقون فى أرجائها مع قطاع الطرق ، يرهبون الاغبياء ويسرقون المارة .. هذه هى النهاية ! .. فيم اذن وجود الشرطة ؟ .. هذا هو السؤال ! »
وأنصت فارس « الاوغلان » الى قصة اللصوص بانتباه . ولكنه ما لبث ـ عندما ساد الصمت برهة ـ أن نهض وامر بهدوء بشراء ورق للعب . وكان صاحب الارض البدين هو أول المتكلمين ، اذ تساءل : « وبعد يا سادة .. فيم تبديد الوقت الثمين ؟ اذا كنا نريد العمل ، فلنبدأ ! » .. وقال اليونانى : « أجل ، فأنت قد انصرفت بكومة من انصاف الروبلات ليلة أمس ، ولهذا فقد أحببت العملية ! » .. وقال ضابط الحامية : « أعتقد أننا يجب أن نبدأ ! »
ونظر « ايلين » الى « لوخنوف » ، فسدد لوخنوف بصره اليه ـ فى هدوء ـ وهو يستأنف رواية قصته عن اللصوص الذين تزيوا بزى الشياطين ، واصطنعوا لانفسهم مخالب . وسأل فارس الاوغلان صاحبه : « هل تتولى (البنك) ؟ »
ـ ألا ترى ان الوقت جد مبكر ؟
فصاح فارس الاوغلان ، وقد تضرج وجهه لسبب غير معروف : « مرحى ! .. آتونى بشيء للعشاء ، فما تناولت بعد شيئا ، أيها السادة ! .. زجاجة من الشمبانيا ، وبعض مجموعات من أوراق اللعب ! »

وفى تلك اللحظة ، ولج الكونت وزافالشيفسكى الحجرة . وظهر أن « توربين » و « ايلين » كانا يتبعان فرقة واحدة ، فمال كل منهما الى الآخر فورا ، وتقارعا الكؤوس ، واحتسيا الشمبانيا معا ، وتوثقت بينهما الالفة والمودة فى خمس دقائق ! .. ولاح أن الكونت قد أحب « ايلين » كثيرا ، فقد راح ينظر اليه مبتسما ، ويداعبه مازحا بشأن صغر سنه . فقد قال : « هاكم أوغلانى من الصنف الصحيح ! .. يا لشاربيه ! .. عجبا ، أى شاربين هذان ! »

وكان ما لدى ايلين من شاربين ، لا يتجاوز خطا خفيفا ، من زغب أبيض ! .. وعاد الكونت يقول : « أحسبك ستلعب ؟ .. حسنا ، أتمنى لك حظا يا ايلين! » ، ثم أردف وهويبتسم : « ما أخالك الا أستاذا فى اللعب ! » . فقال لوخنوف ، وهو يمزق غلاف علبة ضمت اثنتى عشرة مجموعة من ورق اللعب : « أجل .. ولسوف يبدأون اللعب ، وستنضم انت الآخر يا كونت .. أليس كذلك ؟ »

ـ لا ، ليس اليوم ، فانى قمين بان اجردكم جميعا من نقودكم اذا لعبت .. انني حين ابدأ فى « الاهتمام » الصادق باللعب ، فان (البنك) يشرع فى التداعى! .. لقد نظفوا جيوبى فى احدى المحطات القريبة من (فولوتشوك) ، فقد التقيت هناك بشاب من فرقة المشاة ، يزين اصابعه بخواتم .. وأحسب أنه غشاش .. وقد استطاع أن يجردنى تماما من نقودى !

فسأله ايلين : « ولماذا أطلت المكث فى تلك المحطة ؟ »

ـ انما جلست هناك اربعا وعشرين ساعة . ولن انسى قط تلك المحطةاللعينة !.. ولن ينسانى المشرف عليها ، هو الآخر ..

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لقد وصلت فى مركبتى الى هناك ، كما هو معروف . واذا بالمشرف على المحطة يندفع لاستقبالي ـ وقد بدا كقاطع

الطريق ـ وبادرني قائلا : « لا جياد ! » . ويجدر بى أن أخبركم ـ عند هذه النقطة ـ ان من عادتى اذا لم أجد جيادا ، أن لا أخلع معطفى المصنوع من الفراء ، وان أذهب الى غرفة المشرف .. أجل ، الى غرفته الخاصة ، وليس الى الغرفة العامة .. وأمرت بأن تفتح جميع النوافذ والابواب ، متعللا بأن جو الغرفة كان مشبعا بالدخان .. أجل ، هذا ما فعلته هناك . وانتم تذكرون أى صقيع نزل علينا فى الشهر الماضى .. كانت درجة الحرارة حوالى العشرين درجة ! (١) .. وشرع المشرف يجادلني ، فلكمت رأسه . وكانت ثمة امرأة عجوز ، وبنات ، ونسوة أخريات ، اشتركن جميعا فى أثارة الشغب والتقطن أوعيتهن وأوانيهن وقد عولن على أن يندفعن صوب القرية . فسرت الى الباب ، وقلت : « آتونى بجياد ، أرحل لفورى . فان لم تمكنونى ، فلن يخرج منكم أحد ، وسأدع التيار المنساب من النوافذ يجمد الدم فى عروقكم ! »

وصاح مالك الارض البدين ، وهو يتقلب فى مقعده لفرط الضحك : « انها لخطة جهنمية رائعة ! .. انها الطريقة التى يقضون بها على الصراصير بالتجمد ... »

ـ ولكننى لم أكن حذرا فى انتباهى ، فاستطاع المشرف أن يخرج من المبنى مع النسوة ، ولم تبق سوى امرأة عجوز ، جلست على الفرن رهينة .. وأخذت تعطس وتتلو صلواتها . وما لبثنا أن شرعنا نتفاوض بعد ذلك ، فاقبل المشرف وأخذ يغريني ـ عن بعد ـ بأن أخلى سبيل المرأة العجوز . ولكنى أطلقت عليه « بلوخر » قليلا .. و « بلوخر » رائع فى مداعبة المشرفين على محطات البريد ! .. ومع ذلك ، فان الوغد ظل يأبى أن يمكننى من الحصول على الجياد قبل صباح اليوم

(١) ٢٠ درجة بمقياس ريامور ، وهى تعادل ٢٥ درجة مئوية . ويلاحظ ان درجة الحرارة العادية للانسان حوالى ٣٠ درجة ريامور ، اى ٣٧ مئوية .

التالى .. وفى تلك الاثناء ، أقبل ذلك الشاب التابع للمشاة ، فانضممت اليه فى حجرة أخرى ، وشرعنا نلعب ... هل رأيتم بلوخر ؟

ورفع عقيرته بالنداء : « بلوخر ! » ، واردفه بصفير . فأقبل « بلوخر » مهرعا .. وتلطف اللاعبون فأبدوا نحوه بعض الاهتمام ، وان كان من الجلى أنهم كانوا راغبين فى الانصراف الى مسائل أخرى غير هذه .. وما لبث توربين أن قال : « ولكن ، لماذا لا تلعبون يا سادة ؟ .. أرجو ان لاتدعونى أحول بينكم وبين اللعب ، فأنا ثرثار ، كما ترون .. ان اللعب لعب ، سواء شاء المرء أو لم يشأ ! »

« ٣ »



• قرب « لوخنوف » شمعتين من مجلسه ، وأخرج حافظة نقود كبيرة ، بنية اللون ، مليئة بالاوراق المالية ، ففتحها على المنضدة بتؤدة ـ وكأنه يؤدى بعض الطقوس ـ وتناول منها ورقتين من فئة المائة روبل ، فوضعهما تحت أوراق اللعب . وقال وهو يسوى من وضع عوينتيه ، ويفتح مجموعة من أوراق اللعب : « مائتان للبنك .. تماما كأمس ! » . فقال ايلين وهو ماض فى حديثه مع توربين ، دون أن ينظر الى لوخنوف : « حسنا جدا ! »

. وبدأ اللعب (١) . واخذ لوخنوف يوزع الأوراق فى دقة الآلهة ، متوقفا من آن لآخر عن تعمد ، ليكتب رقما ، اوليوجه من فوق حافتى عوينتيه نظرة صارمة ، وهو يقول فى صوت منخفض ، ملىء بالنبرات : ((ناول !)) . وكان صاحب الارض البدين هو أعلى الجميع صوتا فى كلامه ، وهو يجادل نفسه جهارا ، ثم يرطب أصابعه الممتلئة الطرية ، عندما يثنى ركن ورقة . وكان ضابط الحامية يسجل فى صمت ودقة المبالغ التى يراهن بها على ورقته ، ويثنى أطرافا صغيرة من الاركان، تحت المنضدة . أما اليونانى فكان يجلس بجوار المشرف على (البنك) ، يراقب اللعب بانتباه ــ بعينيه الغائرتين ــ وهو يبدو كمن يترقب شيئا . وكان « زافالشيفسكى » يقف بجوار المائدة ، ثم لا يلبث أن يتململ فى وقفته فجأة ، ويتناول من جيب سرواله (بنطلونه) ورقة مالية حمراء أو زرقاء (٢) ، فيضعها على ورقة اللعب التى تكون أمامه ، ثم يدق عليها بكفه ، قائلا : « سبعة متواضعة .. وزع لى ! » . ويروح يعض طرفى شاربيه ، وهو ينقل ثقل جسمه من قدم الى

(١) اللعبة المقصودة هنا هى « الشتوس » ، وقد كانت رائجة فى روسيا. وعفى عليها الزمن ، فانقرضت .. وفيها يختار اللاعبون لأنفسهم أوراقا من مجموعات على المائدة ، ويضعون المبالغ التى يراهنون بها على أوراقهم أو تحتها . ويحتفظ المشرف على « البنك » بمجموعة كاملة من الأوراق ، يوزع منها على الجالسين الى اليمين والجالسين الى اليسار ، على التوالى . فالأوراق التى توزع الى اليمين يكون كسبها له ، والتى توزع الى اليسار ، يكون كسبها اللاعب . ومن مصطلحاتها ((ناول !)) ، لتذكير اللاعبين بتسليم المبالغ التى يكونون مدينين بها للبنك ، و « مفردات » أى مراهنات فردية . ويضاعف اللاعب رهانه مرتين او ثلاثا بأن يثنى اركان الورقة التى فى يده ليكشفها ، اذ تكون موضوعة وظهرها الى اعلى .. و « التمرير » يضاعف الرهان ستة امثاله .

(٢) كانت الأوراق ذات الخمسة روبلات زرقاء .. وذات العشرة حمراء.

قدم ، ولا يكف عن التململ الى ان توزع عليه ورقة اخرى ..
وراح « ايلين » يأكل شرائح من لحم البقر والخيار المملح ، وضعت على أريكة من شعر الخيل ، ثم أسرع فمسح يديه فى سترته ، وأخذ يلقى ورقة بعد أخرى . **أما « توربين » الذى كان جالسا — فى بادىء الامر — على الاريكة ، فانه سرعان ما ادرك تطورات الموقف . ولم يكن « لوخنوف » ينظر الى « ايلين » او يخاطبه ، بيد أن عوينتيه كانتا تتحولان نحو يدى الشاب من آن الى آخر ، وتستقر نظراته عليهما لحظة .. ولكن معظم أوراق « ايلين » كانت خاسرة !**
وما لبث « لوخنوف » أن قال ، مشيرا الى ورقة القاها صاحب الارض البدين ، الذى كان يقامر بأنصاف الروبلات : « آه ، اننى أود أن أضرب هذه الورقة » . فقال المالك : « لك أن تضرب ورقة ايلين ، ودعك منى ! » .. وفعلا كانت أوراق ايلين أكثر خسارة من اوراق الآخرين ، حتى أنه كان يمزق كل ورقة خاسرة — تحت المائدة — وهو منفعل ، ثم يختار ورقة أخرى بأصابع مرتجفة . ونهض « توربين » عن الاريكة ، وسأل اليونانى أن يدعه يجلس مكانه الى جوار المشرف على (البنك) . فانتقل اليونانى الى مكان آخر ، وشغل الكونت مقعده ، وبدأ يراقب يدى « لوخنوف » بامعان ، لا يحرك عينيه عنهما .
وفجأة ، قال الكونت بصوته العادى ، الذى طغى على جميع الاصوات دون قصد منه : **« ايلين ! .. لماذا تلزم طريقة جامدة فى اللعب ؟ .. انك لا تعرف كيف تلعب »**
— كل الطرق سواء فى اللعب
— ولكنك تخسر بهذه الطريقة . دعنى العب بدلا منك !
— لا ، أرجو ان تسمح لى .. اننى دائما ما العب لنفسى ، فالعب لنفسك اذا شئت .
— قلت من قبل اننى لن العب لحسابى ، ولكنى اود ان العب

لحسابك ، فانى مستاء لانك تخسر !
ــ أرى ان هذا حظى .. قدر مكتوب على !

* * *

وصمت الكونت ، ولكنه مال على المائدة معتمدا على مرفقيه ، وعاد يتأمل يدى المشرف على (البنك) بامعان . وفجأة ، قال بصوت عال ، وهو يطيل الكلمة : « فظيع ! » . **فتطلع اليه «لوخنوف» ، واذا به يردد بصوت أكثر ارتفاعا ، وهو يحدق فى عينى « لوخنوف » مباشرة : « فظيع ! .. فظيع جدا ! »**
واستمر اللعب .. ومرة أخرى ، صاح توربين ، وقد ضرب « لوخنوف » ورقة كان « ايلين » قد قامر عليها بمبلغ كبير : « ليس هذا من الصواب فى شىء ! » .. فتساءل المشرف على (البنك) فى عــدم اكتراث مهــذب : « ما الذى لا يروق لك يا كونت ؟ »
ــ هنا ! .. انك تدع ايلين يكسب مراهناته المفردة ، ثم تغلبه فى المراهنات المضاعفة .. هذا هو موطن السوء فى الامر !
وحرك « لوخنوف » حاجبيه وكتفيه حركة خفيفة ، ايماء الى انه كان ينصح بالتسليم للحظ والقدر فى كل شىء ، وواصل اللعب . فصاح الكونت : « بلوخر ! » . ونهض مرسلا صفيرا استدعى به الكلب ، ثم اردف بسرعة : « عليك به ! »
وارتطم ظهر « بلوخر » بالاريكة وهو يثب من تحتها ، فكاد يقلب ضابط الحامية ، وهرع نحو مولاه مزمجرا ، ثم راح يتلفت ناظرا الى كل امرىء ، وهو يهز ذيله ، وكأنه يتساءل : « منذا الذى يسىء التصرف هنا ! .. هه ؟ »
وألقى « لوخنوف » بالاوراق التى كانت فى يده ، وأزاح مقعده جانبا ، وقال : « ليس بوسع المرء أن يلعب بهذا الشكل اننى أكره الكلاب .. أى نوع من اللعب يصبح ، اذا ما أحضرت الى هنا فرقة من كلاب الصيد ؟ » . فغمغم ضابط الحامية :

« لا سيما اذا كانت كهذا الكلب » .. والتفت لوخنوف الى مضيفهم قائلا : « وبعد .. هل سنلعب يا ميخائيل فاسيليتش أو ترانا لن نلعب ؟ » . فالتفت ايلين الى توربين قائلا : « ارجو ان لا تتدخل بيننا يا كونت ! » . فقال توربين وهو يمسك بذراع ايلين ويذهب به الى وراء حاجز خشبي فى الحجرة : « تعال معي لدقيقة ! »

وكانت كلمات الكونت ــ التي قالها بصوته المعهود ــ مسموعة بجلاء من خلف الحاجز ، فقد كانت طبقة صوته تسرى عبر ثلاث حجرات دائما :

ــ أأنت مغفل ، هه ؟ ألا ترى ان ذلك السيد ذا العوينتين غشاش من الدرجة الاولى ؟

ــ دعك من هذا ، كفى ! .. ما هذا الذى تقول ؟

ــ لا مجال لـ ((كفى)) فى هذا الامر ! .. انني أناشدك ان تكف عن اللعب . إن الامر لا يهمنى فى شيء ، ولو أننا كنا فى ظروف أخرى ، لاستنزفت اموالك بنفسي ، ولكنني ــ لسبب لا أدريه ــ آسف اذ اراك تجرد من ريشك . ولعلك تحمل شيئا من أموال التاج كذلك ؟

ــ لا ... لماذا تتوهم أمورا كهذه ؟

ــ آه ، يا فتاى ! .. لقد كنت أنا الآخر مثلك ، ومن ثم فانني اعرف كل حيل اولئك الغشاشين . انني أؤكد لك ان الرجل ذا العوينتين غشاش ، فكف عن اللعب ! انني اناشدك كزميل فى السلاح !

ــ ليكن ذلك اذن ، فقط سأفرغ من هذا الدور وحده .

ــ انني أدرى ما وراء ((دور واحد)) . حسنا ، لسوف نرى!

وعادا .. وفى هذا الدور الواحـــد ، ألقى ايلين بكثير من الاوراق ، راهن عليها بكثير من النقود ، حتى انه عندما خسر فقد مبلغا باهظا . واذ ذاك ، وضع توربين يديه فى وســط المائدة ، وصاح : « الآن ، كف عن اللعب ، وتعال ! » .. فقال

ايلين فى انفعال ، وهو يعبث ببعض أوراق مطوية ، دون أن ينظر الى توربين : « لا ، لست استطيع . دعنى وشأنى ! »

ـ حسنا ، اذهب الى الشيطان ، اذن ! استمر فى الخسارة المؤكدة ، اذا كان هذا يروق لك . لقد حان لى أن أنصرف . فلنذهب الى حفلة « المارشال » يا زلفالشيفسكى !

وانصرفا . وظل الذين مكثوا صامتين ، ولم يعد لوخنوف يوزع أوراقا الى أن غاب وقع أقدامهما ، وخفت وقع مخالب « بلوخر » على ارض الردهة . واذ ذاك قال مالك الارض ، وهو يضحك : « يا له من رجل ، كأنه الشيطان ! »

فعقب ضابط الحامية ، وهو لا يزال يهمس وينطق الكلمات فى عجلة : « حسنا .. انه لن يتدخل فى اللعب ثانية ! »

وعادوا يستأنفون اللعب .

« ٤ »

وما أن صدرت اشارة معينة ، حتى عزفت الفرقة الموسيقية ، المؤلفة من بعض عبيد المارشال ـ وقد وقفوا فى مخزن المؤن (الكرار) بعد أن اخلى مما كان به ، لهذه المناسبة ، وشمروا عن أكمامهم استعدادا ـ اللحن البولندى القديم « الكسندر وليزابيث » .. وتحت الاضواء المشرقة الناعمة ـ الصادرة من الشموع المصنوعة من الشحم ـ تقدم حاكم عام من عهد « كاترين » ، تزين صدره نجمة ، وقد تأبط ذراع زوجة المارشال النحيلة الهزيلة .. فشرع الباقون من علية القوم ينسابون رويدا ـ مع زميلاتهم ـ على الارض الخشبية المصقولة ، فى قاعة الرقص الكبيرة ، فى تجمعات عديدة ومتباينة .. وهنا دخل « زلفالشيفسكي » مرتديا جوربين طويلين ، وحذاءين طويلين كذلك ، وسترة زرقاء ذات ذيل طويل رفيع وياقة واسعة من اللباد ، وقد تصاعد منه عبير قوى .. عبير



عطر الياسمين الهندي الذى نثر بغزارة على صدر سترته ، ومنديله ، وشاربيه .
أما الضابط المليح ، المنتمى الى كتيبة الفرسان الخفيفة ، والذى أقبل معه ، فكان يرتدى سروالا (بنطلون) ذا لون أزرق خفيف ، من سراويل ركوب الخيل ، وقد أحكم حول جسمه احكاما تاما ، وسترة قرمزية موشاة بالذهب ، ثبت الى صدرها صليب فلاديمير ، ووسام سنة ١٨١٢ (١) . وما كان الكونت بالرجل الطويل ، ولكن جسمه كان بديع البنيان بدرجة تلفت الانظار . **وكانت عيناه ـ اللتان امتازتا بزرقة صافية وبريق شديد ـ وشعره البنى القاتم الشديد التجعد ، تضفى طابعا رائعا على جماله** . وكان مقدمه الى الحفلة الراقصة متوقعا ، اذ أن الشاب المليح الذى رآه فى الفندق ، كان قد هيأ « المارشال » لذلك . وكان النبأ قد احدث آثارا عديدة ، لم تكن ـ فى أغلبها ـ سارة !.. **فقد كان رأى الرجال، والسيدات المسنات ، يتمثل فى : « ليس من المستبعد أن يعرضنا هذا الشاب للسخرية ! » .. أما السيدات اللائى لم يتجاوزن الشباب ـ متزوجات او غير متزوجات ـ فإن ما جال بخواطرهن ، لم يخرج عن : « ماذا يكون لو انه هرب بى ؟ » !**
وما ان انتهى لحن الرقصة البولندية ، وانحنى كل راقص

(١) ميدالية كانت تمنح لمن أبلى فى الدفاع عن روسيا ضد نابليون .

لمن راقصته فبادلته بدورها الانحناء ، حتى افترقوا فتقاربت النســـاء فى فريق ، والتم الرجال فى فريق آخر .. واذ ذاك ، قدم « زافالشيفسكى » الـكونت الى ربة القصر ، وهو فخور ، مغتبط .. وشعرت زوجة المارشال بقشعريرة تسرى فى اعماقها ، خشية أن يوليها هذا الفارس الشـــاب معاملة فاضحة أمام الجميع ، فأشاحت فى ترفع وازورار ، وهى تقول : « يسرنى كل السرور ان أراك ، وآمل أن تنعم بالرقص ! » . ثم رمقته بنظرة مترببة ، وكأنها تقول : « تذكر انك اذا جرحت شعور امرأة ، فسيثبت لى هذا أنك شقى زنيم ! »

على ان الكونت سرعان ما هزم مخاوفها ورأيها السىء عنه بلطفه ، ومسلكه الذى نم عن فطنة ورعاية ، ومظهره الوسيم الطروب ، ومن ثم فلم تنقض دقائق خمس ، حتى كان التعبير الذى ارتسم على وجـــه زوجة المارشال ينبىء القوم : **« اننى خبيرة بترويض الســـادة الذين من هذا القبيل ، فقـــد ادرك لفوره من التى يعاملها ، ومن ثم فسوف يظل يبدى لى مسلكا رائعا طيلة السهرة ! »** . وفوق ذلك ، فان حاكم البلدة ـــ الذى كان على معرفة بوالد الكونت ـــ سعى اليه ، فى تلك اللحظة ، وانتحى به جانبا ، وهو فى بشاشة بالغة ، وراح يتحدث معه ، مما زاد من طمأنينة المجتمع الريفى الموجود ، ورفع من تقدير القوم للكونت .

* * *

وما لبث زافالشيفسكى ان قدم الكونت ـــ بعد ذلك ـــ الى أخته .. وكانت ارملة شابة سمينة فى التفاف ، لم تفارق عيناها السوداوان الواسعتان الـكونت منذ اللحظة التى ولج فيها القاعة . وسألها الكونت أن تراقصه « الفالس » الذى كانت الفرقة الموسيقية قد شرعت تعزفه ، واذ ذاك تبـــددت البقية الباقية من الآراء التى كانت قـــد خامرت القوم ، حين

زاوا طريقته البارعة فى الرقص !

وقالت سيدة بدينة ، من صاحبات الارض ، وهى ترقب ساقيه فى سروال الركوب الازرق ، وقد راحتا تتنقلان على ارض الحجرة فى رشاقة وخفة : « ياله من راقص بديع ! » . واخذت تحسب حركات قدميه فى سريرتها : «واحدة ، اثنتان، ثلاث .. واحدة ، اثنتان ، ثلاث .. رائع ! » .. وقال آخر ، وكان زائرا للمدينة لا يعده مجتمعها المجلى من علية القوم : « أنظر كيف يمضى .. جيج ، جيج ، جيج ! .. كيف يتفادى أن يرتطم مهمازاه معا ؟ .. انه لرائع ، حاذق ! »

وبهر رقص الكونت الانظار ، حتى طغى على تألق خير ثلاثة راقصين فى الاقاليم ، وهم : ياور الحاكم ، الطويل الاشقر الشعر ، الذى امتاز بسرعته فى الرقص ، وبأنه كان يشد زميلته الى صدره .. والفارس المتقاعد ، الذى اشتهر بحركاته المترنحة الرشيقة فى رقصة « الفالس » ، وبالدقات المتوالية الخفيفة التى كان يوقعها على الارض بكعبيه .. وشخص من المدنيين ، كان كل امرىء يقول أنه لم يكن نبيها جدا ، ولكنه كان راقصا من الدرجة الاولى ، وكان روح كل حفلة راقصة !.. والواقع أن هذا الشخص كان يسأل كل السيدات ان يراقصنه، كلا بدورها ، بترتيب مجلسها (١) ، ولم يكن يتوقف قط ، اللهم الا فى فترات عابرة ، ليجفف العرق عن وجهه ــ الذى كان يحتفظ ببشاشته رغم علامات الارهاق ــ بمنديل مندى من الكتان الناعم .

لقد طغى الكونت على تألقهم جميعا ، ورقص مع أرقى ثلاث سيدات : السيدة الطويلة ، الغنيـة ، المليحة ، الغبيـة ! .. والسيدة المتوسطة الطول، النحيلة ، التى لم تكن بارعة الحسن

---

(١) كانت العادة ان لا يراقص الرجل سيدة رقصة باكملها ، بل يدور بها بضع جولات ، ثم يقودها الى مقعدها ، وينحنى لها .. ثم ينشد سواها

ولـكنها كانت بديعة الملبس .. والسيـدة التى كانت قلة فى الجسم ، خالية من الحسن ، ولكنها كانت حاذقة فى الرقص! .. ورقص توربين مع اخريات كذلك .. مع جميع الحسان ، وقد كن كثيرات هنـاك .. ولكن اخت زافالشيفسكى ــ الارمـلة الشابة ــ كانت خير من رقن له من النسـاء . فرقص معها رقصة من نوع ((الكدريل)) ، واخرى ايقوسية ، وثالثة من رقصـات ((مازوركا)) .. وعنـدما جلسـا معا ــ خـلال ((الكدريل)) ــ شرع يغدق عليها مجاملاته ، فشبهها بفينوس وديانا ، وبالوردة ، وبنوع آخر من الزهور . ولـكن كل هذه المجاملات لم تؤد الا الى ان كانت الارملة تحنى عنقها البض ، وتنكس عينيهـا فتنظر الى ثوبها ((الموسـلين)) الابيض ، او تنقل مروحتها من يد الى يد . ولـكنها عندما كانت تقول : ((لا تفرق يا كونت ، فما اراك الا تمزح !)) ــ وما الى ذلك من كلمات ــ كانت تقولها فى بساطة ساذجة ، وخفر مثير ، بصوتها الذى كان ينبعث من اعماق الحلق قليلا ، حتى لقد كان الناظر اليها يراها زهرة ــ فى الواقـع ــ وليست امراة .. وزهرة ليست من النوع المألوف ، وانما من تلك الزهور البرية الفخمة ، العديمة العبير ، ذات اللون الابيض المشرب بحمرة وردية .. زهرة من هذا النوع ، نمت وحيدة ، وسط سيل من الجليد فى مكان ناء سحيق !

هذا المزيج من السذاجة وعدم مشابهة النسوة المألوفات ، مع نضارة جمالها ، احدث فى نفس الكونت اثرا غريبا ، حتى لقد تملكته الرغبة مرارا ــ اثناء فترات الصمت ؛ وهو يتأمل عينيها والتفاف عنقها البـديع وذراعيها الجميلتـين ــ فى ان يحتويها بين ذراعيه ، ويغرقها بقبلاته .. ولقد راودته هذه الرغبة بقوة ، حتى لقد اضطر الى ان يبذل مجهودا جـديا فى مقاومتها ! .. ولاحظت الارملة ــ فى اغتبـاط ــ الاثر الذى احدثته فى نفسـه ، بيد ان شيئا فى سلوك الـكونت بدأ يوقع

الرهبة في نفسها ويثيرها ـ في آن واحد ـ مع ان الضابط الفارسي الشاب كان ، بالرغم من لطفه الفتان ، يبدي لها من الاحترام ما قد يعتبر ـ في ايامنا هذه ـ ممجوجا ! .. فقد هرع ليجتلب لها شرابا من عصير اللوز ، والتقط منديلها ، واختطف لها مقعدا من يد شاب من الاعيان ـ مصاب بالدرن الخنزيري ـ كان يتراقص حولها ليظفر بها سريعا .. وهكذا.

وعندما لاحظ أن المجاملات التي اصطلح عليها مجتمع زمنهما كانت قليلة التأثير على السيدة ، حاول ان يطربها بأن راح يروي لها قصصا مضحكة، ويؤكد لها انه كان على استعداد لان يقف على راسه ، أو أن يصيح كالديك ، أو أن يقفز من النافذة ، او ان يغوص في الماء خلال ثغرة في الجليد ، اذا هي امرته بأن يفعل شيئا من ذلك . وأسفرت هذه الطريقة عن نجاح ، فقد أشرق محيا الارملة ، وانطلقت في سيل من الضحكات ذات الرنين العذب ، كاشفة عن أسنان بيضاء جميلة .. ورضيت كل الرضى عن فارسها . وأخذ الكونت يزداد حسنا لها دقيقة بعد أخرى ، فلم تنته رقصة « الكادريل » حتى كان مدلها يهواها حقا ! .. وعندما تقدم اليها المعجب المفتون ـ ابن الثمانية عشر عاما ـ الذي طال به الوقوف في انتظارها (وهو عين الشاب المدرن الذي اختطف منه توربين المقعد . وقد كان ابن أغنى مالك للارض في المنطقة) تلقته الارملة في فتور بالغ ، ولم تبد عشر ما كانت قد خبرته من انفعال في صحبة الكونت! .. وقالت له ، وهي لا تنفك تنظر الى « توربين » ، وتقدر ـ دون ان تفطن ـ عدد الياردات من الخيط الذهبي المجدول ، الذي تطلبه وشي سترته : « انك كريم ! الم تكن قد وعدتني بأن تأتي لتصطحبني الى الحفلة ، وان تحضر لي بعض الحلوى » . فأجاب الفتى الذي كان ذا صوت رفيع حاد ، رغم طول قامته : « لقد ذهبت اليك يا آنا فيدوروفنا ، ولكنك كنت قد خرجت. وقد تركت قسطا من أفخر الحلوى لك ! »

ـ انك تجيد انتحال المعاذير دائما !.. لست أريد حلواك ..

فقال : ((أرى انك قد تغيرت نحوى يا آنا فيدوروفنا ، وانى لاعرف السبب . ولكنك لست على صواب)) ، ولم يقو على أن يتم حديثه ، اذ أن الانفعال الذى جاش فى أعماقه ، جعل شفتيه تختلجان بسرعة ودرجة عجيبتين . ولم تنصت اليه ((آنا فيدوروفنا)) ، بل راحت تتبع توربين بعينيها .

وأقبل رب البيت ـ المارشال الكهل البدين ، الفخم المنظر ، العديم الاسنان ـ فتقدم من الكونت ، وتأبط ذراعه ، ودعاه الى حجرة مكتبه ليدخنا ويشربا كأسا . وما أن بارح توربين القاعة ، حتى أحست ((آنا فيدوروفنا)) أنه لم يعد لها ما تفعله هناك ، فبارحت القاعة الى غرفة الزينة ، متأبطة ذراع صديقة لها .. عذراء مسنة ، بارزة العظام ! .. وسألتها العذراء : ((أظريف هو ؟)) . فأجابتها آنا فيدوروفنا ، وهى تسير الى المرآة فتتأمل صورتها : ((انما يضايقنى ظرفه !)) .. وأشرق وجهها ، وضحكت عيناها ، بل وتضرج وجهها . ثم راحت تطوف بالحجرة ـ فجأة ـ على قدم واحدة ، مقلدة راقصات ((الباليه)) اللاتى رأتهن أثناء الانتخابات .. ثم اطلقت ضحكها الذى كان ينبعث من أعماق حلقها ، ولكنه كان طروبا عذبا ، وأثنت ركبتيها ، ثم وثبت وهى تقول : ((تصورى أى رجل هو ! .. لقد ذهب به الامر الى درجة أن سألنى تذكارا . ولكنه لن يظفر بـ .. شىء .. ما !)) . وكأنما كانت تتغنى بالكلمتين الاخيرتين !

* * *

وكانت فى غرفة المكتب ـ حيث اصطحب المارشال توربين ـ زجاجات من مختلف أنواع الفودكا ، والمشروبات الروحية الحلوة المذاق ، والشمبانيا ، فضلا عن الشطائر والمشهيات . وكان الاعيان الذين راحوا يتمشون فى الحجرة ، أو جلسوا

وسط سحب من دخان التبغ ، يتحدثون عن الانتخابات . فكان قائد الشرطة الذى انتخب حديثا يقول : « أما وقد شرفه مجتمع أعياننا المبجل بانتخابه ، فما كان له ــ بأى حال من الاحوال ــ أن يتجاوز حده ، متحديا المجتمع بأسره ... » . على أن دخول الكونت قطع الحديث ، اذ رغب كل امرىء فى ان يتعرف اليه ، وظل قائد الشرطة ــ بوجه خاص ــ يضغط يد الكونت طويلا ، ويسأله ملحفا أن لا يرفض أن يرافقه الى المطعم الجديد الذى كان قد دعا السادة اليه عقب الرقص ، وحيث كان الغجر يغنون . فوعده الكونت بأن يلبى الدعوة ، وشرب معه بضع كؤوس من الشمبانيا !

وقال الكونت وهو يهم بمبارحة الحجرة : « ولكن ، لم لا ترقصون يا سادة ؟ » . فرد قائد الشرطة ضاحكا : « لسنا راقصين ، بل الخمر أحب الينا يا كونت .. ثم اننى رأيت كل هؤلاء الشابات منذ حداثتهن يا كونت ! .. على أننى أستطيع ان أؤدى خطوات الرقصة الايقوسية من آن الى آخر ! » . فقال توربين : « اذن فتعال وارقص دورا ، فان هذا كفيل بأن يبهجنا قبل أن نذهب ونسمع الغجر ! » .

وهم ثلاثة أو أربعة من النبلاء الذين كانوا يشربون الخمر فى حجرة المكتب ــ منذ بداية الحفلة ــ أن يتبعوا الكونت الى قاعة الرقص ، عندما استوقفهم الشاب ذو الوجه المدرن . وتعرض للكونت وقد غاض لونه ، وراح يحبس دمعه بعناء ، وهو يقول : « أتظن أن بوسعك أن ترتطم بالناس المحيطين بك ، وكأنك فى سوق عامة ، لمجرد انك كونت ؟ » .. وأخذ يتنفس بعناء ، وهو يردف : « هذه قلة أدب .. » . ومن جديد ، حبست شفتاه المرتجفتان الكلمات ، بالرغم مما كان يبذل من جهد . فصاح توربين ، وهو يعبس فجأة : « ماذا ؟ .. ماذا أيها الولد المدلل ؟ ! » . وأمسك بذراعيه ، فراح يعصرهما حتى تدافع الدم الى رأس الشاب من الخوف ، أكثر مما كان

من الاستياء .. وعاد الكونت يصـيح : « اتريد النزال ؟ .. انني رهن امرك ! »

وما أن افلت توربين ذراعي الشاب ، حتى تلقفه اثنان من النبلاء ، وراحا يجرانه الى الباب الخلفى ، وهما يقولان له « افقدت رشدك ؟ .. لا بد انك ثمل ! .. ماذا يحـــدث لو قلنا لابيك ! » . فصاح الشاب بصوته الرفيع : « لا ، لست ثملا ، ولكنه ارتطم بى ولم يعتــذر ! .. انه خنـزير ! » . ولكنهما لم يصغيا اليه ، وسرعان ما حمل الى داره ، بينما كان قائد الشرطة وزافالشيفسكى يعتذران الى الـكونت قائلين : « لا تستأ يا كونت ، فهو ليس سوى صبى صغير . انه لايزال يضرب من ابيه ، فهو لم يتجاوز السادسة عشرة .. ما الذى اصابه ؟ .. وكيف يفعل هذا ، وابوه رجل محترم ؟ » .. فقال الكونت : « لا بأس ، ليذهب الى الشيطان ! » .. وعاد الى قاعة الرقص حيث راقص الارملة الحسناء وهو فى مرحه السابق ، ثم دوت ضحكته فى ارجاء الحجرة ، عندما زلق قائد الشرطة ــ وهو يحاول الرقص ــ فهوى بكل طوله على الارض ، وسط الراقصين !

ــ« ٥ »ــ

• وفى اثناء وجود الكونت فى حجـرة المكتب ، كانت « آنا فيدوروفنا » قد سعت الى اخيها ، وسألته وهى تتظاهر بعدم الافراط فى الاهتمام : « من كان ذلك الضابط ــ من الفرسان ــ الذي راقصنى ، يا اخى ؟ » . فبين الفارس المتقاعد لاخته ــ بكل ما اوتى من بيان ــ عظمة ذلك الضابط التابع لكتيبـــة الفرسان الخفيفة ، وانبأها ــ فى الوقت ذاته ــ بأن الكونت مامكث فى البلدة الا لان نقوده سرقت منه فى الطريق ، وانه قد اقرضـــه مائة روبل ، بيد ان هذا المبلغ لم يكن كافيا .. فهل لاخته ان



تقرض الكونت مائتي روبل أخرى ؟ .. على أن زنافالشيفسكي سألها أن لا تروي ذلك لاحد ما ، مهما يكن الامر ، لا سيما الكونت نفسه . فوعدت « آنا فيدوروفنا » بأن ترسل المبلغ لاخيها في اليوم ذاته ، ليبقى الامر سرا . بيد انها شعرت ــ أثناء الرقصة الإيقوسية ــ بشوق جارف الى ان تعرض بنفسها على الكونت أي مبلغ يشاء . وفكرت طويلا ، وقد تضرج وجهها ، ولكنها نبشت الموضوع في النهاية ــ وبجهد بالغ ــ على هذا النحو : ((أنبأني أخي بأن سوء الطالع حل بك في الطريق يا كونت ، وانك لا تحمل الآن نقودا . فاذا كنت بحاجة الى شيء منها ، فهلا تقبله مني ؟ .. ان هذا كفيل بأن يسرني !))

على أنها لم تكد تقول هذا ، حتى تولاها خوف مبهم ، وتضرج وجهها . وغاض من وجه الكونت كل ابتهاج في الحال ، وقال في جفاء : « ان أخاك أحمق ! .. انك لتعرفين ان الرجال يتبارزون ، اذا أهان أحدهم الآخر ، أما عندما تهين امرأة رجلا ، فماذا ترينه يفعل ؟ » . واشتد احمرار وجه «آنا فيدوروفنا» المسكينة وعنقها ، لفرط ارتباكها . وغضت بصرها ، ولم تنبس ببنت شفة . فقال الكونت في صوت خفيض ، وهو يميل على أذنها : ((انه يقبلها أمام الملأ !)) . وأردف هامسا ، بعد صمت طويل ، وهو يشفق على زميلته من الارتباك

« فاسمحي لي بأن أقبل يدك .. على الاقل ! »

وأرسلت آنا فيدوروفنا زفرة طويلة ، وقالت : « ولكن ، ليس الآن ! »

ـ متى اذن ؟ انني راحل في بكور الغد ، وأنت مدينة لي بقبلة !

فقالت آنا فيدوروفنا ، وهي تبتسم : « اذن ، فالامر مستحيل ! »

ـ اني أطالبك بأكثر من ان تتيحي لي لقاءك الليلة لاقبل يدك . ولن يعييني أنتهز فرصة للقاء !

فتساءلت : « وكيف ؟ » . فأجاب : « ليس هذا شأنك ، فكل شيء ممكن ، في سبيل أن اراك .. فهل نحن على اتفاق؟ » . وأجابت : « على اتفاق ! » . وهنا كانت الرقصة قد انتهت ، فرقصا بعدها « المازوركا » ، وأبدى الكونت براعة فائقة في اختطاف المناديل ، والركوع على ركبة ، وصك مهمازيه ـ الواحد بالآخر ـ على طريقة لا يجيدها الراقصون في غير (وارسو) ، حتى أن المسنين من القوم ، تركوا جميعا ألعابهم ، وتقاطروا على قاعة الرقص ليشهدوا الكونت .. واعترف الفارس المتقاعد ـ وهو أحسن راقصيهم ـ بأن نجمه أفل الى جانب تألق الكونت ! .. وما لبثوا أن تناولوا العشاء ، ثم رقصوا رقصة « الجد » ، وأخذ الحفل ينفض بعد ذلك .

* * *

ولم يكن الكونت قد حول عينيه عن الارملة الصغيرة ، فما كان قوله عن استعداده لان يغوص خلال ثغرة بين الجليد من أجلها ، محض مجاملة او تظاهر ! .. وسواء كان الامر نزوة ، أو غراما ، او عنادا ، فان كل قوى الكونت العقلية ، تركزت ـ في تلك الامسية ـ على رغبة واحدة .. ان يلتقي بالسيدة ، وأن يطارحها الغرام ! .. وما أن لاحظ أن « آنا فيدوروفنا »

كانت تستأذن مضيفتها فى الانصراف ، حتى هرع الى غرفة رئيس الخدم ، ثم جرى — بدون معطفه المصنوع من الفراء — الى فناء القصر ، فاتجه صوب المكان الذى وقفت فيه العربات ، وصاح : « مركبة آنا فيدوروفنا زايتسيفا ! » .. واذا بعربة عالية ، مغلقة ، ذات أربعة مقاعد ، تتحرك مقبلة صوب المدخل، ومصابيحها متقدة . فصاح بالحوذى : « قف ! » . وأسرع صوب المركبة ، وهو يخوض فى الثلج حتى ركبتيه !

وسأله الحوذى : « ماذا تريد ؟ » .. فأجاب الكونت وهو يفتح باب المركبة ، ويحاول الصعود اليها وعى سائرة : « أريد أن أجلس بداخل المركبة . قف ! .. اننى آمرك ، أيها الاحمق! » . فصاح الحوذى فى مساعده : « قف يا فاسكا ! » .. وجذب أعنة الجياد ، ثم قال للكونت : « ماذا تبغى من الصعود الى مركبات الغير ؟ .. ان هذه مركبة مولاتى « آنا فيدوروفنا » ، وليست مركبة فخامتك! » . فقال الكونت: « صه ، أيها الغبى! .. هاك روبل وانزل فاغلق الباب ! » . ولما لم يحر الحوذى حراكا ، رفع الكونت سلم العربة بنفسه ، وخفض زجاج النافذة ، وتحايل على اغلاق الباب . وكانت العربة ككل العربات القديمة — لا سيما تلك التى تستعمل فيها أشرطة من القصب الاصفر — معبقة برائحة فجة ، كرائحة الوبر المحترق . وكانت ساقا الكونت قد ابتلتا بالثلج حتى الركبتين ، فشعر بأنه مقرور ، اذ كان نعلاه خفيفين ، وسروال الركوب منفتحا ، ومن ثم فقد نفذ برد الشتاء الى جسمه كله . وكان الحوذى يزمجر ، وقد بدا أنه يتهيأ للهبوط من مكانه ، ولكن الكونت لم يسمع ولم يشعر بشىء .. كان وجهه يتأجج ، وقلبه يخفق سريعا .. وفى غمرة انفعاله العصبى ، أمسك بشريط النافذة الاصفر ، ومال الى الداخل — حتى لا يرى خلالها — وقد انصرف بكل كيانه الى الترقب ! .. ولم يطل هذا الترقب ،

فقد انبعث نداء من المدخل : « مركبة زايتسيفا ! » ، فهز الحوذي أعنة الجياد ، وتمايل هيكل العربة على زنبركاته المرتفعة ، وتتابعت نوافذ أندار المضيئة ، والمركبة تمر بها .

وهمس الكونت للحوذى ، وهو يطل عليه من النافذة الامامية : « تذكر انني سأسوطك اذا قلت لرئيس الخدم انني هنا . أما اذا عقلت لسانك ، فستظفر بعشرة روبلات اخرى! » .
وما ان أغلق النافذة ، حتى ارتج هيكل العربة بشدة ، ثم وقفت . وانكمش الكونت وازداد التصاقا بالركن ، وقد امسك انفاسه ، واغمض عينيه ، وقد اشتد به الخوف من ان يبدد شيء ما ذلك الترقب الذى كان يؤجج عواطفه .. وما لبث باب العربة ان فتح ، فانخفض السلم درجة بعد أخرى ، فى جلبة . وسمع الكونت حفيف ثوب امرأة ، ثم شم عبير الياسمين يملأ جو المركبة فيطغى على الرائحة المجوجة التى كانت تشيع فيه .. وصعدت الدرج قدمان خفيفتان ، سريعتان ، ثم ارتمت « آنا فيدوروفنا » فى صمت الى جواره ، وقد احتك ذيل معطفها بساقه .. وكانت أنفاسها متهدجة ! وليس بوسع امرىء ــ حتى هى ــ أن يجزم بما اذا كانت قد رأته ، أو أنها لم تره .. ولكنها أبدت ارتياعا ضئيلا عندما تناول يدها ، وقال : « الآن بوسعى أن أقبل يدك الصغيرة ! » .. ولم تحر جوابا ، ولكنها أسلمته ذراعها ، فراح يغمر الذراع بقبلاته ، الى ما فوق قفازها .

وتحركت العربة ، فقال : « قولى شيئا !.. اغاضبة انت ؟ »
فازداد ت انكماشا فى ركنها ، وهى صامتة ، على أن شيئا ما لم يلبث أن حملها على أن تنفجر بالبكاء فجأة ، وتركت رأسها يهوى على صدره ، من تلقاء نفسها ! !



ـ« ٦ »ـ

• كان قائد الشرطة المنتخب حديثا ، وضيوفه ــ الفارس المتقاعد وغيره من علية القوم ــ قد قضوا وقتا طويلا فى الاصغاء الى أغانى الغجر ، وفى معاقرة الشراب ، فى المطعم الجديد ، عندما لحق بهم الكونت ، وقد ارتدى معطفا مبطنا بفراء الدب، كان يوما لزوج « آنا فيدوروفنا » المتوفى . وقال له نورى (غجرى) ذو عينين شديدتى السواد ، وحولاوين ، وقد سارع الى استقباله لدى المدخل ، والى معاونته على خلع المعطف ، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء : « الحق اننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر ، يا صاحب السعادة ، فنحن لم نرك منذ سوق (ليديانى) .. ان ستيشكا لشديدة التلهف الى رؤيتك ! »

وكانت ((ستيشكا)) نورية شابة ، رشيقة ، مياسة القوام ، يتألق وجهها بلون كلون الطوب الاحمر ، وقد اوتيت عينين عميقتين ، براقتين ، تظللهما أهداب طويلة . وقد هرعت هى الاخرى لاستقباله ، متمتمة ، وهى تبتسم فى طرب : ((آه ، يا كونتى الصغير ! .. يا حبيبى ! يا جوهرة ! .. يا للغبطة !))

.. وجرى ايليوشكا نفسه ــ زعيم الفرقة ــ لتحيته ، وقفزت العجائز والزوجات والعذارى فأحطن بالضيف، بعضهن يزعمن انه « اشبين » لهن، والبعض يزعمن أنه قدعقد وشائج الاخوة معهن.

وقبل «توربين» شفاه الشابات ، بينما قبلت العجائز والرجال كتفه أو يده . وابتهج علية القوم بوصول ضيفهم ، لا سيما وأن الشراب كان قد بلغ ذروته ؛ وبدأت بهجته تخبو ، كما بدأ كل امرىء يشعر بالاكتفاء .. فنقدت الخمر مفعولها المثير للاعصاب ، وأصبحت مجرد عبء يثقل المعدة . وكان كل امرىء قد أفرغ كل ما فى جعبته من تهريج ، وشرع يسأم صحبة الآخرين .. وكانت الاغانى قد ألقيت جميعا ، واختلطت فى راس كل فرد ، مخلفة ضجة وانحلالا ... ولم يعد كل أمر غريب أو متهور يأتيه أي امرىء بذى قيمة ، بل بدأ يلوح لكل امرىء أن ليس ثمة شيء مستحب أو مطرب فيما كان يصدر .. وشرع قائد الشرطة ، الذى استلقى على الارض عند قدمى امرأة عجوز — فى حال مثيرة للدهشة — يحرك ســاقيه فى الهواء ، صارخا : « **شـمبانيا ! .. لقد أقبل الكونت ! .. شامبانيا ! .. لقد جاء ! .. هيا ، شامبانيا ! .. سأملأ حوض الاستحمام بالشمبانيا وأستحم بها ! .. أيها السادة النبلاء ، انني أحب مجتمع طبقتنا الراقية العريقة .. غننا يا ستيشكا !** »

وكان الفارس المتقاعد قد ثمل هو الآخر ، ولكن .. بشكل آخر . فقد جلس على أريكة فى ركن من المكان ، ملتصقا بنورية حسناء طويلة ، تدعى « ليوباشا » . وقد راح يطرف بأهدابه — وهو يشعر بغشاوة على عينيه — ويهز رأسه ، ويهمس مكررا كلامه مرارا ، متوسلا اليها أن تهرب معه الى أى مكان . وكانت « ليوباشا » تنصت اليه مبتسمة ، وكأن ما كان يقوله قد راق لها . ومع ذلك فقد بدا عليها شيء من الاسى ، وهى تنظر — من آن الى آخر — نحو زوجها « ساشكا » الاحول ، الذى كان يقف خلف المقعد المواجه لها .. ثم مالت على الفارس المتقاعد ، وهمست فى أذنه تسأله — ردا على اعلانه الحب — أن يبتاع لها شيئا من العطر والاشرطة .. فى الخفاء !

وصاح الفارس المتقاعد ، عندما دخل الكونت : « مرحى ! »

.. وكان الشاب انوسيم يذرع القاعة ذهابا وإيابا بخطوات كان يعاني جهدا لكي تكون ثابتة ، وعلى سيمائه آثار الضيق والهم ، وهو يترنم بلحن من أوبرا « البسيراجليو » . وكان ثمة جد كهل – استدرجه الحاح عليه أقوام عليه كي يأتي لسماع الغجر ، مؤكدين له أن الحفل بدونه يفقد قيمته – فاستلقى على أريكة لازمها منذ قدم ، دون أن يحفل به أحد . وكان ثمة موظف بين الجمع ، خلع سترته ذات الذيل الطويل ، وجلس فوق المائدة – رافعا قدميه اليها – وقد نشر شعره ، وأظهر بذلك أنه قد ثمل تماما . وما أن دخل الكونت المكان ، حتى فتح الموظف صدر قميصه ، وتزحزح الى وسط المائدة !

وقصارى القول أن وصول توربين أنعش مجلس الشراب ، وتجمعت النوريات ثانية ، بعد أن كن يجلسن خلال الحجرة ، وجلسن في دائرة .. واجلس الكونت المغنية الاولى « ستيشكا » على ركبتيه ، وأمر بمزيد من الشمبانيا . وجاء « ايليوشكا » فوقف أمام ستيشكا حاملا جيتاره ، وبدأ الرقص على أغاني النور : « عندما تنطلق في الطريق ، أيها الضابط الفارس ، أتراك تسمع .. أتراك تعلم ؟ » ، وما الى ذلك .. وكان غناء ستيشكا رائعا .. كان الصوت المرن الرنان – الذي انساب من أعماق صدرها – وابتسامتها المرافقة للغناء ، وعيناها الضاحكتان الصارختان بالعواطف المشبوبة ، وقدمها التي كانت تتحرك – دون وعي – حركات رتيبة متسقة مع الايقاع ، وصرخاتها الجامحة كلما بدأ المرددون (الكورس) يرددون مقاطع الغناء .. كل هذه كانت تمس وترا قويا في القلب ، ولكنه نادرا ما يمس ! .. كان من الجلي أن النورية لم تكن تعيش الا في جو أغنيتها .. وكان ايليوشكا يعزف لها على الجيتار ، وظهره ، وساقاه ، وابتسامته ، وكل كيانه يعبر عن انسجام مع الاغنية .. وقد راح يرقب الفتاة في شغف ، ويرفع رأسه ويخفضها وقد استغرق في الاغنية بكل انتباهه ، وكأنه

يستمع اليها لاول مرة . وما لبث ـ عندما بلغ آخر الانغام المشجية ـ ان إعتدل فجأة ، وكأنه يشعر بأنه أسمى من كل امرئ فى الدنيا ، وألقى جيتاره عند قدميه فى زهو واعتداد ؛ وركلها ، ودق الارض بقدمه ، وطوح شعره الى الوراء ، وتلفت الى الفرقة الموسيقية وهو عابس . وبدأ كل جسمه ـ من العنق حتى الكعبين ـ يرقص بكل عضل فيه .. وانطلق فى الجو عشرون صوتا عاليا ، قويا ، حاول كل منها أن يبعث هتافا اشد واعجب من الأصوات الاخرى . واخذت العجائز يقمن ويهبطن على مقاعدهن ، ملوحات بمناديلهن ، كاشفات عن اسنانهن ، تنافس كل منهن الاخريات فى صيحاتهن المنغومة ذات الايقاع . واخذ اصحاب الاصوات المنخفضة المليئة يمدون اعناقهم ، وقد مالوا برؤوسهم جانبا ، وهم يهتفون ، بينما كانوا وقوفا وراء المقاعد !

وعندما عادت « ستيشكا » ترفع عقيرتها بالغناء ، حمل ايليوشكا جيتاره الى قربها ، وكأنه كان يرغب فى مساعدتها ؛ وصاح الشاب النبيل الوسيم قائلا انهم بدأوا «البيمول» (١) . وعندما حمي وطيس الرقص ، وتقدمت « دنياشا » تتلوى أمام الكونت ، وتنساب مقتربة منه ، وكتفاها وصدرها تهتز ، وثب « تورين » ، فخلع سترته ، وراح ـ فى قميصه الاحمر ـ يخطو معها بخفة ، خطوات دقيقة ، متزنة ، محدثا بساقيه حركات اخذ الغجر يبتسمون لها باعجاب ، وهم يتبادلون النظرات ! .. وجلس قائد الشرطة منتفخا كالديك الرومى ، يدق صدره بقبضته ، ويصيح : « فيفا ! » . ثم لمح ساقى الكونت ، فشرع يعبر عن اعجابه قائلا انه لم يتبق له من الفى روبل سوى خمسمائة ، وانه لعلى استعداد لان يفعل بها ما يشاء الكونت ! .. واستيقظ رب الاسرة الكهل ، ورغب فى

---

(١) طبقة من طبقات النغم الموسيقي .

الانصراف ، ولكن احدا لم يسمح له .. وبدأ الشاب الوسيم يغري احدى النوريات بأن تراقصه « الفالس » . أما الفارس المتقاعد ، فقد شاء أن يبين مدى مودته للكونت ، فنهض واحتضنه ، قائلا : « آه ، يا صديقى العزيز .. لماذا تركتنا ، هه ؟ » . وصمت الكونت ، وقد بدا أنه كان يفكر فى ناحية اخرى ، بينما استطرد الرجل : « ترى أين ذهبت ؟ .. آه ، أيها الكونت الخبيث ، اننى لاعرف أين ذهبت ! »

ولامر ما ، ساءت هذه الالفة توربين ، فنظر الى وجه الفارس المتقاعد فى صمت ، دون أن يبتسم ، ثم رماه فجأة بسبة فظيعة ، جافية ، تألم لها الفارس ، وظل برهة عاجزا عن أن يقرر ما اذا كان يعتبر الاهانة مزاحا او جدا ! .. وما لبث ان قرر ان يحملها على محمل المزاح ، فابتسم ، وعاد الى غجريته ، مؤكدا لها انه لن يلبث أن يتزوج منها ، بعد عيد الفصح ! .. وردد الغجر أغنية بعد أغنية ، ورقصوا ثانية ، ثم هتفوا للضيوف ، وكل واحد من هؤلاء سادر فى ايهام نفسه بأنه كان يستمتع بما يرى ويسمع . ولم يكن للشمبانيا حد أو نهاية . وقد شرب الكونت كثيرا ، فأخذت غشاوة الخمر تتكاثف أمام عينيه ، ولكنه لم يفقد اتزانه قط ، بل أنه راح يرقص أحسن من ذى قبل ، ويتكلم بصوت ثابت النبرات ، بل وانضم الى (الكورس) فراح يردد مقاطع الغناء باتقان ، عندما غنت ستيشكا أغنية « أرق عواطف الصداقة » . وفى خلال الرقصة ، اقبل صاحب المطعم فسأل الضيوف أن يعودوا الى دورهم اذ كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا . **واذا « توربين » يمسك به من قفاه ، ويأمره بان يرقص الرقصة الروسية . وابى الرجل ، فاختطف زجاجة شمبانيا هدده بها ، حتى اضطره الى أن يقف على رأسه ، وأمره بأن يظل فى هذا الوضع بين ضحكات الجميع ، ثم راح يفرغ الشمبانيا فوقه !**

وبدأ الفجر يتسلل ، فاذا الجميع شاحبو الوجه ، منهوكو

القوى ، ما عدا الكونت ، الذى لم يلبث أن قال وهو ينهض فجأة : « حسنا ، لا بد لى من الرحيل الى موسكو .. هيا ، جميعا ، تعالوا فشيعونى .. وسنتناول معا بعض الشاى !» .. ووافق الجميع الا رب الاسرة الكهل ، الذى بقى مستغرقا فى نعاسه ، بينما تزاحم الكل فى ثلاث زحافات كانت تقف بالباب ، وانطلقوا صوب الفندق

— « ٧ » —



• صاح الكونت وهو يدخل قاعة الجلوس فى فندقه ، متبوعا بضيوفه والغجر : « أعدوا الجياد ! .. ساشكا ! .. ليس ساشكا الغجرى ، وانما ساشكا تابعى .. قل للمشرف على مركز البريد اننى سأسوطه اذا أعطانى جيادا سيئة ! وهات شايا لنا .. تول تقديم الشاى يا زافالشيفسكى ، فاننى ذاهب لالقى نظرة على ايلين ، وارى كيف حاله » .. ومضى فى الردهة ، نحو غرفة الفارس الاوغلانى . وكان « ايلين » قد فرغ لتوه من اللعب ، وخسر آخر « كوبك » فى جيبه ، فانكفأ على الاريكة ، وراح يجتذب شعرة اثر شعرة من غطائها المصنوع من شعر الخيل — فيرفعها الى فمه ، وينقضها حتى يشطرها ، ثم يبصقها ! ..وعلى المائدة — التى تناثرت فوقها أوراق اللعب — كانت تمة شمعتان تناضلان

ضوء النهار ، الذى بدأ يتسلل خلال النافذة ، وقد احترقت احداهما حتى الورق الذى كان فى التجويف الذى اقيمت فيه.
ولم تكن فى رأس « ايلين » فكرة واحدة ، فقد لفت حواسه غشاوة كثيفة من شهوة المقامرة .. حتى الندم ، لم يكن يشعر به . وبذل محاولة واحدة ليفكر فيما ينبغى ان يفعل، وكيف يرحل وهو مفلس ، وكيف يسدد الخمسة عشر الفا من روبلات التاج ، وما الذى يحتمل أن يقوله قائد كتيبته ، وما الذى قد تقوله أمه وزملاؤه .. وشعر بجزع واشمئزاز من نفسه ، حتى انه ـ رغبة فى نسيان نفسه ـ نهض ، وراح يذرع الحجرة ، محاولا أن لا تهبط قدمه فى خطواته ، الا حيث تلتحم أخشاب الارض ، وبدأ ـ من جديد ـ يتذكر بجلاء كل دقيقة من دقائق اللعب . تمثل بجلاء كيف بدأ يكسب نقوده من جديد ، وكيف سحب «تسعة» ووضع « الروا انسباتى» على ألفي روبل . ووزع المشرف على (البنك) الورق ، فنال اليدين « دام » ، ونال اليسار « آس » .. ثم « روا كبه » الى اليمين ، فاذا كل شىء يضيع . ولو قدر اليمين أن ينال « ستة » ـ مثلا ـ وان ينال اليسار « الروا الكبة » ، لقدر له أن يكسب ، وللعب مرة أخرى على ان يكسب الضعف أو ينسحب من اللعب ، ولربح خمسة عشر الف روبل ، ولاستطاع أن يبتاع من قائد كتيبتــه جوادا « رهوانا » ، وزوجا آخر من الجياد ، ومركبة خفيفة « فايتون » .ثم ، ماذا بعد ؟.. كان كل شىء يصبح بديعا ، رائعا ! .. وعاد الشاب ينبطح على الاريكة ، يمضغ شعر الخيل ! .. وراح يسائل نفسه : « لماذا تراهم يغنــون فى الحجرة رقم ٧ ؟ لا بد أن ثمة شرابا عند توربين . أأذهب وأسكر ؟ »

★ ★ ★

وفى تلك اللحظــة دخل الكونت ، فصــاح : « ماذا ايهــا

الزميل ؟ هل جردت من كل مالك ؟ » . فقال ايلين لنفسه : « سأتظاهر بالنوم ، والا فسيوف اضطر الى أن أتحدث اليه، مع آنني اريد ان انام ! » . بيد ان توربين تقدم منه ، وربت رأسه قائلا : « حسنا يا صديقي العزيز ، هل جردتمن كل مالك ؟ .. هل خسرت كل شيء ؟ .. انبئني ! »

ولم يحر « ايلين » جوابا ، فجذب الكونت ذراعه . واذ ذاك تمتم « ايلين » ــ فى صوت ناعس ، غير مكترث ، مثقل بالهم ــ دون أن يبدل من وضعه : « خسرت .. ولكن ، ما شانك انت ؟ » . فصاح الكونت : « كل شيء ؟ » . وكان الجواب : « اجل .. وما فى ذلك ؟ .. كل شيء ، ففيم يهمك الامر ؟ » . فقال الكونت وهو يميل الىالترفق ، تحت تاثير الخمر التى شربها ، وقد ظل يربت شعر ايلين : **« اسمع ، صارحنى بالحقيقة كزميل لك .. لقد تملكنى ميل اليك ، فقل لى الحق . اذا كنت قد خسرت نقودا تمت للتاج ، فسانقذك من مازقك ، فان الفرصة سرعان ما تفلت .. أكان معك نقود للتاج ؟ » . فقفز ايلين ناهضا ، وقال : « حسنا ، اذن .. اذاشئت ان اخبرك ، فلا تتحدث الى ، لانني .. ارجوك ، لا تكلمني..ان الحل للوحيد هو اناطلق الرصاص على نفسي ! »**

وكان يأسه صادقا .. وهوى راسه علىراحتيه ، وانفجر باكيا ، رغم انه كان ــ قبل لحظة ــ يفكر فى الخيلبهدوء .. وقال الكونت : « يا له منمسلك بديع ، كمسلك البنات !.. اين الرجل الذى لم يفعل ما فعلته أنت ؟ .. انها ليست نكبة بالغة ، ولعلنا نستطيع اصلاح الامر . انتظرنى هنا ! »

وغادر الكونت الحجرة ، فسأل خدم الفندق : « أين حجرة السيد لوخنوف ؟ » . وتطوع خادم بمرافقته اليها . ودخلها الكونت ، رغم ان تابع لوخنوف الخاص اخبره بأن مولاه قد عاد لتوه ، وكان يخلع ثيابه .. **ووجده الكونت جالسا الى**

منضدة — وهو فى ثوب الغرفة (الروب دى‌شامبر) — وقد راح يحصى عدة حزم من الاوراق المالية كانت ملقاة امامه .
وكانت على المنضدة زجاجة من « روم » الراين ، الذى كان جد مولع به ، فكان يسمح به لنفسه — بعد الكسب — على سبيل المتعة ! .. وتطلع « لوخنوف » فى فتور وعبوس — خلال عوينتيه — الى الكونت ، وكأنه لم يعرفه . فقال‌هذا ، وهو يخطو الى المنضدة فى‌اصرار : « احسبك لاتعرفنى ! » . فأبدى « لوخنوف » ما ينم عن‌معرفة ، وسأله : « وما الذى تبتغيه ؟ » . فأجاب توربين وهو يجلس‌على الاريكة : «أحب أن العب معك » . فهتف الرجـل : « الآن ؟ » . وأجـاب زائره : « اجل »

— يسرنى أن العب معك فى وقت آخر يا كونت : اما الآن، فاننى متعب ، وسـآوى الى فراشى . هل لك فى قدح من الخمر ؟ .. انه نبيذ مشهور !

— ولكننى أريد أن العب قليلا .. الآن !

— لست اعتزم اللعب الليلة .. ربما رغب بعض السادة الآخرين ، أما انا ، فلست اريد .. ارجو أن تعذرنى ياكونت!

— اذن ، فانت تأبى ؟

وهز « لوخنوف » كتفيه ، ليعبر عن اسـفه لعجزه عن التصرف بما يرضى رغبة الكونت . بينما عاد هذا يتساءل : « أتأبى ، مهما تكن الاحوال ؟ » . ولم يتلق جوابا ، سوى الهزة نفسها . فقال : « ولكننى ارجو هذا ، بوجه‌خاص .. فهل تلعب ؟ » .. وكان الجواب صمتا . فعاد يتسـاءل : « هل تلعب ؟ .. فكر ! » . ولم يجب الآخر بغير الصمت ونظرة سريعة — من‌فوق حافتى‌عوينتيه — الى‌وجه الكونت، الذى بدأ يتجهم . فصاح هذا بصوت‌عال ، وهو يدق‌المنضدة بقبضته ، فيقلب الزجاجة ، ويريق الخمر : « **هل تلعب؟..** **أنت تعرف انك لم تـكسب عن حق .. هـل تلعب ؟ اننى**

اسألك للمرة الثالثة !)) . فأجاب لوخنوف ، دون ان يتطلع اليه : « قلت انني لن العب.. انه لامر عجيب حقا ، ياكونت. ثم انه ليس من اللائق اطلاقا ان تأتي ، فتسلط سكينا على حلق رجل ! »

واعقب ذلك صمت اشتد فيه شحوب الكونت . وفجأة، هوت على رأس «لوخنوف» ضربة ، اذهلت حواسه ، فوقع على الاريكة محاولا ان يمسك بالنقود ، واطلق صرخة مرتاعة مدوية ، ما كان أحد ليتوقعها من رجل في مثل هدوئه ورصانته . **وجمع توربين ما كان على المنضدة من نقود ، ودفع الخادم ـ الذي جرى لمعونة سيده ـ عن طريقه ، وبارح الحجرة في خطوات سريعة . حتى اذا بلغ الباب ، التفت الى لوخنوف قائلا : ((اذا شئت ترضية ، فانا في خدمتك !))..** وكان كل ما سمع في الحجرة هو : « لص ! .. سارق ! .. سأستعدي القانون عليك ! »

ولم يكن « ايلين » قد حفل بوعد الكونت بأن يساعده ، فظل راقدا على الاريكة في حجرته ـ كما كان من قبل ـ وهو يجهش ببكاء يائس ..ولم يبارحه ادراك حقيقة ماحدث له.. الادراك الذي استطاعت ملاطفات الكونت وعطفه أن تكشف عنه من بين المشاعر والافكار والذكريات المتشابكة ، التي كانت تملأ رأسه ونفسه .. **لقد ضاع كل شيء تماما ـ شبابه الغني بالامل ، وشرفه ، واحترام المجتمع ، واحلام الحب والصداقة !** .. وبدأ نبع دموعه يفيض ويغدق باطراد ، واخذت فكرة الانتحار تزداد الحاحا عليه ، ولم تعد تملأ نفسه اشمئزازا وجزعا .

واذ ذاك ، سمع خطوات الكونت الثابتة .. وكانت آثار الغضب لا تزال بادية على وجه توربين ، كما كانت يداه تهتزان قليلا ،ولكن عينيه كانتا تفيضان بطرب رحيم ،وبرضى عن النفس .. وقال وهو يلقي على المائدة عدة حزم من

الاوراق المالية : «هاك .. لقد اكتسبناها ثانية ! .. تأكد من ان جميع نقودك هنا ، ثم أسرع وتعال الى قاعة الجلوس !» .. ثم أردف : « فانني راحل نتوى »

وكأنما لم يلمح الفرح ، والعرفان ، والانفعال البالغ ، على وجه ايلين ، فبارح الحجرة وهو يردد بالصفير لحنا من الحان الغجر !

« ٨ »



• أقبل ساشكا ــ وقد أحاط خصره بحزام عريض ــ فأعلن ان الجياد معدة ، ولكنه اصر على وجوب استرداد معطف الكونت ــ الذى قال أن ياقته الفرائية كانت تساوى ثلاثمائة روبل ــ وعلى اعادة المعطف الازرق الباهت ، الذى كان الكونت يرتديه ، الى الشقى الذى تركه واخذ معطف الكونت بدلا منه ، في قصر المارشال .. وما درى حقيقة الامر ، ولكن **الكونت قال له ان لا حاجة هناك الى البحث عن المعطف ، ثم سار الى حجرته ليستبدل ثيابه** . بينما استولى الفواق (الزغطة) على الفارس المتقاعد ، وهو يجلس الى جوار فتاته النورية .. وصاح قائد الشرطة يطلب « فودكا » ، ودعا الجميع الى أن يرافقوه ليتناولوا الفطور معه ، ممنيا أياهم بأن زوجته

سترقص ولا بد مع الغجر . وكان الشاب النبيل الوسيم ، مستغرقا فى حديث جاد مع « ايليوشكا » ، ليبين له ان ثمة روحا حقة فى انغام البيانو ، وانه من غير المستحسن توقيع الانغام المنخفضة العميقة على الجيتار . أما الموظف ، فقد جلس واجما فى احد الاركان ، يشرب الشاى ، وقد بدا — فى ضوء النهار — مستحييا من سكره وتأثير الخمر عليه . وكان الغجر يتناقشون فيما بينهم — بلغتهم القومية — بصدد الهتاف ثانية لضيوفهم — على ما اعتادوا اذا ارادوا ان يختتموا غناءهم ورقصهم — فكانت ستيشـــكا تعارض ، قائلة ان « انباروردى » — وهى فى اللغة النورية ترادف « كونت » او « اميرا » ، او على الادق : سيدا عظيما — خليق بأن يغضب لذلك . وكانت آخر جمرات العبث تخمد فى نفوس الجميع بوجه عام !

وقال الكونت وهو يلج قاعة الجلوس — فى ثياب السفر — وقد تجدد نشاطه ومرحه ، وبدا أجمل من ذى قبل : « حسنا ، لنسمع اغنية وداع ، ثم ينطلق كل منا فى طريقه ! » . فكون الغجر حلقتهم من جديد ، وكانوا على وشك ان يبدأوا الغناء ، حين دخل « ايلين » ، وفى يده حزمة من الاوراق المالية ، فانتحى بالكونت جانبا ، وقال : « لم يكن معى من نقود التاج سوى خمسة عشر الف روبل ، ولكنك أعطيتنى ستة عشر الفا وثلاثمائة . . فهاك المبلغ الزائد ! »

— هذا بديع ، هاته !

واعطاه « ايلين » النقود ، ونظر اليه فى استحياء ، ثم فتح شفتيه ليقول شيئا ، ولكنه لم يتكلم ، بل تضرج وجهه ، وتبادرت الدموع الى عينيه ، وامسك بيد الكونت وأخذ يشد عليها . فقال هذا : « عليك بالرحيل ! . . اسمع يا ايليوشكا ! هاك بعض المال لكم ، على أن ترافقونى بالاغانى الى خارج البلدة ! » . . وطوح بالالف وثلاثمائة روبل — التي احضرها اليه

ايلين ـ فاستقرت على الجيتار . ومع ذلك ، فقد نسي الكونت ان يرد المائةروبل التى كانقد اقترضها من الفارس المتقاعد، فى اليوم السابق !

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وقد أشرقت الشمس فوق سطوح المنازل ، وبدأ الناس يروحون ويغدون فى الطرقات ، وقد فتح أصحاب الحوانيت ابوابهم منذ فترة ، وانطلقت عربات وجهاء القوم وكبار الموظفين تجوس خلال الطرقات ، واقبلت السيارات على السوق .. وقصارى القول ، كان النشاط قد دب فى المدينـــة ، حين خرج الغجر ـ بكامل فرقتهم ـ وقائد الشرطـة ، والفـارس المتقاعد ، والنبيـل الوسيم ، وايلين ، والكونت ـ فى المعطف الازرق المبطن بفراء الدب ـ الى باب الفندق .. وكان النهار مشمسا ، وقد اخذ الجليد فى الذوبان . واقبلت على الباب ثلاث زحافات كبيرة ـ من زحافات البريد ـ تجر كلا منها ثلاثة من الخيل عقدت ذيولهـا .. وصـــعد الى الزحافة الاولى : الكونت وايلين ، وستيشكا ، وايليوشكا ، وساشكا تابع الكونت . وكان «بلوخر» يهز ذيله ، وينبح فى الجياد . وصعد بقية السادة الى الزحافتين الاخريين ، ومعهم سائر الغجر نساء ورجالا . وما ان انطلقت الزحافات ، حتى بدأ الغجر يعزفون ويغنـون .. واختلط غناؤهم بأجراس الزحافات ، فكانت المركبات الاخرى تندفع نحو الارصفة ، مفسحة الطريق للموكب ، الذى اندفع خلال البلدة ، ميمما شطر ابوابها الخارجية . ولم تبد الدهشة على أصحاب الحوانيت والمارة الذين لم يكونوا يعرفون القوم ـ فما بالك بمن كانوا يعرفونهم ! ـ اذ راوا هؤلاء الوجهاء يجوسون خلال الطرقات فى وضح النهار ، مع النوريات ، ومع السكارى من رجال الغجر ، وهم يغنون .

وعندما اجتازوا أبواب المدينة ، توقفت الزحافات ، وشرع كل امرىء يودع الكونت . واستولى حزن مفاجىء شديد على

« ايلين » ــ الذى كان قد أسرف في الشراب ، وقاد الزحافة بنفسه ــ فراح يلحف على الكونت أن يبقى ليوم آخر . حتى اذا وجد أن الامر غير ممكن ، اندفع فجأة الى صديقه الجديد ، فقبله ، ووعده ــ ودموعه تجرى ــ بأن ينتقل الى كتيبة الفرسان الخفيفة ، التى كان الكونت فيها ، بمجرد عودته الى قيادته . وكان الكونت شديد المرح فوق عادته ، فدفع الفارس المتقاعد ــ الذى ازدادت ألفته فى الصباح ــ وألقى به فى بركة من الجليد الذائب .. وأطلق « بلوخر » على قائد الشرطة ، واحتوى « ستيشكا » بين ذراعيه ، وود أن يحملها معه الى (موسكو) . ثم قفز أخيرا الى الزحافة ، وأجلس بلوخر الى جواره . وقفز « ساشكا » الى جانب السائق ، بعد أن كرر رجاءه للفارس المتقاعد كى يستعيد معطف الكونت ويرسله اليه .. وصاح الكونت : « انطلق ! » ، ثم خلع قلنسوته ولوح بها فوق رأسه ، وأرسل صفيرا يستحث به الجياد ، كما يفعل حوذية محفات البريد ، فانطلقت الزحافات .

وكان السهل مغطى بالجليد ، وليس فيه من المناظر ما يدفع السأم ، وقد تعرجت خلاله طريق قذرة يميل لون أديمها الى الصفرة . وكانت أشعة الشمس المشرقة ــ التى راحت تنعكس على الجليد الذائب ، فى بريق يعابث العيون فى دلال ــ ذات دفء مستعذب ، يسرى فى وجه المرء وظهره . وأخذ البخار يتصاعد كثيفا من الجياد التى بعث الجهد فى أجسادها دفءا .. وراحت أجراس المحفة تصلصل فى مرح . وكان ثمة فلاح يقود محفة مثقلة بالاحمال ، فأسرع يدفعها بعيدا عن الطريق ، وهو ينثر الماء أثناء خوضه برك الجليد الذائب بحذاءيه المصنوعين من لحاء الشجر .. وفى محفة اخرى ــ مثقلة بالاحمال ــ جلست فلاحة سمينة ، ذات وجه أحمر ، وقد دست طفلا رضيعا فى صدر معطفها المصنوع من جلد الغنم ، وراحت تستحث جوادا أبيض ، هزيل الذيل ، مكدودا ..

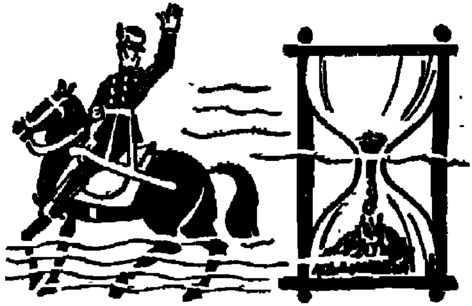
وخطرت « آنا فيدوروفنا » فجاة بذهن الكونت ، فصاح : « ارجع ثانية ! » . ولم يفقه الحوذى غرضه ، فعاد يصيح : « عد ثانية .. الى المدينة ! أسرع ! » . واجتازت الزحافة ابواب المدينة من جديد ، واندفعت مسرعة الى الابواب الخشبية لدار « آنا فيدوروفنا » . وطوى الكونت سلم الدار ، واجتاز البهو ، ومرق خلال حجرة الجلوس ، حتى اذا وجد الارملة لا تزال نائمة ، احتواها بين ذراعيه ، ورفعها عن السرير ، وقبل عينيها الناعستين ، ثم هرع عائدا . ولعقت « آنا فيدوروفنا » شفتيها ، وهى وسنانة ، وتمتمت : « ما الذى جرى ؟ » .. وكان الكونت قد قفز الى محفته ، وصاح فى السائق ، فانطلقت به المحفة .. وغادر بلدة (ك ...) الى الابد ، وقد خلا فكره من كل شيء عن « لوخنوف » ، والارملة ، و « ستيشكا » ، ولم يعد يشغله سوى .. ارتقاب ما كان ينتظره فى (موسكو)

* * * * * *

* * * * * *

— « ٩ » —

وانقضى اكثر من عشرين عاما ، سالت خلالها مياه كثيرة ، ومات خلالها اناس كثيرون ، كما ولد خلق أكثر .. وشب كثيرون واكتهل كثيرون .. وولد مزيد من الآراء الجديدة ، ثم ذوى ومات .. وفنى الكثير من القديم الذى كان جميلا ، والكثير من القديم الذى كان رديئا .. ونما كثير مما كان جميلا وحديثا ، كما ظهر فى دنيا الله أكثر منه مما كان فجا ، وفظيعا ، وجديدا .. وكان « الكونت فيدور توربين » قد قتل منذ أمد طويل ، فى مبارزة مع رجل اجنبى كان الكونت قد جلده بسوط الخيل فى عرض الطريق



وصار ابنه ـ الذي كان يشبهه في تركيبه البدني ، كماتشبه قطرة الماء أختها ـ شابا مليحا في الثالثة والعشرين من عمره ، يخدم في فرقة « الحرس الفرسان » . على ان « توربين » الصغير لم يحرز اقل شبه بأبيه ، في الناحية الخلقية ، فلم يكن به ظل من النزوات الوقحة ، المشبوبة ، بل المنحطة ـ ان شئت الصراحة ـ التي امتاز بها الجيل المنقرض . ولكنه ورث ـ **الى جانب الذكاء ، والثقافة ، والفطرة الموهوبة ـ حبا للثراء والرفاهية ، ونظرة عملية الى الرجال والاعمال .. وكان التعقل والحكمة هما أكثر صفاته المميزة** . وقد مضى الكونت الشاب قدما في السلك العسكري ، فكان « ملازما أول » وهو في الثالثة والعشرين . حتى اذا بدأت الحرب ، هداه فكره الى ان ترقيته تصبح أكثر احتمالا ، اذا هو انتقل الى الجيش العامل ، ومن ثم فقد التحق برتبة «كابتن» باحدى كتائب الفرسان الخفيفة، وسرعان ما أصبح قائد فصيلة.

وفي مايو سنة ١٨٤٨ ، كانت كتيبة الفرسان « ... » تتحرك خلال اقليم (ك ...) في حملة ، وقد صدرت الاوامر للفصيلة التي كان يقودها الكونت توربين الشاب ـ بالذات ـ بأن تقضي ليلتها في قرية (موروزوفكا) ، التي كانت من أملاك « آنا فيدوروفنا » .. وكانت « آنا فيدوروفنا »

لاتزال على قيد الحياة ، ولكنها كانت قد بعدت عن الشباب كثيرا ، حتى انها لم تعد ترى نفسها شابة ، وهو أمر يصعب على أية امرأة أن تعترف به ! .. وكانت قد أضبحت مفرطة السمنة ، مما يقال انه يجعل المرأة تبدو أصغر سنا . ومع ذلك فقد تخللت سمنتها البضة تغضنات عميقة ، ناعمة ! .. ولم تعد تذهب الى البلدة قط ، فقد أصبح الصعود الى عربتها جهدا مضنيا لها .. بيد انها ظلت رقيقة القلب ، غبية كعهدها من قبل .. فقد بات من الممكن للمرء أن يقول الحق ، بعد اذ لم يعد جمالها يستهوى المرء !

وكانت ابنتها « ليزا » .. التى بلغت الثالثة والعشرين من عمرها — تعيش معها ، وهى حسناء ريفية روسية .. كما كان اخوها — صاحبنا الفارس المتقاعد — يقيم معهما بعد اذ بدد ثروته الصغيرة ، عن طيب خاطر ، فوجد فى دار آنا فيدوروفنا » مقاما فى كهولته . وكان شعره قد أصبح أشيب ، وقد غاصت شفته العليا وتجعدت ، وان ظل الشاربان اللذان كانا يعلوانها يلقيان عناية ، ويصبغان باللون الاسود .. ولقد انحنى ظهره ، ولم تقتصر التغضنات والتجاعيد على جبينه وخديه ، وانما شملت أنفه وعنقه كذلك .. غير أن مسلك الفرسان ظل باديا فى حركات ساقيه الكليلتين الموجوعتين!

وجلست الاسرة وأهل البيت — فى ذلك اليوم — فى حجرة الجلوس الصغيرة ، ذات الباب المفضى الى الشرفة ، وذات النوافذ المطلة على الحديقة العتيقة — المنسقة على شكل نجمة — واشجار الموالح فيها . وكانت « آنا فيدوروفنا » الشيباء ، تجلس على الاريكة فى سترة بنفسجية اللون ، وقد اخذت ترتب أوراق اللعب على منضدة مستديرة من خشب « الموجنى » .. اما أخوها المسن ، فقد استقر — فى سروال (بنطلون) أبيض نظيف ، وسترة زرقاء — الى جوار النافذة ، وقد راح يجدل حبلا من القطن الابيض بمعونة شوكة

خشبية .. وهى ملهاة علمته اياها ابنة اخته ، فاحبهاكثيرا، لانه لم يعد يقوى على شيء آخر ، كما ان عينيه كانتا قد ضعفتا فلم تعودا تمكنانه من قراءة الصحف ، وهى هوايته المفضلة . وكانت « بيموشكا » — وصيفة آنا فيدوروفنا — تجلس الى جواره تستذكر درسا ، و « ليزا » تساعدها : وتنسج — فى الوقت ذاته — جوربين من صوف الماعز لخالها ، بابرتين من الخشب . وكانت أشعة الشمس الجانحة للمغيب، تتسلل — كعادتها فى مثل هذه الساعة — خلال أشجار المرالح ، وتلقى أضواء خفيفة على النافذة القصوى وما الى جوارها . وكان الهدوء يسيطر على الحديقة والحجرة ، حتى لقد كان بوسع المرء أن يسمع حفيف جناحى عصفور خارج النافذة ، وزفرات آنا فيدوروفنا ، وانين الرجل المسن وهو يرفع ساقا ليسندها الى الساق الاخرى .

وقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تستريح من ترتيب أوراق اللعب : « كيف يسير النسيج ؟.. أرينى ياليزا ، فانى أنسى دائما ! » .. وسارت اليها « ليزا » — دون أن تكف عن حبك الصوف — والقت نظرة على اوراق اللعب ، وقالت : « لقد أفسدت نظامها ياأماه !» . وعكفت على ترتيبها وهى تقول : « هكذا يجب أن تكون ، ولن يعرقل هذا استطلاعك الحظ خلالها ! » . فقالت الام : « لا بأس ، لا بأس ، أيتها الهرة الماكرة ! ولكن ، أليس هذا وقت الشاى ؟ » . فقالت الفتاة : « لقد امرت بايقاد نار الغلاية (السماوار) ، وسأرى ماذا تم . أتريدين أن تتناولى الشاى هنا ؟ .. هيا يا بيموشكا . اسرعى وافرغى من درسك ! » . واسرعت « ليزا » الى الباب ، فصاح خالها ، وهو ينعم النظر فى شوكته الخشبية : « ليزا .. ليزى ! أعتقد أننى افلت غرزة ، فالتقطيها لى يا عزيزتى ! »

ـ سآتي حالا .. يجب أولا أن أعطيهم قمعا من السكر ليكسروه !

وصدقت في وعدها ، فما لبثت ان عادت مهرعة بعد ثلاث دقائق ، وقرصت أذن خالها ، قائلة وهي تضحك : « هذا جزاء افلات الغرز ! » . فقال خالها : « حسنا ، حسنا ، لا بأس .. أصلحيها .. هناك عقدة صغيرة ! » . **فتناولت « ليزا » الشوكة ، وسحبت دبوسا من شعرها ، الذي عبث به النسيم قليلا ، اذ انساب خلال النافذة ـ والتقطت به الغرزة ، وأصلحت الخيط ، ثم ردت الشوكة الى خالها ، قائلة له ، وهي تقدم له خدها الوردي ، بينما كانت تعيد الدبوس الى شعرها : « الآن ، اعطني قبلة مقابل مافعلت . ستظفر ببعض « الروم » مع الشاي اليوم ، فهو يوم الجمعة كما تعلم ! »** . وسارت الى حجرة الشاي ، ثم صاحت من هناك بصوتها الصافي : « تعال وانظر يا خالي ، ان الفرسان قادمون ! » .. فخفت « آنا فيدوروفنا » مع اخيها الى حجرة الشاي ـ التي كانت نوافذها تطل على القرية ـ لترى الفرسان . ولم يكن ما بدا خلال النوافذ كثيرا ، بل تمثل كله في حشد يسير وسط غلالة من الغبار . فقال الرجل المسن لأخته : « من المؤسف أن تكون حجراتنا صغيرة يا أختاه ، وأن الجناح الجديد لم يكتمل بناؤه ، والا لاستطعنا ان ندعو الضباط . فان ضباط الفرسان الخفيفة من أبدع الشباب وأبهجهم ، وكانت رؤيتهم كفيلة بأن تشرح الصدر ! » . فقالت آنا فيدوروفنا : «كم كنت أسر بهذا ياشقيقي ، ولكنك تعرف اننا لم نؤث غرفا كافية . فهناك مخدعي ، وحجرة ليزا ، وحجرة الجلوس ، وهذه الحجرة ، وحجرتك . وهذا كل ماهناك ! .. فأين ترانا كنا ننزلهم ؟ .. لقد نظف كوخ شيخ القرية لايوائهم ، ويقول ميخائيل ماتفييف انه اصبح تام النظافة ! »

ـ كان انزالهم هنا كفيلا بان يمكننا من ان نختار زوجا منهم لك ياليزى .. فارس بديع من الكتيبة الخفيفة !

ـ لست أريد فارسا من الكتيبة الخفيفة ، وافضل عليه فارسا من « الاوغلان » .. الم تسكن انت من « الاوفلان » ياخالى ؟ .. لاشأن لى بفرسان الفرقة الخفيفة ، اذ يقال انهم جميعا مفسودون !

واحمر وجهها قليلا ، واطلقت ضحكة كأنغام الموسيقى . ثم اردفت : « هاهى ذى اوستيوشكا تقبل مهرعة ، فلنسألها عما رات » . وسألتها آنا فيدوروفنا أن تدعو اوستيوشكا، فلما أقبلت هذه ، بادرتها قائلة : « لاقبل لك بأن تنصرفالى عملك ، فليس بوسعك أن تستغنى عنالجرى لترى الجنود.. اين نزل الضباط ؟ » . فأجابت الخادم : « فى بيت ايرومكين يا مولاتى ، انهما ضابطان .. ما أملحهما ! .. يقال ان أحدهما كونت ! » . فسألتها آنا فيدوروفنا : « وما اسمه. ؟ » . وأجابت الفتاة : « كازاروف ، او توربينوف .. يؤسفنى ان نسيت ! »

ـ ما أغباك ! .. اليس بوسعك ان تنبئينا بشىء ذى قيمة . كان خليقا بك ان تعرفى الاسم على الاقل !

ـ حسنا سأجرى الى هناك ثانية .

ـ اعرف أنك ماهرة فى هذا .. لا ، دعى دانييل يذهب!.. قل له يا أخى ان يسأل عما اذا كان الضابطان فى حاجة الى شىء ، فمن الواجب اظهار بعض المجاملة لهما ، على اية حال. دعه يقول ان سيدة الضيعة اوفدته للسؤال عنهما !

وجلس الشقيقان المسنان فى حجرة الشاى ، بينما ذهبت « ليزا » الى غرفة الخدم لتضع السكر الذى تم تكسيره فى الصندوق . وكانت اوستيوشكا هناك تحدث

الخدم عن الفرسان ، فما ان رأتها حتي همست : « يالهـذا الكونت من رجل مليح ياموﻻتي الحبيبة !.. ملاك ذوحاجبين اسودين . ولو قدر لك زوج مثله، لكنتما زوجين متلائمين » وابتسمت الخـادمات الاخريات مجسلات ، بينمـا تنهدت المربية العجوز ، وهي تقوم ببعض التطريز الي جوار النافذة ، وراحت تدعو الله هامسة ، بينما قالت ليزا لاوستيوشكا : « اذن فقد أحببت الفرسان ! .. ماأبرعك في رواية مارأيت! .. اذهبي واحضري شيئا من عصير « الآس البري » ، لنعد الفرسان شيئا يشربونه ! » . وانصرفت حاملة صـندوق السكر ، وهي تضحك . ولكنها راحت تقول لنفسها : « ليتني اري حقا ذلك الضـابط الفارس .. أهو أسمر أم أشقر ؟ وما أحسبه الا كان يسر بالتعرف الينـا .. ولو انه رحـل ، فلن يقـدر له ابدا ان يعرف أنني كنت هنا ، وانني فكرت فيه . وكم من امثاله مروا على مقربة مني ؟ .. منذا الذي يراني هنا سـوى خالي ؟.. مامن احـد يغتبط اذا مارأى الطريقة التي أعقص بها شعري ، أو الثياب التي ارتديها ! »».

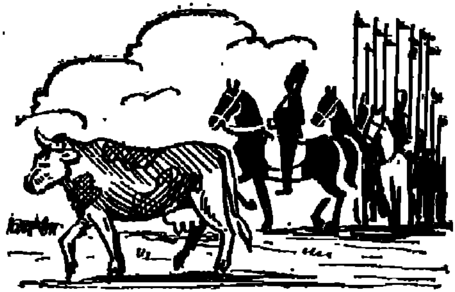
وتنهدت وهي تتأمل ذراعها البضة الممتلئة ، ثم عادت تفكر: « أحسبه طويلا ، واسع العينين ، ذا شاربين صغيرين ! .. وها انذي هنا ، قد جاوزت الثانية والعشرين ، دون أن يقع احد في حبي ، اللهم الا ايفان أيباتيش الذي شوه الجدري شكله .. بل انني كنت منذ اربع سـنوات أجمل ممـا أنا اليوم .. وهكذا تمر ايام شبابي دون ان اشرح صدر احد . آواه ، يالي من فتاة قروية مسكينة .. مسكينة ! »

وايقظ القروية المسكينة من أحلامها صوت أمها يناديهـا لتصب الشاي في الاقداح ، فرفعت راسها مجفلة ، واسرعت الي حجرة الشاي .. وكثيرا ما تاتي خير النتائج عفوا ، بينما تأتي أسوأ النتائج كلما ازداد المرء جدا . وفي الريف قل أن

يعنى الناس بتعليم أولادهم ، ومن ثم فهم يتيحون لهم — دون أن يفطنوا — تعليما بديعا . وقد كانت هذه حال «ليزا» . اذ أن « آنا فيدوروفنا » — بذكائها المحدود ، واهمالها الفطرى — لم تتح لها تعليما .. أى أنها لم تعلمها الموسيقى ، ولا اللغة الفرنسية العظيمة النفع للفتاة .. ولكنها وقد انجبتها عفوا — من زوجها الراحل — طفلة موفورة الصحة والجمال ، فقد هيأت لها مرضعة ومربية ، وألبستها خير الثياب القطنية الموشاة بالزخارف ، وأحذية من جلد الماعز واعتادت أن ترسلها لتتنزه فى الخلاء وتجمع النباتات الفطرية والتوت البرى .. واستأجرت لها تلميذة من مدرسة الدير لتعلمها القراءة والكتابة والحساب .. **حتى اذا انقضى ستة عشر عاما ، وجدت فى « ليزا » صديقة ، وأنيسة رحيمة القلب دائمة الانشراح ، وربة بيت نشيطة . ولما كانت « آنا فيدوروفنا » كريمة النفس ، فانها دائما ما كانت تأوى فى البيت بعض الاطفال لتربيتهم .. سواء كانوا من أبناء العبيد أو من اللقطاء** . وقد بلغت « ليزا » العاشرة ، بدأت تعنى بهم ، فتعلمهم ، وتلبسهم ثيابهم ، وتصحبهم الى الكنيسة ، وتكبحهم اذا أسرفوا فى اللعب المرهق . وعندما كبرت ، ظهر على مسرح حياتها الخال الرقيق القلب ، الموجوع الساقين ، الذى كان بحاجة الى من يعامله كطفل .. ثم أصبح الخدم والفلاحون يأتون للسيدة الصغيرة بمطالبهم العديدة ، وبأوجاعهم التى كانت الفتاة تعالجها بحب البيلسان والنعناع والكافور .. وكانت هناك شؤون التدبير المنزلى التى ألقيت على عاتقيها من تلقاء ذاتها .

وما لبثت أن استيقظ فى أعماقها حنين لم يلق رضاء .. حنين الى الحب ، لم يجد منفذا له الا فى الطبيعة ، والدين .

فاصبحت ليزا انثى نشيطة ، طيبة ، بشوشة ، معتمدة على نفسها ، طاهرة ، عميقة التدين .. ومن الصحيح أنها كانت تتألم ــ بعض الشيء ــ من جراء غرور أنوثتها ، اذا ما رأت جاراتها يقفن بجوارها في الكنيسة ، مرتديات أحدث أنواع القبعات المجتلبة من بلدة (ك ...) . وكانت تستاء أحيانا من نزوات أمها العجوز وزمجرتها ، الى درجة البكاء .. وكانت تراودها ــ كذلك ــ أحلام الحب ، في أكثر صوره سذاجة واضحاكا . ولكن هذه الاحلام كانت تتبدد في نشاطها النافع الذى تحول الى ضرورة . فلما بلغت الثانية والعشرين من عمرها ، لم يكن قد تبقى في نفسها الصافية المطمئنة ــ نفس العذراء التى نمت بدنيا ونفسيا على أجمل صورة ــ أى أثر للندم أو الحسرة .. وكانت « ليزا » متوسطة الطول ، أقرب الى السمنة منها الى النحول ، ذات عينين في لون ثمار البندق ، ليستا بالواسعتين ، وقد خلق جفناهما السفليان مكحولين قليلا . كما كان لها شعر طويل الغدائر ، ذو لون بنى فاتح . وكانت تسير في خطوات واسعة ، وهى تتمايل قليلا كالبطة .. كما يقولون ! اما وجهها ، فكان يبدو ــ عندما تكون مشغولة ، وغير منفعلة ــ وكأنه يقول لكل من ينظر اليه : « من المبهج أن يعيش المرء في الدنيا ، عندما يكون له من يوليه الحب ، وعندما يكون له ضمير صاف ! » .. حتى في لحظات الاستياء ، أو الحيرة ، أو الجزع ، أو الحزن كانت تتجلى في عينيها ــ بالرغم منها ، وبالرغم من الدموع التى تملأ عينيها وحاجبها الايسر العابس وشفتيها المزمومتين ــ نفس صريحة ، لم يفسدها عقل معوج .. كانت روحها الصافية تشع من غمازتى خديها ، ومن ركنى فمها ، ومن العينين المضيئتين اللتين اعتادتا الابتسام والرضى بالحياة !



« ١٠ »

• كان الجو لايزال حارا، رغم أن الشمس جنحت الى المغيب عندما دخلت الفصيلة قرية (موروزوفكا) .. وعدت أمام الفرسان - فى طريق القرية المتربة - بقرة جامحة شردت عن قطيعها ، فراحت تقف وتتلفت من آن الى آخر ، وهى ترسل خوارا ، دون أن يخطر لها ببال اطلاقا ، أن خير ماتفعله هو أن تتنحى عن الطريق . واحتشد الفلاحون - شيوخا ونساء واطفالا ، وخدما من دار سيدة الضيعة - على جانبى الطريق ، وراحوا يتأملون الفرسان فى فضول ، بينما كان هؤلاء يمسكون بأعنة جيادهم - التى كانت تدق الارض ، وتصهل أحيانا - وسط عاصفة كثيفة من الغبار . والى يمين الفصيلة ، كان ثمة ضابطان استويا - فى غير اكتراث - على صهوتى جوادين أسودين بديعين . وكان أحدهما هو « الكونت توربين » ، القائد . اما الآخر ، فكان شابا فى غضارة الصبا ، رقى حديثا من مرتبة الطلبة الى مرتبة الضباط ، ويدعى « بولوزوف » .

ومن أحسن كوخ فى القرية ، خرج فارس فى سترة بيضاء من التيل ، فرفع قلنسوته ، وسار الى الضابط . فسأله الكونت : « اين المقر الذى خصص لنا ؟ » . فقال « جاويش

التعيينات» المشرف على مقام الفصيلة ، وقد شد جسمه كله: **((لقد نظف كوخ شيخ القرية لسعادتكما . وقد أردت أن أنزلكما فى دار سيدة الضيعة ، ولكنهم يقولون ان ليست هناك حجرات . ان صاحبة الزمام لئيمة !))** . فقال الكونت وهو يترجل أمام كوخ شيخ القرية ، ويشد ساقيه : « لا بأس !.. وهل وصلت مركبتي الخفيفة ؟ » . فأجاب « جاويش التعيينات » ، مشيرا بقلنسوته الى الهيكل الجلدى لعربة ظهرت لدى المدخل الخارجي للكوخ ، واندفعت الى بابه الداخلي الذى اصطف عنده أعضاء أسرة شيخ القرية ليتأملوا الضابط: «ها هى ذى قد وصلت لتوها يا صاحب السعادة » . ودفع عجوزا من الواقفات ، وهو يفتح بنشاط باب الكوخ الذى نظف حديثا ، ويخطو جانبا ليفسح المدخل للكونت

وكان الكوخ كبيرا ، واسعا ، ولكنه لم يكن نظيفا للغاية . وكان الوصيف الالمانى — الذى كان يبدو فى لباس السيد الراقى — يقف فى الداخل ، يرتب الثياب فى حقيبة كبيرة ، بعد أن أقام سريرا حديديا ، وهيأ الفراش . **وهتف الكونت فى استياء : ((أف ! .. يا له من مسكن قذر ! أليس بوسعكم أن تعثروا على شيء أفضل ، فى منزل أحد السادة ، يا ديادينكو ؟))** . فأجاب جاويش التعيينات : « اذا رغبت يا صاحب السعادة فسأحاول مرة أخرى فى بيت سيدة الضيعة . ولكنه لا يبدو أفضل من الكوخ كثيرا » . فقال الكونت : « لا بأس .. انصرف ! » . واستلقى على الفراش ، وقد عقد ذراعيه تحت رأسه . وما لبث ان صاح بوصيفه : « جوهان ! .. لقد تركت جزءا عاليا فى الفراش .. كيف لا تتقن اعداد الفراش كما ينبغي ؟ » . فأسرع جوهان كي يسويه ، ولكن الكونت قال : « لا ، دعه الآن » . وأردف فى لهجة تنم عن عدم الرضى : « ولكن ، أين ثوب الغرفة ؟ » . فناوله الوصيف « الروب دي شامبر » . فتأمله الكونت —

قبل أن يرتديه ــ وقال : « لقد توقعت هـذا .. ان البقعة لم تنظف بعد . افهنالك خادم أسوأ منك ؟ » . وشد الثوب من يد الخـادم ، وارتداه قائلا : « قل لى : أتتعمـد هـذا الاهمال ؟ .. هل الشاي معد ؟ » . فقال جوهان : « لم يكن لدى وقت لاعداده » . فهتف الكونت : « يا لك من بليد ! »

وتناول الكونت بعد ذلك رواية فرنسية وضعت خصيصا الى جوار فراشه ، فراح يطالع فيها بعض الوقت ، فى صمت، بينما خرج « جوهان » الى الردهة ليعد الغلاية . ولاح جليا أن الكونت كان سيء المزاج ، ولعل ذلك كان راجعا الى التعب، والغبار الذى ران على وجهه ، والثياب المشـدودة حـول جسمه، والمعدة الخاوية . فما لبث ان صاح ثانية :«جوهان! احضر لي حسابا عن الروبلات العشرة . ما الذى اشـتريته من البلدة ؟ » . وتأمل الحساب الذى قـدم اليـه ، وأدلى ببعض ملاحظات نمت عن عدم اقتناع بالاثمان الباهظة ، ثم قال : « قدم بعض الروم مع الشاى » . فقال جوهان :«انني لم أشتر (روم) ! » . فصاح الكونت : « هذا بديع ! ..كم من مرة نبهتك الى وجوب وجود الروم ؟ »

ــ لم يكن معى كفاية من النقود

ــ اذن ، فلماذا لم يشتر بولوزوف قدرا منه ؟ .. كان يجب أن تحصل من خادمه على بعض النقود للروم !

ــ لست ادرى .. لقدابتاع الشاى والسكر

ــ ياغبى ! .. اخرج ! .. انك الانسـان الوحيـد الذى يعرف كيف يجعلنى أفقد صبرى .. انك تعرف اننى اتناول دائما الروم مع الشاى فى الرحلات !

وكان حامل العلم « بولوزوف » قد أشرف على استقرار الفصيلة ، فأقبل بوجه مرح . وقال : « كيف الحال يا توربين؟ .. يبدو أن المكان هنا لطيف . ولكنى أصارحك بأننى جد متعب ، فقد كان الجو حارا » . فصاح الكونت : « لطيف ؟ !

.. كوخ رطب قذر .. ولا (روم) بفضل سيادتك ، فان خادمك الغبى لم يشتر شيئا ، وكذلك هذا القبى ! .. كان جدير بك أن تتذكر ، على الاقل ! » .. وخرج حامل العلم الى الردهة ، حيث راح يهمس لتابعه : « ولكن ، لماذا نشترى نحن كل شيء ؟ .. كأنما أنا المسئول عن دفع ثمن كل شيء ، فى حين ان وصيفه الالمانى لا يفعل شيئا سوى أن يدخن غليونه ! » .. وكان الكونت قد تسلم ـ فى تلك الاثناء ـ خطابين من وصيفه ، قرأ الأول ثم كوره وألقى به على الارض .. **وبدا أن الخطاب الآخر لم يخل من شيء لذ له ، اذ ابتسم وهو يقرأه ، فسأله بولوزوف ، وقد عاد الى الحجرة وشرع يعد لنفسه مرقدا على بضعة ألواح خشبية : « ممن هذا ؟ » . فأجاب الكونت مبتهجا ، وهو يسلمه الخطاب : « من مينا .. أتريد أن تراه ؟ .. يا لها من امرأة لطيفة ! .. الحق أنها أفضل بكثير من شابات طبقتنا الراقية** .. أنظر مدى ما فى هذا الخطاب من مشاعر وذكاء ! .. ليس به من عيب سوى انها تطلب نقودا ! » . فقال الضابط : « أجل ، هذا عيب ! »

ـ من الصحيح أننى وعدتها ببعض المال ، ولكن هذه الحملة فاجأتنا ، كما أن .. ومع ذلك ، فسأرسل لها مبلغا ، اذا ظللت فى قيادة هذه الفصيلة ثلاثة أشهر أخرى . انها تستحقه ، فهى فاتنة !

وكان يراقب وجه بولوزوف وهو يقرأ الخطاب ، فما لبث هذا أن قال : « انه فظيع من الناحية النحوية ، ولكنه لطيف جدا ، ويلوح أنها تحبك حقا ! » . فقال الكونت : « اممم ! .. أظنها كذلك ! لا يخلص فى الحب سوى هذا الصنف من النساء ، اذا ما أحبت الواحدة منهن حقا ! » . فسأله الضابط الشاب : « وممن كان الخطاب الآخر ؟ » . **واجاب الكونت وقد بدا مستاء : « آه ، ذاك .. هناك رجل ، وغد سخيف ، كسب منى فى المقامرة ، فهو يذكرنى بالدين للمرة الثالثة .. ولست**

أملك أن أدفعه فى الوقت الحاضر ! »
وسادهما الصمت برهـة ، كان حامل العلم ـ الذى بدا خاضعا لتأثير الكونت وسلطانه ـ يلقى نظرات على أسـارير توربين الوسيمة ، المكفهرة .. وما لبث هذا أن قال ، وهو يحتسى الشاى : « ولكن، أتعرف أن الامر قد يتحسن تحسنا جوهريا .. فلو أننا حصلنا على ترقية ـ بحكم الاقدمية ـ فى هذه السنة ، واشتركنا ـ الى جانب ذلك ـ فى بعض العمليات ، فاننى قد أسبق فى الترقية من يتقدموننى فى الحرس » .
وكان الحديث لايزال يدور حول هذا الموضوع ، عندما أقبل الشيخ « دانييل » ، وأبلغهما رسـالة آنا فيدوروفنا ، ثم أردف من تلقاء نفسه : « وقد كلفت كذلك بأن أسأل عما اذا كنت ابن الكونت فيدور ايفانيتش توربين ؟ ».. وكان يعرف اسم الكونت ، ويذكر زيارته لبلدة (ك ...) . وعقب قائلا: « لقد كانت مولاتنا آنا فيدوروفنا على تعارف وثيق به ! » .
فأجاب الكونت : **« لقد كان أبى .. وقل لمولاتك اننى جـد ممتن لها ، ولسنا نريد شيئا ، ولكن .. قل اننا كلفناك بأن تسأل عما اذا كان من الممكن أن نظفر بغرفة أنظف من هذه ، فى أى مكان .. فى منزل الضيعة ، أو أى مكان ! »**
وقال له بولوزوف ، بعد انصراف دانييل : « لماذا فعلت ذلك ؟ ماذا يهمنا ؟ ـ اننا لن نمكث سوى ليـلة واحدة .. وقد يضـايقون أنفسهم من أجلنـا » . فصاح الـكونت : « يا لتفكيرك ! اعتقد أننا أخذنا حظنا من الاقامة فى الاكواخ القذرة ! .. من السهل أن يرى المرء انك لست عمليا . لماذا لا نقتنص الفرصة عنـدما يكون ذلك فى وسعنـا ، فنعيش كالآدميين ، ولو لليلة واحدة ؟ .. انهم ـ على العـكس ـ سيسرون جـدا بأن يستضيفونا .. وأسوأ ما فى الامر ، ان تكون هذه السيدة قد عرفت أبى حقا ! » .. وابتسم كاشفا عن أسنانه اللامعة ، وهو يقول : « **اننى اشعر دائما بالخجل**

من المرحوم أبي ، ففي كل مكان قصـة فاضحة ، أو دين لم يسده . ولهـذا أكره أن التقي بمعارفه . على ان هذا كان سائدا في أيامه » . فقـال بولوزوف : « هـل أخبرتك يوما بقصة قائد لواء « اوغـلاني » يدعى « ايلين » ، التقيت به مرة ؟ . . لقد كان تواقا لان يراك ، فهو يحب أباك كل الحب! »

ـ اعتقد أنه امعـة ! . . ولكن أسوأ مافي الامر هم هؤلاء الاكابر الذين يؤكدون لي انهم كانوا يعرفون أبي ، ثم يروون عنه ـ وهم يتظاهرون بالتفكه ـ قصصا تجعلني أخجل !.. من الحقيقي انه كان ذا طبيعة جامحة ، وكان يأتي ـ احيانا ـ أعمالا غير لطيفة . ولكن هذا كان مسلكا شائعا في أيامه . ولو كان في أيامنا ، لكان من المحتمل ان يصبح رجـلا ناجحا كل النجاح ، فمن الانصاف ان نعترف بأنه كان ذا مواهب خارقة!

وان هو الا ربع ساعة ، حتى عاد الخادم برجاء من مالكة الضيعة ، أن يتكرم الضابطان فيقضيا الليلة في دارها .

« ١١ »

. ما ان سمعت « انا فيدوروفنـا » ان ضابط فصيـلة الفرسان الخفيفـة كان ابن الـكونت فيدور توربين ، حتى استخفها الطرب ، وراحت تقول : **« واعجبـا ! . . يا للفتى الحبيب ! . . اهرع يا دانيل ، فقل ان مولاتك تدعوهمـا الى دارها ! » . وقفزت مسرعة الى غرفة الخدم ، وهي تصيح : « ليزى ! . . اوستيوشـكا ! يجب اعـداد حجرتك يا ليزا ، وبوسعك أن تنتقلي الى غرفة خالك . وما أرى لديك مانعا يا أخي من أن تنام الليلة في حجرة الجلوس . . الليلة واحدة! »**

ـ لست احفل يا اختاه ، فبوسعي ان انام على الارض !

وقالت آنا فيدوروفنا ، وهي تروح وتغدو : « لا بد من أن يكون جميلا ، اذا صح انه يشبه اباه . لكم اتمنى ان اراه،



هذا العزيز ! .. يجب ان تتامليه جيدا ياليزا ، فلقد كان ابوه جميلا .. الى اين تاخذين هذه المنضدة ؟ .. دعيها هنا ، واحضرى سريرين .. خذى واحدا من حجرة رئيس الخدم ، واحضرى الشمعدان البلورى .. وضعى شمعا من النوع الجيد ! » .. واخيرا ، تم اعداد كل شىء ، ونسقت « ليزا » الحجرة للضابطين وفق هواها ، رغم تدخل امها . فنشرت على الفراشين أغطية نظيفة معطرة ، ووضعت شموعا وقنينة ماء على منضدة قريبة منهما ، ونقلت سريرها الى حجرة خالها . وهدأت آنا فيدوروفنا بعض الشىء ، فجلست فى مقعدها ، وعادت الى أوراق اللعب ، ولكنها بدلا من أن تستقرئها الحظ ، اسلمت رأسها الى راحتها ، وقد أسندت مرفقها الى المنضدة ، واستسلمت للتفكير ، وهى تهمس لنفسها :

« آه ، ياللزمن ! .. ما اسرع مايطير ! ألم يكن ذلك منذ أمد بعيد ؟ ومع ذلك فانى اكاد أتمثله الآن ! .. كان ارعن ! » .

وتبادرت الدموع الى عينيها ، واستطردت تحدث نفسها :

« وها هى ذى ليزى الآن .. ولكنها ليست كما كنت فى سنها .. انها فتاة بديعة ، ولكنها ليست كما كنت .. »

ثم رفعت صوتها قائلة : « ليزا .. يجب ان ترتدى ثوبك « الموسلين » الليلة ! » . فقالت الفتاة وهى لاتتمالك نفسها ،

لمجرد التفكير فى أنها ستلتقى بالضابطين : «لماذا ياماه ؟ ماراك ستدعينهما للجلوس معنا ؟.. يحسن أن لاتفعلى ياماما !» .. والحق أن رغبتها فى رؤيتهما كانت أقل من توجسها من الانفعال الطروب الذى تصورت أنه يرتقبها . ولكن آنا فيدوروفنا قالت وهى تربت راسها : « ربما رغبا هما فى أن يتعرفا الينا ياليزى ! » . وقالت لنفسها : « لا ، أن شعرها ليس كشعرى حين كنت فى سنها .. أواه يا ليزى ، لكم أتمنى لو أنك .. » . **وكانت تتمنى مخلصة شيئا ما لابنتها . ولكنها لم تملك ان تتصور ان يكون هذا الشيء زواجا من « كونت » ، ولم تكن ترغب لابنتها علاقات كتلك التى كانت بينها هى وبين الاب .. ومع ذلك فقد ظلت تتمنى فى لهفة شيئا ما ! .. ولعلها كانت تتوق الى ان تبعث فى نفس ابنتها ما خبرته هى مع الاب الذى مات !**

وكان الفارس الكهل منفعلا هو الآخر ، لمقدم الكونت ، فحبس نفسه فى غرفته ، ثم خرج بعد ربع ساعة فى سترة مجرية ، وسروال (بنطلون) أزرق فاتح ، ودخل الحجرة التى أعدت للزائرين ، وقد غشيه سرور مستحيى كذلك الذى يغشى الفتاة حين ترتدى ثوب سهرة للمرة الاولى فى حياتها . ثم قال : « سأنظر كيف هم فرسان الفرقة الخفيفة اليوم يا أختاه ! .. لقد كان الكونت المرحوم فارسا حقا ، ومثلا للفرقة ! سنرى ! »

* * *

وصل الضابطان الى الحجرة التى افردت لهما ، عن طريق المدخل الخلفى . فهتف الكونت وهو يستلقى ـ بثيابه وحذاءيه ـ على السرير الذى اعد له : « هاك ! أرأيت ؟ .. أليس هذا أفضل من الكوخ بصراصيره ؟ » . فأجاب بولوزوف : « هذا أفضل طبعا ، ومع ذلك .. أن نصبح مدينين لصاحبة

الزمام .. » . فقاطعه الـكونت صائحا : « هراء ! .. يجب أن يكون المرء عمليا في جميع الامور . انهم جـد مسرورين ، وأؤكد لك .. آه ، اســمع يا .. اطلب شيئا نسـدله على النافذة ، والا تعرضنا لتيار هوائي بالليل ! »

وفي تلك اللحظة ، اقبل الفارس الكهل ليتعرف الى الضابطين. ولم يغفل بالطبع ان يقول انه كان والـكونت المرحوم زميلين ــ وان قالها وقد تضرج وجهه قليلا ــ وانه نعم بالحظوة لدى الكونت .. بل واضاف انه كان أسير فضله مرة أو اثنتين . ولكنه أغفل ان يذكر أي فضل ذلك .. أهو اغفال الكونت ان يرد له المائة روبل التي اقترضها ، أو هو تعمـده ان يلقي به على الجليد الذائب ، أو هو سبابه اياه أمام جمع من الناس! .. وابدى الـكونت الشاب ادبا جما للفارس الكهل ، وشـكر له المأوى الذي اتيح له ولزميله . فقال الكهل : «يجب ان تلتمس لنا العذر ، ايها الكونت ، اذا لم يكن مأوى فخما ! » .. وكاد يلقبه بصـاحب السعادة ، وقد نسي عهده بمحـادثة ذوي المـكانة .. واستطرد قائلا : « ان بيت أختي صغير ، ولـكنا سنسدل على النافذة ستارا في الحـال ، وسيصبح كل شيء كما تزوم ». وانحنى مغادرا الحجرة مسرعا ، لا ليأمر باحضار الستار ، وانما ليدلي بتقرير عن الضابطين .

وأقبلت « أوستيوشكا » الحسناء بشال سيدتها ، فسدت به النافذة ، وقالت ان السيدة امرتها بأن تسأل السيدين عما اذا كانا يرغبان في تناول بعض الشاي .. وبدا أن الوسط المريح قد اثر على مزاج الكونت ، فابتسم في طرب ، ومازح ((أوستيوشكا)) حتى اوشكت ان تقول انه سافل ، وسألها عما اذا كانت سيـدتها الصغيرة جميـلة ، وقال ــ ردا عن سؤالها أن كانا يريدان شـايا ــ ان لها أن تحضر الشـاي ، ولكن المهم هو ان تحضر شيئا من الفودكا ، وشيئا يؤكل ، اذا لم يكن عشاؤهما معدا .

وكان الخال متحمسا للكونت الشاب ، فراح يطنب فى امتداح ادبه ، وفى اطراء الجيل الجديد من الضباط ، قائلا انه ارفع من الجيل الماضي بدرجة لا تدع سبيلا للمقارنة . ولم توافقه « آنا فيدوروفنا » ، فما من رجل يستطيع أن يسمو على الكونت فيدور ايفانيتش توربين .. وأخيرا ، اتخذ غضبها مظهرا جديا ، وقالت فى جفاء : « ان من يغلبك أخيرا ، هو الفضل عندك يا أخي .. ان الناس أكثر مهارة اليوم طبعا ، ولكن الكونت فيدور ايفانيتش رقص بابداع ، وكان لطيفا الى درجة ان كل امرىء كان متهوسا من اجله ، مع انه لم يبد اهتماما بأحد سواى ! .. ومن ثم ترى انه كان هنالك اناس لهم قدرهم ، فى الايام السالفة كذلك ! » . وهنا بلغها طلب الفودكا ، والمنعشات الخفيفة ، فقالت : « أرأيت يا اخى انك لا تتصرف قط التصرف الصحيح ؟ .. كان من الواجب ان تأمر بالعشاء ! .. مرى باعداده يا ليزا ! »

وهرعت « ليزا » الى المخزن لتحضر بعض الفطريات المخللة ، والزبد الطازج ، وأمرت الطاهية باعداد بعض الفطائر المحشوة . وقالت آنا فيدوروفنا : « هل لديك شىء من شراب الشيرى يا اخى ؟ » . فقال : « لا يا أختاه ، لم يكن لدى شىء منه اطلاقا ! .. انما الذى لدى « روم » يا آنا فيدوروفنا ! » . فهتفت : « او ليس الاثنان سواء ؟ .. اعطهما بعضه .. ولكن ، الا يكون من الافضل ان ندعوهما الى هنا يا اخى ؟ .. انك تعرف كيف تدعوهما ، وما أظنهما يستاءان ! » . فقال الفارس الكهل انه يشهد بأن الكونت الشاب الطف من أن يرفض ، وأسرع ليدعوهما . فذهبت آنا فيدوروفنا الى حجرتها وارتدت ثوبا حريريا ، وقلنسوة جديدة . ولكن ليزا كانت فى شغل عن الثياب ، فلم تجد وقتا لتستبدل ثوبها القطنى الوردى ، ذا الكمين الفضفاضين . فضلا عن انها كانت فى اقصى درجات الانفعال ، وقد تولاها شعور بأن شيئا بديعا فى

ارتقابها ، وكان ثمة غمامة داكنة تخيم على روحها ! .. لاح لها ان الكونت الفارس الجميل ، لا بد ان يكون مخلوقا جديدا ، لا ندرك كنهه ، ولكنه .. جميل ! لا بد ان تكون أخلاقه ، وطباعه ، وحديثه ، من طراز غير عادى ، يختلف عن كل ما صادفت من قبل ! .. كل ما يخطر بباله أو على لسانه لا بد ان يكون حكيما ، صوابا .. وكل ما يفعل لا بد ان يكون مشرفا .. وكل مظهره لا بد ان يكون جميلا ! .. ابدا ماداخلها ريب فى ذلك . ولو انه طلب حماما من « البراندى » والعطور – لا مجرد بعض المنعشات – لما دهشت ، ولما لامته ، بل لاقتنعت اقتناعا راسخا ، بأن هذا هو الصواب ، وانه ضرورى!

ووافق الكونت لفوره عندما أنهى اليه الفارس الكهل رغبة اخته . فمسح شعره بالفرشاة ، وارتدى زيه الرسمى ، واخذ علبة السيجار الذهبية . وقال لبولوزوف : « هيا ! » . فقال هذا : « من الخير ان لا نذهب فى الواقع ! » . ثم اردف بالفرنسية : « لسوف نكبدهم الكثير ، ليكرمونا » . ولكن الكونت اهاب به ، قائلا : « هراء ! .. لن يكونوا الا سعداء بنا » . ثم عقب بالفرنسية : « ولقد قمت ببعض تحريات ، فعلمت ان هنا ابنة جميلة .. فهيا ! » . وهنا قال الفارس الكهل بالفرنسية ، لمجرد اشعارهما بانه الآخر كان ملما باللغة ، وقد فهم ما قالاه : « معذرة ، ايها السيدان ! »

– « ١٢ » –

• تضرج وجه ليزا وغضت بصرها – وقد خشيت ان تنظر الى الضابطين – وتشاغلت بملء أبريق الشاى ، عندما دخل الضيفان الحجرة . اما آنا فيدوروفنا ، فكانت على النقيض ، اذ قفزت وبادرت الى الانحناء ، وشرعت تتحدث الى الكونت الشاب ، دون أن تحول بصرها عنه .. فقالت انه



كان ذا شبه قد بأبيه ، وقدمت اليه ابنتها ، ثم راحت تقدم اليه الشاى ، والمربى ، والحلوى المصنوعة فىالبيت . ولم يبد أحد اى اهتمام بحامل العلم ، لتواضع مظهره وحيائه ، فسر لذلك كل السرور ، اذ كان ـ لوجه الحقيقة ـ يحملق فى « ليزا » ، ويتمعن جمالها الذى أدهشه ، كما بدا واضحا . وكان الخال ينصت الى حديث اخته مع الكونت ، والكلمات تتزاحم على شفتيه ، متربصا فرصة يروى فيها ذكرياته فى الفروسية . وفى اثناء تناول الشاى ، اشعل الكونت سيجارا ، فلم تقو « ليزا » على ان تمنع نفسها من السعال . وكان كثير الكلام ، لطيفا ، راح ـ فى البداية ـ يروى اقاصيصه فى الفترات التى كانت تتخلل حديث آنا فيدوروفنا المتدفق ، ولكنه ما لبث ـ فى النهاية ـ أن انفرد وحده بالحديث .. **شىء واحد أذهل مستمعيه . ذلك انه كان يستخدم فى قصصه كلمات لم تكن تعتبر نابية فىالوسط الذى كان ينتمى اليه ، ولكنها كانت تبدو ـ فى الوسط الذى جلس فيه ـ جريئة اكثر مما ينبغى ، حتى لقد انزعجت لها آنا فيدوروفنا ، واشتد تضرج وجه ليزا .. ولكن الكونت لم يلاحظ ذلك ، وظل مطمئنا ، منطلقا ، متظرفا !**

وملأت « ليزا » الاقداح فى صمت ، ولم تسلمها الى يدى الزائرين ، وانما وضعتها على مائدة بالقرب منهما ، وهى بعد

لم تتغلب على انفعالها ، وقد راحت تصغى الى ما كان يبدر من الكونت . وما لبث حديثه ــ الذى لم يكن جد عميــق بالنسبــة لها ــ وتردده فى الكلام ، ان طمأن انفعالها رويدا . فهى لم تسمع منــه الاشياء اللبقة البــارعة التى توقعتها فى خيالها . **وعندما ملأت قدحه للمرة الثالثة بالشــاى ، التقت عيناها المستحييتان بعينيــه ، فلم يغض بصره ، وانما ظــل ينظر اليها فى هدوء ، وبابتسامة خفيفــة .. فشعرت بشىء من المسلك العــدائى نحوه ، وسرعان ما تبينت انه لم يــكن يختلف فى شىء عن الناس الذين اعتادت ان تلقاهم ، بل ولم يكن ثمة ما يدعو لان تخشاه !** .. ومع ان اظافره كانت طويلة ونظيفة ، الا انه لم يؤت شيئا فذا من معالم الجمال . وطوت ليزا حلمها فجأة ــ وان لم تسلم من ألم داخلى ــ وازدادت هدوءا ، ولم يعــد يمضها سوى النظرات الصامتــة ، التى شعرت ان حامل العلم كان يوجهها اليها .. وقالت لنفسها : « لعل فتاى ليس ذاك الضابط ، وانما هذا ! »

ــ« ١٣ »ــ



• **دعت** السيدة العجوز ضيفيها ــ بعد الشاى ــ الى حجرة الجلوس . واستوت ثانية فى مقعدها المألوف ، وهى تتساءل : « ما أظنك تريد أن ترتاح يا كونت ؟ » . فلما تلقت جوابه

بالنفي ، قالت : « ترى ما الذى أستطيع ان أفعله لتسلية ضيفينا العزيزين ؟ .. أتلعب الورق يا كونت ؟ .. اذن ، فعليك يا شقيقى أن تهيىء لنا لعبة » . فقال الفارس: « انك تجيدين لعبة « الترجيح » (١) ، فلماذا لانلعبها جميعا ؟ .. أتلعب يا كونت ؟ .. وأنت الآخر ؟ » .. فأعرب الضابطان عن استعدادهما لان يفعلا كل ما يروق لضيفيهم الكرماء !

وأحضرت « ليزا » مجموعة أوراق اللعب القديمة ، التى كانت تستخدمها لاستطلاع المستقبل ومعرفة متى يزول تورم وجه أمها ، أو متى يعود خالها ـ اذا ما ذهب الى البلدة ـ أو هل يزورهم أحد من الجيرة ، أو ما الى ذلك . وكانت هذه المجموعة أنظف من المجموعة التى كانت أمها تستخدمها لاستقراء الحظ . وتساءل خالها : « ولكن ، لعلكما لا تلعبان لقاء مراهنات صغيرة .. اننى ألعب مع آنا فيدوروفنا على أنصاف كوبكات .. ومع ذلك فهى تكسب كل أموالنا ! » . فقال الكونت : « أية مزاهنات تروق لكم ، تسرنى ! » . فقالت آنا فيدوروفنا : « حسنا ، اذن .. فليكن الرهان « كوبك » ورقيا واحدا ، لمرة واحدة ، اكراما لضيفينا ! .. فلينازلونى أنا العجوز المسكينة ! » . وقالت فى سريرتها ، اذ استولى عليها فى شيخوختها شغف بسيط بالمقامرة : « لعلى أكسب منهما « روبل » ، أو حوالى الروبل ! »

وقال الكونت : « اذا شئتم علمتكم كيف تلعبون « البائس » ، فهى طريقة بديعة ! » . ورغب كل امرىء فى أن يتعلم الطريقة

---

(١) فى هذه اللعبة يتبارى اللاعبون فى اعلان الحيل التى تمكنهم أوراقهم من اليانها . والذى يذكر اعلى رقم ، يختار مجموعة الورق التى يستخدمها ، ويؤدى الحيل التى اعلنها ، والا دفع الغرامة . واللاعب الذى يعلن انه « بائس » ، يعنى ان لا حيل لديه ، فاذا قام بحيلة ما ، دفع الغرامة . واصطلاح « آس وفاليه على بياض » معناه ان اللاعب يحمل اعلى ورقتين

الجديدة التى شاعت فى (بطرسبورج) . وزعم الخال أنه كان يعرفها ، ولكنه نسيها قليلا . بيد أن « آنا فيدوروفنا » لم تسـتطع أن تفهمها البتـة ، رغم طول التكرار ، حتى اضطرت فى النهاية الى أن تبتسم وتهز رأسها وتقول أن كل شىء أصبح واضحا لها .. ولم يضحك أحد عندما أعلنت ــ خلال اللعب ــ أنها « بائس » ، مع أنها كانت تمسك فى يديها « آس وفاليه على بياض » ، وضاعت عليها ست حيل ! .. **وما لبثت أن ارتبكت ، وتبدت عليها الحيرة والتردد ، ثم قالت أنها لم تألف الطريقة الجديدة . ومع ذلك فقد ظل الكونت مصرا على الكسب منها ، رغم الغمـزات التى راح زميله يزجيـها اليه بقدمه ، تحت المائدة !**

وأحضرت « ليزا » مزيدا من الحلوى ، وثلاثة أنواع من المربى ، ونوعا خاصا من التفاح حفظته منذ الموسم السالف . ووقفت خلف أمها تراقب اللعب ، وتنظر الى الضابطين ــ من آن لآخر ــ مختلسة النظر ، بوجه خاص ، الى يدى الكونت البيضـاوين ــ بأظافرهما الوردية المعنى بها ــ وقد راحتا تتداولان الاوراق برشاقة ومران وثقة ! .. ومرة أخرى ، خسرت آنا فيدوروفنا ، فاشـتد استياؤها . وقالت ليزا تسرى عنها ، وتحاول أن تعينها على الموقف السخيف : « لا تكترثى يا أماه ، فلسوف تكسبين كل ما خسرت ! .. دعى خالى يغش ، فهو لن يلبث أن يفتضـح ! » . فرمقت آنا فيدوروفنا ابنتهابنظرة مرتاعة،وهتفت : « ليتك تساعديننى، يا ليزا العزيزة ! » . فأجابت ليزا : « ولكننى لا أعرف هذه الطريقة ، أنا الاخرى ، وما أرى الا أنك ستخسرين مبلغا كبيرا ، ولن يتبقى شىء لثوب بيموشكا الجديد ! » . فقال حامل العلم ، وهو يتطلع الى ليزا ، تواقا الى مجاذبتهـا أطـراف الحديث : « أجل، من السهل أن يخسـرالمرء ــ بهذه الطريقة ــ عشرة روبلات فضية ! »

وأمرت السيدة العجوز ببعض النبيذ الخفيف المصنوع فى البيت ، فشربت قدحين ، واشتد احمرار وجهها ، وبدا انها وطدت العزم على أن تتحمل أى حظ يصيبها . وافلتت خصلة من شعرها الاشيب ، فلم تحاول أن تردها الى مكانها . وما من شك فى أن المبلغ الذى خسرته بدا لها كما لو كان بالملايين ، فتحمست لاسترداده . وأخذ حامل العلم يكثر من دفع صاحبه بالقدم ، تحت المائدة .. وأخيرا ، انتهى اللعب ، بالرغم من محاولات آنا فيدوروفنا الخبيثة ، بتعمد الاخطاء فى الجمع ، كى تزيد من مرات كسبها . ومع ذلك فقد اشتد بها الجزع اذ بلغت خسائرها أكثر من اثنين وثلاثين من الروبلات الورقية .. ولم يحفل الكونت بجمع أرباحه بل نهض لفوره ، وسار الى النافذة التى كانت « ليزا » تقف عندها منهمكة فى تنسيق بعض المخللات للعشاء . وهناك فعل ما كان حامل العلم يحاول طيلة الامسية أن يفعله دون أن يفلح .. استطاع أن يجاذبها الحديث حول الجو ! وفى تلك الاثناء ، كان حامل العلم فى موقف محرج . فان آنا فيدوروفنا بدأت تفرج من غضبها ، فى غياب الكونت ، وفى غياب ليزا بوجه خاص ، اذ كان وجودهما يسرى عنها !

وقال بولوزوف ، لمجرد أن يقول شيئا : « لقد كان من المعيب أن نكسب منك كل هذا ، فى الواقع .. انه لمخجل حقا ! » . فصاحت : « طبعا ، مادمتم تبتكرون طرقا جديدة لا أعرفها .. حسنا ، كم بلغ المجموع بالعملة الورقية ؟ » . فقال أخوها الذى أطربه أن كان رابحا : « اثنان وثلاثون روبل ورقى .. وربع ! هات النقود يا أختاه .. ادفعى ! » . فصاحت : « سأدفعها جميعا ، ولكنك لن تستدرجنى ثانية .. انه مبلغ لن أسترده ماحييت ! » . ونهضت مسرعة الى حجرتها ، وهى تتمايل ، وعادت بالنقود . واستولى الخوف على « بولوزوف » خشية أن تعنف « آنا فيدوروفنا » معه

اذا تحدث اليها ، فتركها فى صمت وهدوء ، وانضم الى الكونت وليزا اللذين كانا يتكلمان عند النافذة

* * *

أخذت نسمات ليل شهر مايو العليلة تداعب ـ بين آن وآخر ـ لهب الشمعتين الكبيرتين اللتين قامتا على المائدة التى أعدت للعشاء ، فى حجرة الجلوس .. وكان النور يغمر الحديقة التى كانت النافذة تطل عليها ، ولكنه نور من نوع آخر .. نور القمر الذى أوشك أن يكتمل ، وقد راح يسبح فوق قمم أشجار الزيزفون السامقة ، وهو يضاعف من تألق السحب البيضاء التى كانت تضفى على وجهه غلالة رقيقة ، بين الحين والحين .. وكانت الضفادع تنق عاليا ، بجوار البركة التى خلع القمر على أحد جانبيها بريقا فضيا ، كان يتضح للانظار عبر الطريق المحفوفة بالاشجار .. وأخذت بعض الطيور ترفرف وئيدا ، أو تتواثب ، من غصن الى غصن ، فى مجموعة من أشجار البنفسج الشذية . التى كانت فروعها تتمايل فى دلال نحو النافذة .. **وقال الكونت لليزا ، وهو يجلس على حافة النافذة المنخفضة : « ياله من جو بديع ! .. أعتقد أنك تكثرين من الرياضة هنا ؟ » .**
فأجابت ليزا ، وهى لا تشعر بأى خجل من الحديث معه : « أجل . فحوالى السابعة من كل صباح ، أعنى بتفقد رغبات أمى فى الضيعة واصطحب بيموشكا ـ خادمة أمى الخاصة ـ فى نزهة على الاقدام » . فقال وهو يثبت عوينة (مونوكل) على احدى عينيه ، وينقل بصره بين ليزا والحديقة : « ان الحياة فى الريف تشرح الصدر ! .. أولا تخرجين قط بالليل، للنزهة على ضوء القمر ؟ »

ـ لا ، ولكنى اعتدت ـ قبل عامين ـ أن أتمشى مع خالى فى كل ليلة مقمرة . اذ كان يعانى من مرض غريب .. لم يكن

بوسعة لن ينام عندما يكون القمر بدرا ، اذ أن غرفته الصغيرة تطل على الحديقة مباشرة ! .. ومع أن نافذتها منخفضة ، الا أن ضوء القمر ينساب خلالها مباشرة !

وأومأت نحو غرفة خالها ، فقال الكونت : « عجيب .. لقد ظننتها غرفتك » . وكان جوابها : « لا ، فلن أنام فيها سوى الليلة .. فقدخصصت غرفتي لكما » . وهتف الكونت: « أحقا هذا ؟ .. ويلي ! لن اغفر لنفسي أن أزعجتك ». وترك العوينة تسقط على صدره ، اظهارا لاستيائه ، وأردف : « لو انني عرفت بأنني سأزعجكم .. » . فقالت : « لاازعاج هناك ، بل انني ـ على النقيض ـ مسرورة ، فان حجرةخالي بديعة ، ومشرقة بالضوء ، ونافذتها منخفضة ، بحيثأستطيع أن أجلس فيها الى أن يواتيني النعاس ، أو أن أهبط الى الحديقة فأتمشى قليلا ، قبل أن آوى الى فراشي » .

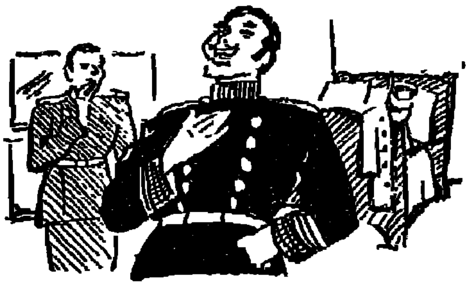
وقال الكونتلنفسه ، وهو يعيد العوينة الى عينه،ويتأملها « يا لها من فتاة رائعة ! » . وحاول أن يمس بقدمها بقدمه ، وهو يتظاهر باصلاح جلسته على حافة النافذة .. « وما أبرعها اذ أطلعتني على أنني أستطيع أن أراها من الحديقة وهي تجلس في النافذة ، اذا شئت ! » . وخيل اليه أنالنصر سهل ، ففقدت ليزا في نظره بعض سحرها ، وما لبث ان قال، وهو يرسل البصر الى الطريق المحفوفة بالاشجار : « وما أبهج أن يقضي المرء ليلة كهذه في الحديقة ، مع حبيب ! » . وارتبكت «ليزا» لهذه الكلمات، ولتكرر لمسات قدمه اقدمها. فقالت ـ دون تفكير ـ محاولة أن تخفي اضطرابها : « أجل، فان المشي تحت ضوء القمر جميل ! » . وبدأت تشعر بشيء من عدم الارتياح . وهمت أن تنصرف بوعاء « المخللات » ، عندما انضم اليهما حامل العلم ، فشعرت برغبة في أن تتبين اي نوع من الرجال هو الآخر !

وقال الشاب : « ما أجملها من ليلة ! » . فقالت لنفسها : لاحديث لهما الا عن الطقس ! » . واستطرد بولوزوف : «وما أبدعه من منظر ! .. ولكنى احسبك قد مللته !». فتساءلت: **« ولماذا تحسب ذلك ؟ .. من المحتمل ان يمل المرء ثوبا أو غذاء طال تعوده اياه ، ولكن.. كيف يمل المرء حديقة جميلة ، يولع بأن يتمشى خلالها .. لاسيما عندما يكون القمر مشرقا!! .. ان البركة تبدو واضحة ، خلال نافذة خالى ، وسأملى النظر منها الليلة ! »** . فقال الكونت وقد ساءه أن حلل مقدم زميله دون أن يستوثق من موعد الليلة : « ولكنى لا أظن ان لديكم اية بلابل فى هذه المنطقة » . فقالت : « لا ، غير انه كانت هنا بعض البلابل منذ عام ، ولكن الصيادين واجراس العربات أخافتها .. ولقد كنت ــ منذ عامين ــ اجلس مع خالى فى الدرب المغطى بفروع الشجر، فننصت اليهاساعتين أو اكثر ! »

وبعد العشاء ــ الذي راح الكونت خلاله يطرى الطعام ، ويقبل عليه ، مما بذ بعض ضيق رب البيت ــ تمنى الضابطان لمضيفيهما ليلة هانئة ، وذهبا الى حجرتهما. ولقد صافح الكونت الفارس الكهل ، وشد ماكانت دهشة آنا فيدوروفنا عندما صافحها هى الاخرى ، دون أن يقبل يدها .. كما صافح ليزا ، وهو يحملق فى عينيها ، وعلى شفتيه ابتسامته اللطيفة . وكم أخجلت نظرته الفتاة ، فى هذه المرة ، وجعلتها تقول لنفسها : « انه مليح الطلعة جدا ، ولكنه كثير الاغترار بنفسه ! »

— « ١٤ » —

• قال بولوزوف لصاحبه ، حين أصبحا فى غرفتهما : «ألم تخجل من نفسك ؟ .. لقد تعمدت أن أخسر ، وظللت أمس



قدمك ، تحت المائدة . الست فى خجل ؟ لقد استاءت السيدة العجوز أيما استياء ! » . فضحك الكونت من قلبه ، وقال : « لكم كانت مضحكة تلك السيدة العجوز ! » .. وظل يضحك فى مرح ، حتى ان « جوهان » ـ الذى كان يقف أمامه ـ أشاح بوجهه ليخفى ابتسامة .. بينما تابع الكونت حديثه وهو يضحك : « وتصور أن يصيبها هذا مع ابن صديق للاسرة ! » . فقال بولوزوف : « لا ، لقد كان تصرفك سيئا فى الواقع . لقد كنت شديد الاسف من اجلها ! » . فصاح الكونت : « ياله من هراء ! .. وكم انت صغير ، عديم التجربة ! .. لماذا اردتنى على ان اخسر ؟ ولماذا ينبغى على المرء أن يخسر ؟ .. لقد ألفت الخسارة قبل ان اتعلم اللعب ! ثم ان عشرة روبلات قد تكون ذات نفع ياعزيزى . انظر الى الحياة نظرة عملية ، والا بقيت دائما فى ضيق ! »

ولزم بولوزوف الصمت ، لاسيما وانه رغب فى هدوء يفكر خلاله فى « ليزا » التى تراءت له ذات طهر وجمال غير عاديين . وخلع ثيابه ، ثم استلقى على السرير الوثير ، النظيف ، الذى أعد له . وقال لنفسه وهو ينظر الى النافذة التى اسدل عليها الشال بدل الستار ، فتسلل نور القمر خلال النسيج . « أى عبث هذا الشرف والمجد العسكريين ! .. ان السعادة فى العيش فى عش هادىء ، مع زوجة حبيبة ، عاقلة ، ساذجة

الفؤاد .. أجل ، هذه هي السعادة الحقة . الدائمة ! » . على انه لم يفض لصديقه بهذه الخواطر ـ لسبب ما ـ ولم يثر ذكر الفتاة الريفية ، رغم أنه كان موقنا من أن الكونت ـ هو الآخر ـ كان يفكر فيها !

وقال للكونت الذى كان يذرع الحجرة : « لم لا تخلع ثيابك ؟ » . فأجابه : « لا أحس برغبة فى النوم بعد. تستطيع ان تطفىء الشمعة اذا شئت ، وسأستلقى على الفراش بثيابى ! » . وواصل السير فى الحجرة ، فقال بولوزوف الذى شعر ـ بعد سهرة الليلة ـ بمزيد من عدم الرضى عن نفوذ الكونت وتأثيره عليه ، وخالجه الميل الى التمرد على هذا الوضع : « لاتشعر برغبة فى النوم بعد ؟ ! » . وقال فى سريرته ، وكأنه يخاطب توربين فى العلن : **«بوسعى أن أتصور مايجرى الآن فى رأسك ذى الشعر النسق . لقد رأيت مدى اعجابك بالفتاة ، ولكنك غير كفء لان تفهم مثل هذه الانثى الساذجة ، الشريفة .. انما تشتهى امرأة مثل « مينا » واشارات الكتف الخاصة بضابط فى رتبة « كولونيل » .. يجب أن أسألك حقا عن رأيك فى الفتاة »** . والتفت اليه ، ثم عدل عن رأيه ، فقد شعر بأنه لن يقوى على أن يتشبث برأيه أمام راى الكونت عن ليزا اذا كان مخالفا لما ينبغى ، وقد يعجز عن أن يتحاشى موافقته ، فقد اعتاد أن يرضخ لتأثير الكونت ، رغم انه يشعر ـ يوما بعد يوم ـ بأن هذا التأثير أصبح يثقله ويضنيه .

وقال اذ رأى الكونت يرتدى قلنسوته ويسعى الى الباب: « الى أين انت ذاهب ؟ » . فأجابه : « سأذهب لاتفقد الاحوال فى حظائر الخيل » . وهتف الشاب فى سريرته : « عجيب ! » . ولكنه أطفأ الشمعة ، وولى وجهه شطر الحائط ، محاولا أن يطرد عن ذهنه أفكارا سخيفة سداها الغيرة ولحمتها العداء نحو صديقه .

وفى تلك الاثناء ، كانت « آنا فيدوروفنا » قد آوت الى مخدعها بعد أن قبلت أخاها وابنتها ووصيفتها ــ كعادتها ــ ورسمت علامة الصليب على صدر كل منهم .. وكان قد انقضى زمن طويل مذ تعرضت السيدة العجوز لمثل هذا العدد من الانفعالات القوية فى يوم واحد ، فلم تستطع أن تؤدى صلاتها فى هدوء ، ولم تقو على أن تطرح عنها الذكريات المحزنة ، الحية .. ذكريات الكونت المتوفى ، والشاب المتأنق الذى غشيها فى غير اشفاق . على انها مالبثت أن خلعت ثيابها ، وشربت نصف قدح من « الكفاس » (١) ، ثم رقدت على سريرها . وتسللت قطتها المدللة الى الحجرة فى خفة ، فنادتها « آنا فيدوروفنا » ، وشرعت تمسح على ظهرها ، وتنصت الى هريرها (٢) . بيد انها لم تستطع النوم ، فقالت لنفسها: « لابد أن القطة هى التى تستبقينى مؤرقة ! » ، وطردتها من السرير ، فقفزت الى الارض بخفة ، وسارت ــ وهى تحرك ذيلها المنفوش ــ فقفزت فوق المدفأة . وأقبلت الوصيفة التى كانت تنام فى حجرة « آنا فيدوروفنا » ، فبسطت فراشا من اللباد على الارض ، وأطفأت الشمعة ، وأوقدت فتيلة أمام الايقونة ، وسرعان ما ارتفع غطيطها .. ولكن النعاس لم يواتها ، فاذا أغمضت عينيها ، كان وجه الفارس الشاب يتمثل لها ، ويخيل اليها أنه كان فى الحجرة متنكرا فى أى شىء . واذ ذاك كانت تفتح عينيها ، وتتأمل كل شىء حولها على ضوء الفتيلة .. وأحست بحرارة تدب فى جسدها .. ولم تعد تحتمل دقات الساعة التى كانت تعلو المنضدة ، ولا غطيط الخادم ، حتى انها أيقظتها وأمرتها بأن لاترسل غطيطا ! ..

---

(١) مشروب غير مسكر ، يشبه « السوبيا » فى مادته وطريقة صنعه .
(٢) الصوت الباطني الذى تحدثه القطة عادة

وعاودتها الافكار التي كانت تدور حــول ابنتها ، والــكونت الراحل ، وابنه الشاب ، ولعب الورق .. واختلطت الافكار جميعا ، فكانت تتمثل نفسها وهي تراقص الكونت القديم ، وتشعر قبلاته على كتفيها الناصعتين .. ثم تتمثل ابنتها في احضان الكونت الشاب .. وراحت تقول لنفسها : « لا ، ان الناس اليوم غيرهم بالامس . كان الكونت الآخر على استعداد لان يشب فى النار من اجلى ، وكان على حق . أما هذا الكونت فينام كالاحمق ، سعيدا بأن ربح منى .. فلا غرام يستهويه! .. ماكان أروع الآخر اذا جثا على ركبتيه قائلا : « ماالذى تريدينني على أن أفعل ؟ .. اننى على استعداد لان أقتـل نفسي اذا شئت ! » .. ولو اننى طلبت ، لقتل نفسه ! »

وفجــأة ، سمعت وقــع قدمين عاريتين فى الردهة ، ثم اندفعت ليزا ــ وعلى كتفيها شال ــ فارتمت على سرير أمها وهى شاحبة ترتجف !

* * *

كانت ليزا قد اوت وحيدة الى الغرفة التى كانت لخالهــا من قبل ، فارتدت سترة بيضاء ، ولفت راسها الغزير الشعر بمنديل ، واطفات الشمعة ، وفتحت النافذة وجلست على مقعد عندها ، مرسلة بصرها الى بركة الماء التى كانت تلمع فى ضوء القمر الفضى .. وانبعث امامها ــ فجأة ــ كل ماكان يشغل بالها ، وقد تبدى على ضوء جديد : أمها العجوز الكثيرة النزوات ــ التى أصبح حبها الاعمى لها جزءا من نفسهــا ــ وخالها المتداعى اللطيف ، ورقيق الدار ورقيق القرية الذين كانوا يعبدون مولاتهم الصغيرة ، والبقر والعجول ، وكل هذه الطبيعة التى كانت تموت وتبعث مرات لاحصر لها ، والتى نشأت فى غمارها ، محوطة بخلق تحبهم ويحبونها .. كل هذه الأمور التي امتادت أن تضفى على روحها اشراقا وسكينة

ناعمة ، بدت لها ــ فجاة ــ غير كافية لارضائها .. بل بدت كئيبة ، غير ذات قيمة ، وكأنما كان ثمة هاجس يهيب بها : « أيتها الحمقاء الصغيرة ! .. لقد عشت عشرين عاما في السفاسف ، تخدمين الغير دون أن تدرى لذلك سببا ،ودون أن تدركى ماهى الحياة ، وما هى السعادة ! » . وراحت تفوص ببصرها في الحديقة التى أسبغ القمر عليها نوره .. ترى ما الذى بعث في بالها هذه الخواطر ؟ .. لم يكن السبب حبا طارئا ، تولاها نحو الكونت ، كما قد يخيل للمرء ، فهى ــ على العكس ــ لم تمل اليه .. وكان من المحتمل أن تكون أكثر استعدادا لان تميل الى زميله ، لولا أنه كان غير مليح ، وكان ساذجا ، صموتا ، **فظلت تنساه ــ على غير تعمد ــ وتتذكر طيف الكونت في غضب وحنق ، اذ أيقنت انه لم يكن المثل الاعلى الذى اعتادت أن تحلم به .. كان مثالها الاعلى مفرط الجمال فى كل شىء ، جديرا بالحب في مثل هذه الليلة، وبين هذه الطبيعة ، دون أن يصرفها عن جمال ماحولها ..**

ولقد أدت الوحدة التى كانت تعيش فيها من قبل ــ في غياب من يحتمل أن يسترعى انتباهها ــ الى أن ظلت قوة الحب ، التى أودعتها العناية فى كل منا على قدم المساواة ، هادئة ، ساكنة فى صدرها . فعاشت طويلا فى سعادة آسنة كان يبعثها الشعور بوجود هذه القوة في أعماقها ، وكانت تفتح مغاليق قلبها ــ بين حين وآخر ــ لكى تتأمل كنوزه ، حتى تغدق منها على اى امرىء ، دون تفكير . فليدعها الله تنعم بهذه النعمة النادرة ، الى نهاية عمرها ! .. **فمن يدرى انها ليست خير النعم واقواها ، وأنها ليست السعادة الحقة والميسورة ؟ ! .. وهتفت الفتاة لنفسها : « أواه يا الهى ، أيها الرب .. امن المحتمل ان أكون قد بددت شبابى وهنائى عبثــا ، واننى لن احظى قط .. لن احظى قط .. ؟ »** وتطلعت الى اعماق السماء التى انارها القمر ، وغطتها سحب

كالصوف المندوف ، حجبت النجوم ، واخذت تسعى نحو القمر . ثم قالت لنفسها : « لو قدر لهذه السحابة الصغيرة ان تصل الى القمر ، فستكون هذه اشارة الى ان مايجول بخاطرى صحيح ! » وسبحت السحابة الصغيرة الرقيقة ، فغطت الجزء الاسفل من قرص القمر ، واذا بعتمة تدب فى الضوء الذى كان يترامى على الحشائش ، وعلى قمم أشجار الموالح ، وعلى البركة .. وازدادت ظلال الاشجار قتامة .. وسرت خلال أوراق الشجر ريح خفيفة ـ كأنها تتم التناسق بين الظلال القاتمة ـ فحملت الى النافذة عبير الخضرة المخضلة بالندى ، والمتربة الرطبة ، والبنفسج !

وقالت الفتاة تواسى نفسها : « لا .. اذا غرد العندليب الليلة ، فستكون هذه اشارة الى أن كل ما أفكر فيه هراء ، وان لأداعى لان أيأس ! » .. وسكنت فى جلستها طويلا ، ترتقب شيئا ما ، بينما عاد الاشراق الى كل شىء ، ثم عادت السحب الصغيرة تسبح عابرة أمام قرص القمر ، مشيعة العتمة فى كل شىء . وكان النعاس قد بدأ يراود أجفان الفتاة ، عندما انبعث من لدن البركة شدو العندليب فأيقظها من اغفائها .. وفتحت العذراء الريفية عينيها ، وانتعشت روحها مرة أخرى ابتهاجا بتلك الرابطة الغامضة التى كانت تربط بينها وبين الطبيعة التى استلقت أمامها مشرقة ، هادئة .. وأسندت ذراعيها الى حافة النافذة ، وأطلت !.. وغشى قلبها شعور بأسى عذب ، ناعم .. وملأت عينيها دموع حب طاهر شاسع ، يهفو الى البرىء ، دموع مسرية ، مواسية . واسندت الفتاة رأسها الى ذراعيها ، وجالت بخلدها ادعيتها المفضلة ، ثم نامت وعيناها مخضلتان بالدموع .

وأيقظتها لمسة .. لمسة كانت خفيفة ، ولطيفة . واشتد ضغط اليد على يدها . وفجأة ، تنبهت الى الواقع ، فصرخت ، وقفزت ، وهرعت مغادرة الحجرة ، وهى تحاول ان تقنع

نفسها بأن الذى كان يقف فى ضوء القمر ــ فى الحديقة ــ لم يكن الكونت .. بل كان طيفا !

ــ « ١٥ » ــ



• والحق انه كان الكونت . وعندما سمع صرخة الفتاة، وحشرجة منبهة من الحارس الساهر خلف سياج الحديقة ــ وقد نبهته الصرخة ــ اندفع عبر الحشائش المنداة ، الى جوف الحديقة ، وقد خامره شعور اللص الذى أوشك أمره أن يفتضح .. وراح يردد لنفسه : « يالى من أحمق ! .. لقد أخفتها ! .. كان خليقـا بى أن أتلطف فى ايقاظها ، بأن أتحدث اليها فى رفق.. يا لى من جلف! » . وتوقف، وأصغى، فاذا الحارس قد نفذ الى الحديقة ، وهو يجر عصاه خلفه . وأسرع الكونت الى البركة ينشد مخبأ ، فأفزعته الضفادع ، اذ قفزت من تحت قدميه الى الماء .. ومع أن حذاءيه ابتلا، الا انه جلس القرفصاء ، وراح يستعيـد كل ما جرى .. كيف بحث عن نافذتها ، وكيف رأى ــ أخيرا ــ طيفا أبيض، وكيف اقترب من النافذة ثم ابتعد عنها مرارا ، وهو ينصت

الى أنفه صوت .. كيف كان يشعر — فى لحظة — بيقين من أنها كانت تنتظره ، مستاءة لتأخره .. ثم يشعر — فى اللحظة التالية — بأن من المستحيل ان تكون قد قبلت أن تلقاه بمثل هذه السهولة .. ثم كيف اقنع نفسه — أخيرا — بأن خجل العذراء الريفية هو الذى جعلها تتظاهر بالنوم على حافة النافذة ، فسار اليها فى عزم .. ثم نكص على عقبيه .. وبعد أن عير نفسه مرارا بالجبن ، اقترب فى جرأة ، ومس يدها !

ومرة أخرى ، أرسل الحارس سعالا أجش ، ثم غادر الحديقة .. واغلق مصراعا نافذة الفتاة ، وسمع رتاجهما يحكم من الداخل .. وكان هذا مثيرا لاساه .. كان على استعداد لان يضحى بأى شىء فى سبيل فرصة تمكنه من أن يبدأ من جديد ، فلا يتصرف بغباء كما فعل .. وراح يقول لنفسه : « فتاة رائعة .. ناضرة .. فاتنة الى هذا الحد .. ومع ذلك فقد تركتها تفلت من بين أصابعى .. يالى من نذل أحمق ! » . وأبى أن ينام ، فراح يسير على غير هدى ، فى الطريق التى كانت تحف بها أشجار الموالح ! .. **واذ ذاك ، اسبغ الليل عليه — هو الآخر — منحه الناعمة .. منحة الاسى المستعذب ، والشعور بالحاجة الى الحب !** .. وكانت اشعة القمر الواهنة تلقى نقاطا من الضوء خلال الافنان الكثيفة ، على الارض ، حيث نمت بعض فروع من العشب ، أو تناثرت بعض اغصان ميتة .. وكان ثمة ضوء يسقط على غصين منحن ، فيجعله يبدو وكأنه مكسو بطبقة بيضاء .. وكانت أوراق الشجر المفضضة تتهامس من آن الى آخر . ولم يكن ثمة ضوء فى الدار ، كما كان الصمت يرفرف على الكون ، وفيما عدا صوت بلبل لاح انه كان يملأ الفضاء

المشرق ، الساكن ، الذى لانهاية له .. وهتف الشاب وهو يملأ صدره بعبير الحديقة : « أوآه ، يا ربى ! .. **اية ليلة هذه ! ياالها من ليلة رائعة !.. ومع ذلك ، فانى اشعر بشىء من الحسرة ، وكأننى غير قانع بنفسى .. غير راض عن الناس وغير راض عن الحياة بأسرها ! .. ياالها من فتاة حلوة ، بديعة ! .. لعلها تأذت منى حقا ، او اصيبت بضر ! »** .

وهنا اختلطت احلامه بعضها ببعض ، فأخذ يتمثل نفسه مع الريفية العذراء فى الحديقة ، فى أوضاع عديدة ، غريبة . ثم حل طيف خليلته « مينا » محل طيف الفتاة ، فهتف لنفسه : « يالى من احمق ! .. لم يكن ينبغى على سوى أن احيط خصرها بذراعى ، وأقبلها ! »

وعاد الكونت الى حجرته ، وهو فى حسرة ، فاذا زميله لا يزال مستيقظا ، واذا به يتقلب فى فراشه ، ويلتفت اليه . فسأله : « الم تنم بعد ؟ » .. فأجاب بولوزوف : « لا » .. وعاد الكونت يقول : « هل أنبئك بما حدث ؟ » .
فقال الآخر : « هات ماعندك »

ـ لا ، يحسن أن لا أخبرك . أو .. لاباس ، سأخبرك !

وابتسم وهو يجلس على حافة سرير صاحبه ، وقال : « هل تصدق أن السيدة الصغيرة واعدتنى على اللقاء ! » .
فقفز بولوزوف من فراشه صائحا : «ماهذا الذى تقول ؟» .
وأهاب به الكونت : « الا استمع الى » . ولكن الشاب صاح : « ولكن . كيف ؟ومتى ؟ انه مستحيل ! »

ـ كان ذلك بينما كنت تجمع الحساب عقب اللعب .. فقد أخبرتنى انها ستجلس فى النافذة بالليل ، وان من السهل أن ينفذ المرء من هذه النافذة . ارايت جدوى ان يكون المرء

عمليا ؟ ! .. الم تسمعهابنفسك تقول ـ أثناء وقوفك معنا ـ انها ستجلس الى النافذة بالليل ، وتتأمل البركة ؟!))

ـ بلى ، ولكن هذا لم يكن يعنى شيئا ..

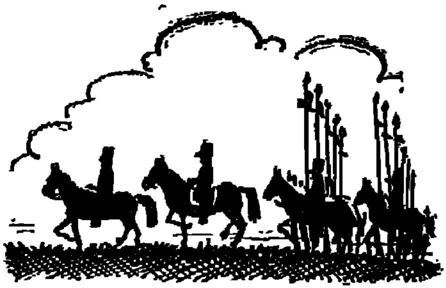
ـ هذا عين ما لم أستطع ادراكه : هل قالت ذلك متعمدة ، أو انها لم تكن ترمى الى غاية ؟ .. من المحتمل انها لم تكن راغبة حقا فى أن توافق بهذه السرعة ، ولكن الامـر لاح على النقيض . وانتهى أبشع نهاية .. لقد تصرفت بحماقة !

وابتسم ازدراء لنفسه ، فتساءل بولوزوف : « ماذاتعنى؟ .. وأين كنت ؟ » . فتناسى الكونت ما حاول أن يوقعه فى روع صاحبه ، وروى له كل ماحدث ، ثم أردف : « لقـد أفسدت الفرصة بنفسى .. كان ينبغى ان أكون أكثر جرأة. ولكنى جعلتها تصرخ وتجرى مبتعدة عن النافذة »

فابتسم حامل العلم فى غير ارتياح ، ردا على ابتسـامة الكونت التى ظلت أمدا ذات أثر كبـير عليه ، وقال : « اذن فقد صرخت وهربت ! » ..

فقال الكونت : « أجل . ولكن ، لقد آن لنا أن ننام ! » ..

وعاد حامـل العلم يولى وجهـه شـطر الحـائط : **وظل صـامتا عشر دقائق . ولا يعلم سـوى الله ما كان يدور فى نفســه ، ولكنه ـ حين التفت ثانية ـ كان يحمل على وجهـه امارات العـذاب ، والعـزم ..** فقال فجـأة ، وبخشونة : « كونت توربين ! » .. وأجاب الكونت فى هدوء : « أتهذى ؟ .. ماذا هناك أيها الضابط بولوزوف ؟ » . فصاح بولوزوف : **((كونت توربين .. انك لوغد !))** . وقفـز من فراشه مرة أخرى .



— « ١٦ » —

• بارحت الفصيلة القرية فى اليوم التالى . ولم يكن الضابطان قد التقيا بمضيفيهما مرة أخرى ، ولم يودعاهم .. لا ولم يكلم كل منهما الآخر ، بل عقدا العزم على ان يتبارزا فى أول مركز تنزل فيه الفصيلة فيه . ولكن الكابتن «شولز» — وكان ضابطا طيبا ، وفارسا رائعا ، وشخصية محبوبة من كل امرىء فى الكتيبة ، وقد اختير ليكون شاهد الكونت — استطاع أن يسوى المسألة خير تسوية ، فلم يقتصر الامرعلى أن الضابطين الفارسين لم يتبارزا فحسب ، بل أن احدا فى الكتيبة لم يعلم بالمسألة . وظل توربين وبولوزوف يتبادلان الاحاديث العادية ، اذا ما التقيا فى حفلات العشاء والمقامرة ، وان لم يعودا الى صداقتهما السالفة وودهما القديم !

((تمت))

راجع مكتبتك الخاصة لتتأكد من وجود كل هذه الشوامخ - التي قدمتها لك ((مطبوعات كتابى)) في أعدادها السابقة - فهى ثروة أدبية لا تقدر بمال

قصة مدينتين	لشارلس ديكنز
ذات الثوب الابيض	ويلكى كولينز
الخالدون	ديل كارنيجى
الخاطئة	سومرست موم
حياة امرأة (جزءان)	جى دى موباسان
الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم	البرتو مورافيا
أوديب	سوفوكليس واندريه جيد
مدام بوفارى (جزءان)	جوستاف فلوبير
عاشقات فى الخريف	ستيفان زيفايج
قلوب ضالة	طاغور
ديكاميرون (الفضيلة وليلة الايطالية)	جيوفانى بوكاشيو
الظمأ للحب	ميكا والتارى
جين اير (٣ اجزاء)	شارلوت برونتى
فاتنات الرجال	مارجورى كورجين
رجال ونساء	جوركى
الثأر للوطن	جون شتاينبك
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	أدوين جون ديفيز
الابن الضال	هنرى بوردو
أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
بيلا دونا (٣ اجزاء)	روبرت هتشنز
بوشكين	ليديا لامبير
أعترافات جان جاك روسو (٥ اجزاء)	
قصص من الصين	أروع نماذج الادب الصينى
ليالى بلزاك (الفضيلة وليلة الفرنسية)	أونوريه دى بلزاك
الالياذة (٣ اجزاء)	هوميروس
قصص من روما	البرتو مورافيا
المسبحة (جزءان)	فلورنس باركلى
سفينة الملذات	موريس ديكوبرا



الكونت "ليو تولستوى" عندما كان ضابطا بالجيش القيصرى، فى التاسعة والعشرين من عمره..

"ليو تولستوى" الكاتب الكبير، والقصصى المبدع، والفيلسوف العظيم.. فى نهاية عمره.

لم يكن السيف فى يد "تولستوى" - فى صدر شبابه - أقوى من القلم حين امتشقه ليغزو العقول والأذهان، كداعية للسلام والإنسانية.. ولقد خلد التاريخ اسم "تولستوى" كفيلسوف، ولكنه كان إنسانا قبل أن يكون فيلسوفا. فلم تكن فلسفته نصوصا جامدة، ولا مبادئ حالمة، وإنما كانت رسالة عملية لإصلاح الإنسان، سواء فى مجتمعه الفردى، أو مجتمعه المحلى - الوطن - أو المجتمع الأكبر.. العالم كوحدة!

والقصتان الطويلتان اللتان يحتويهما هذا العدد من "مطبوعات كتابى"، هما - بإجماع النقاد - خير ما كتب "تولستوى" من قصص، قبل أن يتفرغ لتأليف ر... الخالدتين: "الحرب والسلام"، و"أنا كارنينا".. وقد صور فى إحدا الأرض - فى روسيا القيصرية - محللا نفوس تلك الطبقة، كما شفاعو فى الثانية حياة الطبقة الراقية - فى عهد القياصرة - بما فيها من تفاهة وفى كلتيهما، كان "تولستوى" يخدم رسالة واحدة، هى: إ... ورفع قيمة الكرامة الإنسانية.

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية